

محمد لطفي جمعة

رابح لطفي جمعة

إهـــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية



● محمد لطفي جمعة

الأعلام

٥

محمد لطفي جمعة

رابح لطفي جمعة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

مقدمة

لقد قضيت مع هـذه الصفحات وقضت معى أياما وليالى طيلة مايقرب من عشرين عاما أقلب وأعيد النظر وأزيد وأنقص وأضيف وأحذف وأرتب وأبوب وانسق وأنمق وأبحث وأنقب وأقرأ واستطلع واستخبر وأستنبيء وأجمع وأدون حتى كان هـذا الكتاب عن « محمد لطفى جمعة » .

ولقد كتبت ابحاث ودراسات عديدة عن لطفى جمعه ولكن هـذه الكتابات والدراسات وان كانت قيمة وجديرة بالاعتبار الا أنها تحدثت عن بعض النواحى دون البعض الآخر ، ولا توجد عنه فى المكتبة العربية دراسة وافية ، ولعل هذا كان أحد الاسباب التى دفعت بى الى وضع هذا الكتاب مستعينا فى ذلك بمئات المخطوطات والمذكرات التى كتبها بقلمه فى مختلف مراحل الحياة ، فضلا على الكتب والمجلات والجرائد التى كتب فيها .

وقد وضعت نصب عينى أن أتحقق قدر طاقتى من كل ما كتبته فى هذه الترجمة، ملتزما ما استطعت جانب الموضوعية والحيدة التامة ، محاولا ماوسعنى الجهد ابراز صورة كاملة عن لطفى جمعه وحياته الحافلة بالأحداث والأعمال والآلام والآمال والجهاد والكفاح فى سبيل الله والعلم والوطن ، مبينا أثره فى حياتنا الأدبية

والسياسية والاجتماعية ونهضتنا الحديثة التى بدأت فى مطلع القرن العشرين وتوجت بانطلاق ثورتنا المجيدة فى فجر الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ .

وسبب ثان دفعنى الى كتابة هذه الترجمة عبر عنه لطفى جمعة سنة ١٩٠٨ فى خطرات أفكاره عندما قال : « لا يظهر النابغون الا بعد جهاد عنيف ولاينتفع الناس بمواهبهم الا وقد آذنت شموسهم بالأفول، لأن الادعياء يزاحمونهم بالمناكب وقد يفوز الجاهل على العالم فى بلد لاتعـرف فيه الأقدار» .

والواقع من الأمر أن لطفى جمعة كان أحد رواد نهضـتنا الحديثة منـذ مطلع القرن الحالى واحـد الدعاة الأوائل الى العدالة الاجتماعية ، وعلى الرغم مما بذل على مدى اربعين عاما فى سبيل الله والعلم والوطن والخير والحق ومناصرة الضـعيف ومكافحة الظـالم والدعوة الى الحرية والمساواة فانه مما يحز فى النفس ويكلم الفؤاد كما يقول المرحوم محمد خالد « ان المجتمع المصرى قد نسى هـذا الرجـل العظيم فى حيـاته ولم يعترف له بالجهود الصادقة والمآثر الغراء التى حفلت بها حيـاته وازدانت بها المكاتب وعمرت بها المحافل» .

وسبب ثالث دفعنى الى وضع هذا الكتاب ذلكم هو عهد ووعـد كنت قـد قطعته على نفسى ان اكتب هـذه الصفحات . والله ولى التوفيق

رابح لطفى جمعه

مرحلتان
(١٨٨٦ - ١٨٩٦)

ولد محمد لطفى جمعه فى يوم الاثنين الثامن عشر من يناير سنة ١٨٨٦ الموافق ١٠ من ربيع الثانى سنة ١٣٠٣ هجرية أى فى مستهل القرن الرابع عشر الهجرى فى حى كوم الدكة بمدينة الاسكندرية وهو من الأحياء التى تسكنها الطبقى الوسطى ، من والذين من تلك الطبقة .

ويروى لطفى جمعه أن ولادته كانت عسرة ولم يستطع الرضاع الا بعد ثلاثة أيام حتى كاد يهلك لولا أن جارة أشارت بتغذيته بقطرات من ماء الورد المحلى ، ولما كان لبن أمه شحيحا فقد عثروا على مرضع أظنها السيدة «ملوك» والدة الشيخ سيد درويش .

ولد لطفى جمعة عند أذان العشاء بينما كان المؤذن يقول « محمد رسول الله » ، ونادى شخص فى الطريق باسم ولقب فجعلوهما للمولود الجديد تفاؤلا واستحسانا ، وكان والده عند ميلاده يجلس بعتبة باب الدار اذ كانت أمه قد طلقت بعد الحمل به فجاء الرجل يعلن أنه لم يجىء مصالحا ولامجاملا وانما ليستقبل ابنه الذى سيولد فى هذه الليلة وهذه الساعة ، فعجبوا لدقة حسابه وصدق تقديره .

وكانت له خالة صغيرة فى السن قد اعدت له ثيابا ولفائف وطاقية طرية لينة على بـدنه الغض الصـغير وكانت تعين أمـه وتساعدها كلما اشتد مخاضها . وقيل انه ولد مستورا فى غشاء جلدى رقيق اختلسته الداية التى أشرفت على ولادته ، ولكنه ولد ضعيفا كأنه هيكل عظمى فى كيس من الجلد اظهـر مافيـه تجاعيد جسمه وعنقه وخفوت صوته ثم صراخه عندما بحث عن الثدى فلم يجـد الى أن أدركته عنـاية الله بمشـورة الجارة التى أفتت بتعليله بالماء المحلى .

لقد كانت مجموعة من النساء المختلفات سنا وعقلا هن اللائى استقبلن الطفل ، يقوم عليهن رجل واحد زوج احداهن وهو كهل شبه ميسور محافظ ذو تقاليد يتعاطى التجارة اسـمه حسـن الطويل ، كان ربعة أسمر اللون أنيقا فى ثيابه الاسكندرانية يتكلم بلهجة أهل بحرى التى كأنها تقتلع الحروف اقتلاعا وتبـالغ فى الجيمات المعطشة وغير المعطشة مع سـماحة وبشاشة وميل للخير وعقيدة دينية هائلة .. يحب الحلال ويتحراه ويكره المحرمات ويحاربها ويقسو على نفسه وعلى من معه .. كان محترما ومحبوبا وفصيحا ولكنه لا يفهم المزاح ولا يشجعه ، ولم يكن يكيده الا حرمانه من النسل وقد صنع المستحيل ليولد له ولد ذكر فلم يصبه .. وها هو قد رأى مولودا يولد لبنت زوجته التى يعدها بنتا له منذ غيبت الأقدار والدها . كان الرجل يعطف على الأم وأختهـا وهما ابنتا زوجته كأنهما ابنتاه ، وعلى سيدة ثالثة هى أم زوجته .. وقد كان شـهما لأنه عندما قامت الثـورة العرابية وأرغم أهـل الاسكندرية على الهجرة رحل بهؤلاء النسوة من مقرهن الى حجر النوتية سائرا على رجليه بينما كانت النسـاء محمولات على دواب أو مركبة يجرها حصان هزيل حتى تمكن هذا الكهل من ملازمة ركابهن فى وهج شمس يوليو وتحت أشعتها المحرقة وهو لايمت لاحداهن بصلة الرحم أو الدم وان كان زوجا لاحـداهن فكانت

نخوته ومروءته تقضي بأن يحافظ عليهن وهن ثلاثة أجيال مجتمعة ، مبـاركة ، جدة لطفي جمعـة ـ وفاطمة ، زوجـــة حسن الطويل وخديجة والدة لطفي جمعه وحميده ، خالته .. ثم أقام بهن في خيام ماشاء القدر أثناء ضرب المدينة بالقنابل واطفاء النيران بعد احتراقها ثم عاد بهن في هذا الموكب الحزين عودة المهاجرين الى بيوتهم !!

بعد هذه الأحداث بأربع سنوات ولد لطفي جمعه ومازالت صـــورة الثورة العرابية وأهوالها مرســومة في ذهن أمه وخالته وجدته ، ومازلن يذكرن الأقمشة البيضاء التي أمرن بوضعها على أذرعتهن علامة التســليم وطلاب الأمان لأن من لم يضــعها يعرض لحسبانه ثائرا أو محاربا حتى ولو كان امرأة أو فتاة .!!

أما والده فهو الشيخ جمعة أبو الخير شرف الدين وينتهي نسبه الى علي بن أبي طالب . وينتمي الى عائلة نزحت من الوجه القبلي قبل عشرين أو ثلاثين عاما من مولد صاحب الترجمة وتخلف بعضـها لأسباب غير معلومة في قرية الدلجمون . وقد كانت أواصر القرابة بين الشيخ جمعه وعائلته متصلة حتى لم يكن ليمضي يوم أو ليلة دون أن يجتمعوا في بيت أحدهم في حي من الأحياء التي كانوا يقطنون بها ، وقد ملك بعضهم عقارا حسنا وادخر بعضهم مالا حتى بعض نسائهم ، الا الشيخ جمعه الذي كانت غريزة الملك ضعيفة في نفسه والميل الى الادخار أضعف ميوله ، على الرغم من أنه كان يعتبر رئيسا لهذه العائلة رئاسة روحية ، فما يبرمون أمرا أو ينقضونه الا برأيه ، وقد مات هذا الوالد في السبعين من عمره سنة ١٩٣١ بمدينــة الاسـكندرية في حين أن الوالدة خديجة بنت محمـود السنباطي سبقته الى العالم الآخر في ســنة ١٩٠٣ أي انه عاش بعدها ثمانية وعشرين عاما تزوج خلالها أكثر من عشر مرات على التوالي ومات عن الأخيرة منهن وهي سلمى .

كان الشيخ جمعه أبو الخير رجلا قصير القامة قوى البنية ابيض اللون مشربا بحمرة ، لين الصوت حاد البصر شديد الصبر على المكاره ، قنوعا الى درجة الزهد ، يعمل فى الحياة ليستطيع العيش والعبادة وقد قضى الشطر الأكبر من شبابه فى صحبة الشيخ حسنين الحصافى المتصوف المدفون فى دمنهور ، وقد اخذ العهد على ذلك الشيخ ، وكان يصحبه فى سياحاته ورحلاته وحله وترحاله وكانت صلته ببيت الحصافى قوية حتى أنه كان ينزل هو وزوجته سلمى فى دارهم .

أما أسرة الوالدة فقد كانت مكونة من الجد محمود السنباطى الذى اشتغل بتجارة العطارة وأعمال النجارة وكان رجلا معتدل القامة أبيض اللون سريع الغضب وله لثغة تعوقه عن سرعة الكلام، وربما سبق فعله قوله ، وكان أبوه يقرأ القرآن وقد هاجر هذا الجد الى أرض الحجاز بعد أن أقام أمدا فى بعض مدن الوجه القبلى ومات فى البلاد المقدسة .

من ذكريات الطفولة

يبين من كتابات لطفى جمعه عن الفترة من سنة ١٨٨٦ حتى سنة ١٩٠٨ أنها تنقسم الى مرحلتين متمايزتين تبدأ أولاهما من سنة ١٨٨٦ حتى ١٨٩٦ والثانية من سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩٠٨ وقد سجل عن هذه الفترة بعض ذكرياته مما نستعين به فى هذه الدراسة .

يقول فى مخطوط بعنوان «دراسة مخلصة لعقل انسانى محب للحكمة » انه بدأ حياته بحب طفلة شعر نحوها بحنان عظيم أرجعه الى أنه ولد وحيدا بغير اخوة أو أخوات وأنه كان يصحبها الى شاطىء البحر ويقضى معها ساعات طويلة فى سكوت تام أو فى بلبلة الأطفال وهى كلمات متقطعة لا معنى لها ولا غاية الا التعبير عن حالة السرور الذى يغمره بالبحر والطفلة ـ وقد بقيت صورة هذه الطفلة وقصتها فى دخيلة نفسه عشرين عاما فسجل ذكراها فى فصل بعنوان « نرجس العمياء » فى كتابه « ليالى الروح الحائر » تخيل فيه اجتماعه بها بعد عشرات السنين ولم يكن اسم الفتاة نرجسا ولم تكن عمياء ولم يكن يقصد الى اخفاء شخصيتها ولكن الحزن الذى ساور نفسه عند فراقها طبع فيها صورة قاتمة فأخرجها كما وردت .

ويذكر أنه كان يتناول نقودا لينفقها كالأطفال تعرف « بقرش خردة» ويقال له اصرفها على نفسك فينتقل اللفظ الى ذهنه بمعناه الحرفى ويذهب الى شاطىء البحر أقرب ما يكون الى الماء ويستدبر ثم يأخذ فى رمى النقود وراء ظهره حتى تقع فى البحر واحدا اثر واحد متحدثا لنفسه بما معناه هأنذا أصرف النقود على نفسى ، متوهما أن النفس هى الشخص المادى كله والصرف هو الانفصال عن النقود !! فاذا ماانتهى وعاد الى الدار بأيد فارغة سئل أين النقود ؟ وماذا اشتريت بها ؟ فيقول صرفتها على نفسى فلايسأل بعد ذلك ، الى أن رآه أحدهم وسأله عن سبب القائها فى اليم فأعطاه التفسير الذى خالجه فضحك الرجل وقال اصرفها على نفسك أى أنفقها فى مشترى أشياء لك كالحلوى أو اللعب الصغيرة ، فصار يشترى بها حلوى للطفلة ولا يأكل منها شيئا .

ومن الذكريات التى علقت بذاكرته عن أيام الطفولة أنه كان يبغض جنود الانجليز ولايطيق رؤية فرد منهم ، يذكر أن أحد أقاربه كان يحمله على كتفبه ويجعله يعتمد بيده على رأسه وساقبه على صدره فاذا أشرف على فرد من هؤلاء الجنود كانوا يلبسون ثيابا حمراء قال لحامله « خبينى من هذا ال .... لانى أخشاه وأكره أن أراه » ولم يكن حامله ليملك تخبئته ، فاذا دنا الشخص البغيض ارتعدت فرائصه وأغمض عينيه حتى يمر به حامله البقعة التى لاقاه فيها فيطمئن روعه ، وكان حامله لا يدرك سرا لهذه الحال التى كانت تنتابه كلما صادف فردا من هذا الجنس ، يقول لطفى جمعه «وقد لازمنى هذا الكره طول حياتى ولكنه تشكل بأشكال تلائم تقدمى فى العمر وحصول الظروف والملابسات» .

ومن الحوادث التى يذكرها فى هذه الفترة أنه كان يسير حافيا يوم شتاء ماطر فى شارع كبير بالاسكندرية بصحبة أحد

أقاربه . وشعر في وقت ما بالألم من المشى واضطراره لملاحقة الشخص الكبير وهو بحكم كبره أسرع وأوسع خطى منه وبينما كان يفكر فى الشكوى وقف نوبى كهل كان جالسا على باب احدى العمارات الضخمة وجهر بالقول والتأنيب لقريبه ، فخجل القريب وحمله واعتذر بأن له حذاء فى البيت وأنه رفض انتعاله ، فأحب لطفى جمعه هذا النوبى وأدرك أنه أشفق من قريبه هذا ، يقول لطفى جمعه «وأدركت بعد ذلك أن هذا نوع من الأمر بالمعروف ، ولما كبرت اتخذت هذه العادة بغير خجل وهى أن أدافع عن الأطفال والضعفاء مهما كلفنى ، وكلما نهتنى نفسى أو انتظرت جوابا لئيما ممن أخاطبه فى شأن الطفل أو الضعيف أتذكر صنع هذا النوبى الكريم» .

وقد تعلق لطفى جمعه منذ صغره بالموسيقى ولم يكن أمامه الا سماع المغنين فى الأفراح والمنشدين فى الأذكار وكان يقاوم النوم مقاومة الجبابرة لينصت الى المغنى الكبير وان لم يكن له نصيب فى فهم أنغامه أو معانى ألفاظه ولكن دق الآلات وانطلاق الأصوات كان يحدث له نشوة أقوى من الطعام عند الجوع والشرب عند الظمأ والنوم عند السهر ، فقد كانت هذه النشوة تملك فكره وجسمه فيبقى مسمرا ويتمنى لو يستمر فى السماع الى مالا نهاية ولكن هذا الميل الشديد الى الموسيقى لم يدفعه يوما الى محاولة تعلم العزف على احدى الآلات وان كان قد اشترى كثيرا من المزامير والنايات والكمنجات فلم يوفق الى اخراج نغمة أو شبه نغمة لا بصوته ولا بيده يقول «ولكنى بعد أن تتبعت الموسيقى الاوروبية ولاسيما فى نوع الاوبرا أيقنت أن الموسيقى العربية فيما عدا المرحومين سيد درويش ومحمد صبح وقبلهما عبده الحامولى ومحمد عثمان نوع من العبث واللهو الذميم ، وقد صارت فى أفواه بعض مدعى التجديد دعوة فاضحة لأحط الشهوات والنزول بالنفس الى الحضيض لفظا ومعنى وتلحينا ، وأما الذى وصفوه

أوركسترا مصرية فمهازل ومخزيات وفى أحسنها مايقوم به معهد الموسيقى أخلاط وسرقات» .

ومن الأحداث التى سجلها وشهدها منذ ادراكه وفاة الخديوى توفيق ، ففى أحد أيام شهر يناير سنة ١٨٩٢ ذهب لشراء طعام الافطار من بقال يونانى يحسن الكلام بالعربية وبيده جريدة يونانية فلما باع قال له «افندينا مات فى الليل» فعجب لطفى جمعة لأن الرجل رآه على حداثة سنه أهلا لأن ينعى اليه أمير البلاد ، فتذكر ذلك الخديوى منذ كان يمر بالبلد فى قطار فخم ويحشد التلاميذ والأعيان للقائه فى طنطا ويصيحون له ثلاث مرات «افندمز جوق يشا» !! دون أن يفهموا معناها وكانوا يلمحون وجهه ويتأكدون من ملامحه ولحيته وطريقة حديثه واقبال الكبراء على تقبيل يده ولم تكن سنه تزيد على ست سنوات ، فلما نعى اليه هذا الرجل كان أول خاطر مر به أن هذا الرجل لن يراه فى القطار الفخم ولم يدرك أن له خلفا ، وهرول من عند البائع الرومى الى البيت وتهيأت له ظروف السفر الى القاهرة مع بعض أهله ليشهدوا جنازة الخديوى ، وكم كانت دهشته عظيمة عندما وصل الى القاهرة فقد كانت هذه هى المرة الاولى التى يرى فيها المدينة الكبيرة !!

تلقى لطفى جمعة العلم أول ما تلقاه فى أحد الكتاتيب الريفية وقد ترك ذلك الكتاب فى نفسه ذكرى مؤلمة كما يقول ، فقد نشأ مبغضا للاستظهار وحفظ الدرس عن «ظهر قلب» فلم يكافأ فى المدرسة أبدا لأنه برع فى المحفوظات ولم يعرف ابدا أوزان الشعر ، وكان مصدر رضاء الأستاذ عليه انتاجه لا ما يعيده من اقوال الآخرين ، يقول «دخلت الكتاتيب او المكاتب المعدة لتعليم الصبيان وجلست على الحصر أمام الفقى والعريف وكتبت فى ألواح الصفيح والخشب ومحوت بريقى اللوح القديم ليكتب فيه من جديد

وضربت بالفلقة وكشفت حيل الصبيان على الفقى الضرير وعرفت نفسية العريف الذى يرشى برغيف أو مليم ليغض الطرف عن الولد الذى لم يحفظ أو الذى يلهو وعهدت الجريدة والزخمة من أدوات تعذيب لا تهذيب الأطفـــال . وهربت من الكتاب مرات لا تعـد ، ووضعت طرف ثوبى على نار الكانون لأنهى حياتى بغضا فى الكتاب وبقيت مدة معطلا عن التعليم لخلو القرية التى كنت فيهـــا من معاهد العلم غير ذلك الكتاب التعس !! » .

ثم دخل لطفى جمعه احدى المدارس الابتدائية بحى باب سدره بالاسكندرية وقد سجل ذكرياته عن هذه المدرسة فى جريدة البلاغ الاسبوعى سنة ١٩٣٠ تحت عنوان «تذكارات مدرسية» يقول : «لقد كان معظم الاساتذة فى تلك المدرسة الابتدائية جماعة من انصاف الجهال الذين لم ينالوا اجـازة فى علم من العـلوم واشتغلوا بتلك المهنة اضطرارا أو فرارا من الفاقة أمثال اسكندر افندى استاذ الانجليزية الذى بدأ دروسه بتلقين الاطفال الرضع محفوظات من ايثوب « الثعلب والغراب » وقضى فى تعليم احدى الخرافات ستة أشهر ، ومثل الأســتاذ الألفى الذى حتم على أولاد الخمس أو الست سنين حفظ جدول الضرب والا فيركعـون على الحجر « ديز » ساعة أو ساعتين ، ومثل الشيخ الدسوقى الذى كان يجمع بين تلقين الحساب وأدب الطالب فى حق أستاذه على الطريقة الآتية فيقول لفرقة التلاميذ كم يكون مجموع تســعة وتسعة فيقولون ثمانية عشر فيقول : لا سبعة عشر فيقولون : لا ! فيقول : أنا حينئذ كاذب ؟! فيقولون كلا نحن كاذبون ، وذلك خشية أن ينســبوا له الكذب ، ولا أدرى أى الأمرين أعظم شأنا فى نظر العلم ، صدق الأرقام أو وصف الأستاذ الذى يخطىء تلاميذه عمدا بالكذب !! » .

« وكنت فى الفترة الأولى التى انتهت بسن التاسعة (١٨٩٥)

خاملا فى كل شيء له مساس بالتعليم فلم أحفظ القرآن ولا قواعد اللغة ولا قواعد الحساب ولم أتقن الخطين العربى والافرنجى ، ولم أتفهم معنى الجغرافيا وقد حكم على جميع الاساتذة بالخيبة فى فروع العلوم كلها ولم يحسن بى الظن الا أستاذ علم الاشياء الذى قضى نصف عام فى وصف الحمار !! » .

ويقول فى موضع آخر فى مذكراته المخطوطة « لم اتعلم شيئا فى مدى سنة أو سنتين ولم أعرف فى تلك المدرسة الا الظلم والعسف ، وقد سجل فى مقاله «تذكارات مدرسية» ألوانا من هذا الظلم فذكر أنه عندما حضر أحد الكبار ليهدى هدايا للأولاد النابغين حرم كل واحد منها واغدقها على حفيده باتفاق سابق بينه وبين الاساتذة والناظر ، وكذلك حرم من الظهور فى حفلة الامتحان العام بعد أن استعد لها ـ وكان سبب حرمانه تقديم تلميذ آخر من أبناء عمداء المدرسة .

ويروى فى أحد مخطوطاته عن ذكرياته فى هذه المدرسة « أن مدرسا بها اسمه أبو الشدائد صمم على أن يعاقبه بالضرب مائة مرة على كفه لأنه ضحك عندما سمع للمرة الأولى لفظ كان وأخواتها اذ تنبهت فيه حاسة ادراك النكتة ودهش أن يكون للألفاظ أخوات كبنى آدم ، وقد نفذ الشيخ تهديده حتى ورمت يداه !! » .

وبالجملة فقد كانت فترة تعليمه فى تلك المدرسة فترة مظلمة أظهر ما فيها الاضطهاد والفوضى وجهل الأستاذة والفروق الكبيرة فى أسنان التلاميذ والركوع على البلاط البارد فى الشتاء لتقصير طفيف فى استظهار جدول الضرب والسب باللغة الفرنسية !! .

يقول لطفى جمعه «ولعل شعاعا واحدا يضيء تلك الفترة الحالكة وهو درس المرحوم محمود عمر أحد الموفدين الى مؤتمر

المستشرقين فى استوكهلم ولا ادرى ما الذى ألقى به فى دياجير هذه المدرسة بعد احالته على المعاش وأظنه أراد أن يستمر فى مهنة التدريس ولو فى المدارس الحرة .. ، كان محمود عمر أديباومؤلفا ومعنيا بالشعر والأمثال والأدب الشعبى ، وكان وديعا جدا .. لايسب ولايشتم ولايؤنب ولايضرب وكان يقوم ألسنتنا ويعيننا على قدر طاقته ، وقد ألف كتابا فى الأمثال العامية وآخر فى المواويل وأوشك أن ينتهى من كتاب فى علم الركة فأقبلت على مؤلفات هذا الفاضل وقرأتها بمزيد السرور فكانت أول ما تغذى به خيالى المتعطش ... وقرأت فى كتبه وصف عواصم أوربا وعرفت أسماءها وأدركت وجود عوالم واقوام آخرين غير الذين اراهم فى السكة الجديدة ودرب الأتر وحارة الكنيسة وكفر اسكاروس وتلوت أمثال العوام وتفسيرها ومواضع الاستشهاد بها وحفظت بعض المواليا أو المواويل وأدركت معناها وقد اختفى هذا الأستاذ فجأة فلا أدرى أين ذهب ولماذا انقطع » !!

ويهمنا أن نذكر هنا أن قراءات لطفى جمعة الأولى لمؤلفات محمود عمر فى الأمثال العامية والمواويل تلقى ضوءا على شغفه فيما بعد بالفنون والآداب الشعبية مما سنعرض له .

فى هذه الفترة كانت جدته مباركة بنت ترك ومنصور الوكيل تحفظ كتبا عن ظهر قلب عن طريق السماع والتلقين فقرأ لها ومعها كتبا دينية كأجزاء من البخارى دون أن يعلم معانيها وبعض القرآن وشعرا كثيرا وقصصا كألف ليلة وسيف بن ذى يزن وبعض الجرائد اليومية كالأهرام وجريدة أسبوعية لنجيب حداد ، وكان حديث هذه الجدة حلوا منظما منسقا ولفظها فصيحا صريحا ، وقد روت له قصة ابراهيم الخليل وزوجته ساره وابراهيم بن ادهم وقد كان هذا أول درس له فى التصوف كما يقول .

كما كانت تروى له نوادر جحا وابى نواس واخبار الثــورة العرابية وهجرة أسرته من مسكنها فى المدينة الى حجر النواتية ، يقول لطفى جمعه «اذكر الآن لو لم أرزق هذه الجدة المباركة التى أرشدت عقلى فى خطواته الأولى ووجهتنى الى حب القراءة وسماع الحــديث فما كانت تكون حياة فــكرى .. كانت معلمتى الأولى والأخيرة فاننى لم أستفد من امرأة سواها » .

وقد حضر لطفى جمعة بعض دروس العلم فى الجامع الأحمدى بطنطا كما شهد التمثيل العربى فى روايات من التاريخ القــديم وشهد خيال الظل و (القراقوز) ، ولعل أشد هذه الذكريات ألما وأثبتها ذكرى مشاهدته جلسات المحاكمة وسماعه مرافعة المحامين فى قضايا كبيرة فى قاعات مزدحمة بالمتفرجين ثم مشاهدته تنفيذ عقوبة الاعدام فى كهل فى أحد الميادين .

كل هذا شاهده قبل بلوغ سن العاشرة وقد كان هذا نوعا من العماء والفوضى والمصادفة ساعدت على تكوين عقله فى جــو مضطرب بطبيعة الاشياء ، فلم يدرك معنى لحياة الطفولة الهــادئة المطمئنة ولكنه أدرك الحياة القلقة المضطربة المنوعة المنبهةللعواطف والغرائز والميول .

ولكن كانت هناك أشياء لفتت نظره ونبهت ذهنه كما يقول هى القرآن الكريم عندما حفظ جزء عم لضرورة الامتحان فى ليلة قمرية على سطح منزله ، فتعود السهر ليشــهد النجوم ويسبح فى عالم التخيل الذى يملأ خيال الأطفال ..

مرحلة جديدة
(١٨٩٦-١٩٠٠)

كل هذا وقع قبل أن يبلغ لطفى جمعة عشر سنوات من عمره ، وفى ختام العشر تغير وتبدل كل شىء فى لمحة عين . اذ دخل سنة ١٨٩٦ مدرسة ابتدائية أميرية فى طنطا فى السنة الثانية الابتدائى فكان كل ما بذله فى المكاتب والمدارس الحرة لم يعوض عليه الا تعليم السنة الأولى .

لقد كان دخوله تلك المدرسة من أهم الأحداث فى حياته كما سجل ذلك فى مذكراته .

فقد شعر فى أول السنة الحادية عشرة من عمره بالتبعة والمسئولية وأدرك أن الحياة جد ونظام وان عهد الطفولة الذى لم يخرج به الا بسنة واحدة من التعليم قد انتهى فعلا وحكما واتجه اتجاها آخر عندما وجد فراغا كبيرا للقراءة فى غير كتب المدرسة .

فمنذ الشهر الأول اقتنى كتبا كثيرة أحضرها له والده ، كما وقع له عدد من الكتب والمجلات الانجليزية فبدأ يقرأ فى هذه الكتب بغير نظام ولاترتيب، ويلتهمها التهاما ويسهر الليالى فيها بعد اتمام واجب المدرسة الذى كان تافها بالنسبة لما فى هذه الأسفار الضخمة من

ألوان المعرفة ، وعندئذ فكر في تكوين مكتبة فلم يجد غير نافـذة مطلة على فناء البيت فاتخذهاصيوانا أو دولابا وبدأ فى اعداد مكتبة عربية من عشرات الكتب القديمة والحديثة ٠

وشعر بميل الى دراسة التراجم ولا سيما ما كان منها مكتوبا بأقلام أصحابها ، ثم مال الى ما له علاقة بالفـكر والعقل والروح والموت والبعث ، ولم تكن عنده فكرة خاصة بالدين الا من ثلاثـة أشياء كما يقول « أقارب له يقيمون الصلاة ويصومون ويحتفلون بمولد النبى وليلة القدر ، ومقرىء يتلو القرآن فى البيت فى كل يوم ، وأخيرا حفظ بعض السور من جزء عم وتبارك فى المدرسة ، ولم يحاول الأساتذة تعليم الدين سـوى ترديد أسماء سيدنا محمد وسيدنا أبى بكر وسيدنا عمر ٠٠٠ الخ كأنهم كانوا يتحاشـــون تنفيذا لبعض الأوامر أن يعرضوا بضاعتهم وكان جلهم من متخرجى الأزهر ودار العلوم » ٠

يقول لطفى جمعة « لم أسمع وأيم الحق كلمة ايمان أو عقيدة من أحدهم ٠٠٠ لم يقولوا ولم ينطقوا أثناء ثمانى سنوات قضيتها فى التعليم الابتدائى والثانوى كلمة فى الوطن أو الدين أو الأخلاق أو التاريخ الصحيح ، ولم يحاول أحدهم عفا الله عنهم وطيب ثرى من مات منهم — أن يرفع الغشاوة عن أبصارنا ولو تلميحا ٠٠٠ كانوا جبناء جبنا غليظا وكانوا يخـــافون شبح دنلوب والمفتشين الانجليز والنظار المنافقين والدساسين والجواسيس فقنعوا بالمرتبات والثيـــاب الجـديدة والطرابيش الحمراء عن أداء الواجب نحـــو التلاميذ ، ولما كبروا وشاخوا حافظوا بأمانة عظيمة على جبنهـــم ونفاقهم وتملقهم لسادتهم وكان من مظاهر نفاقهم أنهم يجتهدون فى تعلم اللغة الانجليزية وقد قوض بعض النظار القسم الفرنسى » ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع لطفي جمعة أن يتصيد ـ على حد تعبيره ـ أسماء بعض الكتب العربية وتربص حتى اشتراها متكبدا المشقات حتى قرأها ولم يتجاوز اذ ذاك سن المراهقة وهي تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ومقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة ولزوميات المعرى فبدأ يتصل بالعقول العالمية الكبرى ، وقد نصحه أحد الأصدقاء بتاريخ ابن رشد وابن سينا وبكتاب صغير في المنطق وآخر في الفلك فكانت ليالى سعيدة تلك التي عرف فيها اسم الفلسفة وموضوعها وتاريخ بعض رجالها في الشرق والغرب .

وفي تلك المرحلة بدأ اهتمامه بتعلم اللغة الانجليزية ووقعت له مجموعة من المجلات الانجليزية المصورة وشرع في وضع قاموس ليستعين به على فهم ما فيها يقول « لقد كان فرحي عظيما عندما تمكنت من المطالعة في المجلة الانجليزية بمعونة القاموس وأنا في السنة الثالثة الابتدائية وكنت كثيرا أتكلم بهذه اللغة فأحقد هذا بعض التلاميذ على ورمونى بالتقعر والغرور والتفرنج وتألبوا على عندما رأوني أحاول التكلم بالعربية الفصحى أيضا فأقاموا على حربا وأنذروني بالانتقام اذا حاولت احدى الحسنيين وهما اتقان لغتي وتعلم لغة أجنبية !! » .

وبدأ اهتمامه أيضا في هذه المرحلة بقراءة الصحف والجرائد وانشغل ذهنه بالحروب التي حصلت في طفولته وأهمها حرب الترك واليونان ومصر والسودان وحرب الحبشة والطليان وحرب البوير وبدأ يدرك ما يسمى بالسياسة الداخلية من قراءة المجلات الهزلية مثل الأستاذ لعبد الله النديم وأبو نظارة زرقا لصنوع اليهودي المصرى وحمارة منيتي ، وكانت هذه المطبوعات أكثر حرية من الجرائد كالمؤيد والأهرام ، وقرأ مقالات مثل مصرع فيلكس فور وفهم الفرق بين حكومة الجمهورية والملكية والامبراطورية

بمناسبة موت هذا الرجل ، كما قرأ مقالات فى الوطنية المصرية وفى الدفاع عن الدولة العثمانية فتكونت فى ذهنه صورة مشوشة عن حياة الحكام والمحكومين ٠

وعندما كان لطفى جمعة فى الرابعة عشرة من عمره ــ سمع بمعرض باريس فشغل كما يقول بالسفر الى باريس ولم تكن له أية فرصة لمثل هذه الرحلة ولكن اعتقاده كان جازما بأنه لابد مسافر يوما الى باريس هذه !!

وفى تلك الفترة أيضا حصل على جمهرة العرب كما وصـــل الى يده بعض الكتب الانجليزية فى قصص شكسبير وتاريخ أثينا وروما وترجمة لين بول لألف ليلة وليلة وترجمـة المعلقات السبع لليدى ويلفريد بلنت ومواعظ أثيــوب ، ولم يعجبه أن يقتصر على لغـة أجنبية واحدة فشارك بعض تلاميذ مدرســة الفرير فى تعلم مبادىء الفرنســـية فى كتاب ماشويل كما وقع له كتاب النقش على الحجر لكرنوليوس فانديك ومجانى الأدب بكامل أجزائه ٠

وفى سنة ١٨٩٩ سافر الى قرية صفط الملوك من اعمــــال مركز ايتاى البارود وأقام فى بيت أحـد أصهاره ثم لم يلبث أن مل الاقامة بالريف وعزم على التمارض للفرار ، لأنه كان منتظرا أن يقيم ثلاثة أشهر ولكن حدث ما جعله يبقى وسمر أقدامه وشـدها الى تلك الحيــاة التى ملها وهــذا الشىء هو غرفة مهجورة فى آخر البيت مظلمة لا يدخلهــا هواء ولا نور ومغلقة لا تفتح وقد فقـد مفتاحها فصمم على فتحها وتمكن من كسر الباب وما أن دخلهـــا حتى وجد كنزا ثمينا أغلى مما وجد علاء الدين كما يقول فقد كانت الغرفة ملآنة بالجرائد والكتب المجلدة فى تفاسير القرآن والبخارى والفقه واللغة والأدب ، فأقبل عليها وأخذ اذنا بالنظر فيها فـلم

يكتفوا بالاذن له بل وهبوها له ووقفوها عليه وأباحوا له نقـــل ما شاء منها ·· يقول لطفي جمعة « ما كان أسعدني في ذلك اليوم!! لقد تغير كل شيء في نظرى وأصبحت القرية روضة من الجنـــة ونسيت نشـــاط الحقول وركوب الفـرس واتجهت الى الغـرفة المسحورة ·· كانت فيها كتب حاولت فك طلاسمها وصحف من عام ١٨٨٦ تاريخ مولدى ولا سـيما الأهرام والبصـير ولسان العرب والمقتطف وبجانبها الكتب المقدسة » ·

وفي سنة ١٩٠٠ حصل لطفي جمعة على شهادة الدراســة الابتـدائية ·

ذكريات المدرسة الخديوية

انتقل لطفي جمعة الى القاهرة لمواصلة دراسته الثانوية والتحق بالمدرسة الخديوية التي كانت حينذاك بدرب الجماميز ـ ولما لم يجد في دروسها ما يشفي غلته ـ هم بأن يلتحق بالأزهر بعد أن قرأ بعض كتبه في صحبة صديقه المرحوم محمد عثمان الفندي ، ولكنه علم أن التعليم في الأزهر يقتضي أن يخلع زي الأفنـدية الذي درج عليه ويلبس العمـامة والجبـة وتحدث الى أحـد أصدقائه فنصحه بالعدول عن هذه الفكرة فعمل بمشورته ولكنه حاول الاتصـــال بالأزهر جهد طاقته وكان هذا سبب اتصاله بالمرحوم الشـــيخ محمد عبده ٠

وقد لفت نظره في تلك المدرسة شعر شكسبير وبعض قصصه وكتاب في فلســفة أفلاطون وأخبـــار عن داروين ، فودع دروس المدرسة وجعل لها أضيق حين من وقته وعكف على مجلة المجلات الانجليزية وعلى تاريخ الاسلام بتلك اللغة من تأليف لين بول ، وحدث أن زار المدرسة في تلك الأثناء ادوارد برون وعلم لطفي جمعة بعلاقته بالشيخ محمد عبده وسمع باسم الافغاني فتحرر دون غيره من التلاميذ وبدأ خوجات الانجليز يناصبونه العـداء ويضطهدونه ويوقعون عليه مختلف العقوبات مثل غـذاء الخبز بغير أدام ظهرا

فكان لا يأكله ، وجمباز الصباح الساعة السادسة فى الشتاء والحجز بعد ظهر الخميس ، ولم يكن بعد كما يقول قد تكلم فى حب الوطن أو التعلق بالدين ولكن هؤلاء الجواسيس الماكرين يدركون الأمور فى بواكيرها ويتقون الحوادث قبل الحاجة لعلاجها ، يقول لطفى جمعة « من كل هذا الجيل الذى عاصرنى لم يتحرر غيرى لأننى عاندت أهلى وأعرضت عن كل نصح ولم أقبل الخضوع مطلقا ولم يثر أحد من التلاميذ وقبلوا كل المظالم كأنها أمور واقعة لا مفر منها تحت تأثير آبائهم الذين كان معظمهم من الموظفين أو من الفلاحين الخاضعين للموظفين » .

« وكان الكلام عن الوطن أمرا مجهولا لديهم ، كل هذا بعد الثورة العرابية بعشر أو خمس عشرة سنة فقط وكان معنا على فؤاد طلبة أحد أبناء رجال تلك الثورة خاضعا وديعا محبوبا من الانجليز لأنه ولد ونشأ فى سيلان وتعلم لغتهم !! » .

« ولقد عرف الانجليز كيف يسيطرون على عقول الشباب فى الخديوية والتوفيقية ورأس التين ولم تكن هناك مدارس ثانوية سواها وكبلونا بسلاسل من الجهل والخوف والذل » .

« ولم يثر أحد من الأساتذة سوى اثنين هما المرحومان طنطاوى جوهرى وعلى فوزى ، الأول شذ فى تعليمه فهجر النحو والصرف والبلاغة وأخذ يلقى علينا دروسا عن احياء علوم الدين للغزالى والرسالة القشيرية ، والثانى ثار لظلمه فى مرتبه وارهاقه فى العمل فتحملوا الأول بعد أن أنذروه وهددوه وأغدقوا على الثانى المال ورقوه ، وأما البقية الباقية فكانت ترعى برسيم الحياة الحكومية فى أمان !! » .

« .. بئست هذه الفترة !! التفت حولى فلا أجد واحدا من رفقاء

حياتى تحرر من أغلال ماضيه وخرجوا جميعا كأقماع السكر على وتيرة واحدة .

« بئست هذه الفترة !! لقد قتلت هذه البيئة عاطفتي الثقة والصداقة بين الأولاد وقسمتهم شيعا وطبقات ومنهم من كان يضفف شعره ويغرقه فى الكوزماتيك والروائح العطرية ويخيط ثيابه عند كوتاريلى أو دلبانى ومنهم من كان ينذر لله انه ان تفوق ونجح يلبس رباط رقبة من حرير ويتختم بالذهب ويقبض على عصا ذات مقبض من الفضة ويحلى صدره بسلسلة ذهبية، فلما نجح نفذ نذره ووقف عقله عند هذا الحد ، ومنهم من تلقاه أقاربه فى مقاعد الوظائف الدافئة عملا بتقاليد الأسرة ، ومنهم من عاش على ايراد أطيانه وصوف أغنامه وقطن حقوله وصياح ديكته ان الملاك اذا احتلوا قرية افسدوها وجعلوا فلاحيها أذلة وكذلك يفعلون !! » .

« ولم تفلح الحرية أو المبادىء العليا والكفاح القومى او العلم العالى أو الاكتشاف المغرى أو الأدب الرفيع أو الفنون الجميلة احدا من أبناء هذا العصر لأن قوة المحتلين وضعف الخاضعين تضافرا على افساد عقول قابلة بطبيعتها للفساد ومعدة باستعدادها للذل والعبودية ومطبوعة بفطرتها على الأنانية وحب المال والشهوات والنساء والمقامرة والخمر والحسد والأحقاد » .

« وقد كان المعين على هذا البلاء والغدر دوجلاس دنلوب ويعقوب ارتين وجميع نظار المعارف فكان من المستحيل على تلميذ أن ينبغ فى اللغة العربية اذ كان التعليم يؤهل التلاميذ للعبودية للأجانب ويحصر أرزاقهم بين أيدى الانجليز فى دواوين الحكومة » .

ويقول لطفى جمعة « الحق أننا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى سنة ١٩٠٨ كنا مسرعين الى

الدمار العقلى بخطوات واسـعة ولم ينقذنا الا الله بحادثة دنشـواى فيا لها من نعمـة فى صورة نقمة ويا لها من واقعـة دموية رن فيها صوت الدماء رنينا موقظا منبها ثم صار مطربا لذيذا !! » .

وبالجملة فقد كانت فترة التعليم الثانوى بالنسبة الى لطفى جمعة ولأمثاله فى أوائل القرن العشرين محنة ، وان نال أحد منهم شيئا من المعرفة فبمحض جهده وشـغفه وتشـوقه واسـتعداده ، أما الآخـرون وكان معظمهـم من الريف فكانوا يقبلون على التعليم المدرسى بنية الحصول على شهادة ليتوظفوا بها وهم فى غاية من الغفلة من الناحية السياسية والقـومية والثقافية فقد كانت الوطنية غـير معـروفة عندهم بتاتا مع وجود مصـطفى كامل وجـريدة اللواء ، ولا الدين كذلك مع معاصرة الشيخ محمد عبده ولا الاجتماع مع وجود قاسم أمين وسـعد زغلول وأمثالهما ولا يدرون شيئا عن الحيـاة العـامة » .

فى هذه الظلمات المطبقة أضاء شعاعان من النور أطلا على لطفى جمعة ــ رغم القيود والسدود ، الأول الشيخ طنطاوى جوهرى وكان متحررا يريد التقدم والفهم ، وقد نجح معه نجاحا عظيما اذ وجهه أو ساعد توجيهه الى التفكير فى الحكمة فقرأ جميع ما كتب هذا الرجل الفاضل واستمرت علاقته به الى أن توفى سنة ١٩٣٨ .

كتب اليه طنطاوى جوهرى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٠٨ يقول « لقد سرنى أن نفسك أقبلت بتيارها المنحدر وبحرها الزاخر على ذلك الصاحب القديم الذى عهدها مخلصة عشاقة للعلم ؛ دراكة للحكمة تذكر ياعزيزى أنه كان فيما مضى هناك بعض الشىء تخلل النفوس ، ولكنه كان ظاهريا .. تذكر يا عزيزى انى كنت أعاتبك . هذا حق لأنى كنت أحاول أشد المحاولة ألا يكون بين القلوب حجاب

ولا على النفوس نقاب وكنت أقول لا خير في ود تلميذ وأستاذ أو بين اثنين اجتمعا على العلم مع أقل شائبة · قد قرر الحكماء يا عزيزى أن المودات على أقسام ··· منها ما ينعقد سريعا وينحل بطيئا كمودة العلم والحكمة والعلم والحكمة باقيان فما دام السبب باقيا فالمسبب لا جرم باق ، مودة العلم اذا خلصت من الشوائب أرضت الأحباب جميعا فهى اذ ذاك كنجم ينظر له الناس من أقطار مختلفة ولا عداوة بين الناظرين ولا تحاسد بين العاشقين بخلاف المودات الناجمة عن المادة » ·

كما كتب في ديسمبر سنة ١٩٢٩ يقول « قد أذكر في تلك الأيام الخالية في السنين الماضية أيام تبدى منك النبوغ في الدراسة الثانوية فكنت مثلا أعلى في المثابرة على العمل وقدوة في الجد ونبراسا في الاجتهاد متوقد القريحة بحاثة لا تألو جهدا في متابعة البحث ولا تتوانى في العمل » ·

أما الشعاع الثانى فقد صدر عن المرحوم على فوزى أستاذ الترجمة بالخديوية وقد ساعد لطفى جمعة فى اتقان الترجمة واحسان اللغتين العربية والانجليزية ·

فى هذه المرحلة انتهز لطفى جمعة الفرصة للتعرف ببعض الكتاب والأدباء أمثال أحمد حافظ عوض ومحمد مسعود والشيخ على يوسف وحافظ ابراهيم والكاظمى والثعالبى وأحمد شوقى وفريد وجدى وفرح أنطون وجورجى زيدان وخليل مطران ، ومن لم يلقه أخذ يراسله بغير سابق معرفة ·

وانضم الى الحزب الوطنى لاعتقاده أن مؤسسة المرحوم مصطفى كامل على حق وقد استفاد من عشرته كثيرا من المبادىء

السامية والاتجاهات الشريفة ومن بينها النأى جانبا عن وظائف الحكومة أو السعى اليها والاعتماد فى الرزق على الأعمال الحرة ٠

ولكن الشقة كانت بينه وبين هؤلاء بعيدة ولم يكن ليتاح وقت لحديثهم والاسترشاد بهم ولم يكن عند أحدهم قدرة على توجيه الشباب فيما عدا مصطفى كامل والشيخ محمد عبده الذى تعرف به فى السنوات الأخيرة قبل وفاته وزاره فى داره بعين شمس بعد مكاتبات طويلة بينهما اثبتها الشيخ محمد رشيد رضا فى الجزء الأول من تاريخ حياة المفتى بناء على أمره (١) ؛ وقد تأثر لطفى جمعة بالمفتى كثيرا كما تأثر بمصطفى كامل وقاسم أمين ، فقد كان كل منهم من أرباب المثل العليا ولم يكن بينهم كما يقول وصولى أو مستجلب للغنيمة أو منافق وأن كان كثير مما صادفه من العقبات فى حياته كان بسبب اتباعه مبادئهم السامية ٠

فى هذه المرحلة تطلع لطفى جمعة الى التأليف ونشر التعليم وخدمة الأمة فطبع أول كتاب له « فى بيوت الناس » سنة ١٩٠٣ وهو مجموعة قصص مصرية سوف نتحدث عنها بشىء من التفصيل فيما بعد ، باعتبار أنها أول باقة قصصية مصرية ظهرت فى مطلع القرن العشرين وقبل أن يخط أحد ممن أطلق عليهم رواد القصة المصرية حرفا واحدا فى التأليف القصصى ٠

وفى سنة ١٩٠٣ مرضت والدته ـ وكانت تقيم معه بالقاهرة فسافر معها الى طنطا وفى العطلة الدراسية كان المرض قد ألح عليها واشتدت وطأته وانتهى بوفاتها فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وهو يستعد للعودة الى المدرسة فى العام الدراسى الجديد ، فاضطربت

---

(١) تاريخ الامام الشيخ محمد عبده ، ج ١ ، ص ٧٩١ ـ ص ٧٩٦ ٠

أحوال معيشته كما اضطربت حياته الروحية ـ واضطر الى دخول القسم الداخلى بالمدرسة الخديوية فكانت محنته ليس بعدها محنة بسبب النوم مع مائة تلميذ تحت رقابة الضابط والفراش والمذاكرة الليلية العقيمة بالاجماع فى غرفة سفلى ، عارية باردة ثم النوم والطعام والفسحة والوقوف والحمام واليقظة بمواعيد أليمة .

فى هـذه الفترة أسس لطفى جمعة بالمدرسـة جمعية باسم « شمس الهدى » لالقاء المحاضرات والتدريب على الخطابة ومطالعة الكتب المفيدة والاجتماع الحر فى أوقات فراغ الداخلية ووضـع للجمعية شارة ووساما وأغرى اخوانه بكل الوسائل حتى انتظمت ، وكان أعضاؤها يجتمعون فى كل غروب بين العشاء والمذاكرة الليلية ولم تكد تمضى بضعة أيام حتى وشى بهم أحد الضباط الى شيرمان الناظر الانجليزى فاستدعى لطفى جمعة واستعلم منه عن مقاصد هذه الجمعية وأغراضها ثم بدأ عهد الاضطهاد ، فأباح الاجتماع مرة واحدة كل أسبوع وتحت اشراف الضـابط المنوب وألا يلقى فى الاجتماع كلام دون أن يقدم اليه أولا بوساطة سكرتيره ولا يلقى حتى يوافق عليه !! ثم صار الاجتماع كل أسبوعين ثم أخذ الضباط يرهبون التلاميذ ويوعزون اليهم بالتخلى عن هذه الجمعية . وبعد أن كان شـيرمان يعطف على لطفى جمعـة لاتقانه اللغة الانجليزية ولا يقبل فيه لوما ولا شكوى ، انقلب عليه مرة واحدة وحرمه من ادارة مكتبة المدرسة وتقصده بالعقوبات الدنيئة وهدده بالرفت .

ولم يفطن لطفى جمعـة حينذاك الى أن الانجـليز لا يريدون التلاميذ يقرأون ويتكلمون ويتدربون على الخطابة والحياة العامة فشكا الى مستر فوستر سميث ومستر جونز ومستر تاتون براون أساتذة التاريخ والانجليزى والرياضيات فكانوا يوعدونه خيرا ولكن الاضطهاد استمر بل زاد .

وذات يوم جاءه مستر جونز على انفراد وقال له بصراحة « ان الناظر والخوجات والضباط ناقمون عليك بسبب الجمعية السياسية التى أسستها فى القسم الداخلى ونحن الانجليز للأسف يا بنى ننظر الى مثل هـذا الأمر فى مصر والهند وبقيـة المستعمرات بعين الريب خشية أن تكون مقرا للثورة والتهييج وهذا أمر غير مرغوب فيه بتاتا وهو يعطلكم عن دروسكم ولم يؤن أوانه ، فان كنت تريد أن تعود الى مكانتك فى عين الناظر فاصرف هذه الجمعية وانقض بنيانها لأنه لا معنى لاسم شمس الهدى ...

هذا رأى الناظر والأساتذة أما رأيى أنا فهو أن هـذا تقييد للحـرية ، وكان يجب علينا أن نشجعكم وندربكم على الفصـاحة والتفكير والخطابة ما دام ليس فى مصر جامعة مثل اكسـفورد أو كمبردج بل مجرد مدارس فنية عالية فاختر لنفسك ما يحلو ... واعلم ان استمرارك سيؤدى الى رفتك من المدرسة وكل الخوجات ينظرون اليك بعين الارتيـاب وقد يكون لهـذا عواقب سـيئة فى الامتحان !! » .

يقول لطفى جمعة « عنـدما قال لى جونز هذا الكلام الخصب العذب فى لهجة مؤدبة واخلاص أشرقت على « شمس الهدى » الحقيقية وفهمت السياسة الانجليزية » .

ثم قال الرجل « أنا لا أنتظر منك ردا ولا جوابا ولكن أطلعتك على بواطن الأمور وتركت لك الخيار » .

ولكن لطفى جمعة صمم على الاستمرار وقال له « ان الناظر يمكنه أن يحل الجمعية بالأمر الرسمى » .

وقد سـجل لطفى جمعة ذكرياته عن فترة دراسته بالمدرسـة

الخديوية في جريدة المقطم سنة ١٩٣٦ (١) بمناسبة العيد المئوى لتلك المدرسة كما شارك في احتفالات هذا اليوبيل ٠

وقد اصطفى لطفى جمعة من بين تلاميذ المدرسة بعض الأصدقاء أمثال أحمد مختار بخيت ومحمد المنجورى وابراهيم رمزى وعلى فؤاد طلبة وحسن نشأت وحسن أنور وعبد الرحمن الطوير وصالح كامل الحكيم وأحمد واصف ومحمد عبد الله صالح الجاوى ومحمود السبع وعبد العزيز اسماعيل ومحمود وهب وعبد العزيز حلمى ولم يزد على هؤلاء الا بعض طلاب القسم الفرنسى مثل المرحوم على أيوب وعبد الرءوف حلمى ٠

يقول لطفى جمعة « لم يكن لى الا عدد محدود من الأصحاب ولا بد أن يكون لأحدهم ميزة تسوغ صداقتى اياه ، فمنهم من كان نابغا فى اللغات ومنهم من كان جميل الصوت ينشد الأغانى ويحسن توقيعها كالأستاذ صفر ومنهم من كان حسن الأخلاق جدا ، ومنهم من كان يناقشنى فى السياسة الخارجية وتاريخ الاحتلال الانجليزى ووجوب مقاومته حتى يخرج الانجليز من مصر ومنهم من كان يقرأ معى شعر شكسبير ٠٠ » ٠

ولقد صح حدس المستر جونز اذ حذر لطفى جمعة من أن الخوجات ينظرون اليه بعين الارتياب بسبب جمعية شمس الهدى وأن ذلك قد يكون له عواقب سيئة ٠ فقد رسب فى الامتحان وعاد الى طنطا حيث أقام بمنزله منفردا ، وكان فى سنه اذ ذاك شاب هو الأستاذ يوسف كرم وكان يحب الفلسفة ويناقشه فيها فقرأ معه ترجمة هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزى على ضفاف قناة الجعفرية بمدينة طنطا ٠

وفى تلك الآونة اتجه ذهنه الى تكوين جمعية للبحوث العقلية

(١) المقطم فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ ٠

والعلمية ووقعت عليه القرعة لالقاء المحاضرة الأولى عن أبي العلاء المعرى وليو تولستوى والمقارنة بينهما وكان ليو تولستوى حينذاك على قيد الحيـاة فألقى تلك المحاضرة فى ليلة من ليالى صيف سـنة ١٩٠٤ فى حديقة عامة وحضرها كثير من الشبان والطلبة ، ويبدو أنه فلتت منه كلمة ـ كما يقول ـ تقرب هؤلاء المفكرين المتزهدين الواهبين أموالهم وأعمارهم للانسانية من درجات النبوة أو الرسالة الربانية ، فهاج الناس وماجوا وترامت الشائعات وتحركت الأضغان والأحقـاد لغير سبب ، وفى الاجتماع التالى للجمعية رشق بعـض السفهاء المجتمعين بالحجارة وتظاهروا مظاهرة كبيرة وكتب بعضهم ومنهم المرحوم فؤاد سليم فى بعض الصحف اليومية يصفون عمل الجمعية بالالحاد والكفر وكتبت جريدة يومية شهيرة مقالا افتتاحيا بعنـوان « ظهور ملحد جديد » ، استعدى كاتبها الحكومة ورجال الدين وطلب من المدير والنيابة تحقيق هـذه الحادثة كما طلب من المدير منع هذه الاجتماعات ومحاربة الكفر والفتنة ، فنصح بعـض الأصدقاء الى لطفى جمعة بالفرار من طنطا خشية الانتقام .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قاطعه لفيف من الأصـدقاء الذين لا دخل لهم فى الفلسفة والعلم بل كانوا يجلسون معه فى مقهى على شاطىء النهر وعللوا مقاطعتهم باختلافهم معه وأنصـار جمعيته فى الدين !! .

ويبدو أن الاضطهاد بمدرسة الخديوية قد زاد على أثر هـذه الأحداث فسافر لطفى جمعة الى الشام لاتمام دراسته الثانوية سنة ١٩٠٤ والتحق بالكلية الأمريكية ببيروت الا انه لم يطل به المقام فعاد الى الوطن وبحث عن عمل ليتكسب منـه ، فصمم على الاشـتغال بالتدريس فالتحق بمدرسـة القربية ثم بمدرسـة حلوان للعمل بها مدرسا للغـة الانجليزية وانتقل فى آخر سنة ١٩٠٥ الى حلوان

حيث أقام بها وكان من تلاميذه فى مدرسة القربيه عبد الرحمن عزام وعبد القوى أحمد وعبد الرحمن الساوى .

وقد سجل لطفى جمعة ذكرياته عن هذه الفترة فى جريدة البلاغ الاسبوعى سنة ١٩٢٩ تحت عنوان «تجارب مدرس مصرى فى مدرسة ابتدائية» وجاء فى هذه الذكريات أنه عند ما صعد الى الفصل كانت دهشة تلاميذه لرؤيته عظيمة اذ كان يقل عن كبارهم فى السن ويمتاز عليهم بحسن الهيأة !!

ويذكر أنه فكر فى تكوين مكتبــة للتلاميذ تضم كتبا مختلفة وبعض الجرائد والمجلات ليتعودوا المطالعة فى أوقات الفراغ وتأليف جمعيات من التلاميذ ليتعودوا الاجتماعات النافعة والخروج لزيارة الآثار والتنزه جماعات فى الجهات الخلوية - ولكن أحدهم اتهمه بأنه ثورى وأن أحدا لا يوافقه على هذه الحركة فى المدرسة وأن المفتشين الأجانب فى نظارة المعارف لو سمعوا بهذه الأفكار ينقلونه حالا الى الأرياف !!

ثم حدث أن نازعه ناظر المدرسة - وكان رجلا ضيق الفكر - فى حقــه فى ترجمة بعض النصــوص العربية القــديمة الى اللغة الانجليزية ، لأنه رأى فى ذلك مساسا بالدين على حد زعمه - فبادر لطفى جمعة الى تقديم استقالته وترك هذه المدرسة غير آسف كما يقول - وحاول بعد ذلك الاشتغال بعمل كتابى فى احدى الشركات التجارية ولكنه لم يوفق فاتجه الى العمل فى الصحافة وعمل محررا بجريدة اللواء لسان الحزب الوطنى حينذاك .

وفى سنة ١٩٠٦ سافر الى أوربا بقصد السياحة فى بلدانها ، فطاف بايطاليا وفرنســا والمانيا وســويسرا وانجلترا وزار تركيا ودول البلقان .

وبعد أن عاد من جولته نصحه المرحوم مصطفى كامل بمواصلة الدراسة والالتحاق بمدرســة الحقوق يقول لطفى جمعة « لا أنسى حديث المرحوم مصطفى كامل فى ادارة جريدة اللواء اذ كنت أقدم له نسخة من كتابى « تحرير مصر » اياك والاشتغال بالسياسة دون أن يـكون لك عمل ثابت ومورد رزق معروف فانهم فى مصر يصمون الخادم المتفرغ لمصلحة الوطن بالنصب والاحتيال » .

كما نصح اليه صديقه وأستاذه على فوزى ورفيق صباه المرحوم محمد النجار أن يحاول الفوز فى الامتحان وكان اذ ذاك يربح من عمله ـ كما يقول – أضعاف أرباح الموظفين ، فصح عزمه على تحقيق أمنية المرحوم مصطفى كامل وصديقه وبعض أقاربه ـ وكان ذلك فى أواخر الربيع وقبيل الامتحان النهائى بأسابيع قليلة ، فاتجه فكره أول ما اتجه نحو أصدقائه الذين خانهم الزمن وقبلوا وظائف وزارة المعــارف فى عهــد دنلوب وكانوا يعانون شظف العيش وذل تلك الوزارة فى ذلك العهد ، وكان بعضهم قد تزوج ورزق أولادا وقنع بالدون القليل من الرزق وانصرف عن التعليم والتعلم ، فقصد اليهم فردا فردا وفاتحهم فى غايته فرحب بعضهم بالفكرة وأعرب كثير عن يأسه وهزأ البعض بالمشروع ، فما زال بهم حتى جمع شـــملهم فى غرفة من مدرسة مهجورة وجعل منها مدرسة ليلية وجمع أساتذة فى كل فن وبذل الجميع المــال القليل فى شراء المقاعد والمصــابيح والنظافة واعداد الكتب ، وبدأ العمل من السادسة مساء الى نصف الليل حتى اذا عاد الى منزله بالحلمية الجديدة واصل الدرس حتى الثالثة ونام غرارا الى الخامسة ثم يواصل العمل فى الخامسة الى الثــامنة فى البيت ثم يتجه الى عمله فى جريدة اللواء العــربى والانجليزى حتى الأولى بعد الظهر ومن الأولى حتى السادسة يتلقى درسا خاصا فى اللغة الفرنسية بشبرا وآخر فى الرياضة فى مقهى ثم يعود الى دار الكتب لأجل التاريخ والأدب العربى .

وتقدم الجميع لامتحان البكالوزيا صفا واحدا كالمجاهدين في معركة حاسمة ، ونجحوا جميعا وكانوا يوصفون بأنهم تقدموا من منازلهم · وهكذا حصل لطفي جمعة على شهادة البكالوريا شعبة الآداب في يونية سنة ١٩٠٧ والتحق بمدرسة الحقوق الخديوية ·

وشـاءت ارادة الله أن يقضي مصـطفى كامل نحبه في السنة التالية وأقيم له بمناسبة الأربعين حفـل تأبيني بمدرســة الحقوق خطب فيه لطفي جمعة خطبة أقعدت دنلوب وأقامته مما أدى بناظر المدرسة الانجليزى المستر هيل الى رفته من المدرسة نهائيا !!

ولكن ذلك لم يفت في عضده ولا في عزمه وتصميمه واصراره على مواصلة الدراسة والحصول على شهادة عملا بنصيحة المرحوم مصطفى كامل ·

فشـد الرحال الى فرنســا في طلب العلم وفي سبيل خدمة الوطن ، وهكذا بدأت مرحلة أخرى من مراحل حياته ...

كفاح فى سبيل العلم والوطن

(١٩٠٨ - ١٩١٢)

ترك لطفى جمعة أهله وبيته وكتبه وهى أعز الأشياء عنده وثيابه وكل ما اقتناه وأحبه فى ثمانى سنوات من أثاث ومتاع وذكريات وأشياء ألف رؤيتها ولمسها فى بيته بالحلمية الجديدة وأبحر فى صباح يوم ١١ ابريل سنة ١٩٠٨ على ظهر الباخرة البرنس هنريش فى طريقه الى فرنسا ، ويذكر أنه تقابل على ظهر تلك السفينة بامرأة جميلة أرمنية اعتقدت أنه تركى فأخبرها بأنه مصرى فدعته الى صالون الباخرة وأخذا يتجاذبان الحديث ثم أخذت تعزف على البيانو وتغنى بالأرمنية والتركية بصوت جميل وترنو اليه بعينين دعجاوين وتختلس نظرات ذات معنى وقد فهم كل مقاصدها ولكنه - كما يقول - كان فى شغل شاغل يكاد لا يعى معانى الكلام العادى فما بال غزل هذه الصبية الحسناء ؟ ورأى تمام العقل وكمال الحكمة أن يفر من النساء لشدة امتلائه بأمله ومقصده ولم تيأس هذه الأرمنية الحسناء الا عندما وصلت الباخرة ثغر مارسيليا فصافحته وأعطته بطاقة باسمها وعنوانها فى باريس !! وافترقا !!

وجد لطفى جمعة نفسه وحيدا فى ثغر مارسليا ومعه حقائبه ، ولم يكن يحمل حينذاك سوى خمسة جنيهات انجليزية فى كيس حزام تمنطق به ، فركب مركبة الى محطة السكة الحديد ليلحق بالقطار

السريع الى مدينة ليون وكان المطر ينهمر والمنظر كئيبا مقبضا ٠٠٠ ووقف القطار فى محطات الوسط وقفات طويلة حتى بلغ محطة ليون عند منتصف الليل ووقعت عيناه على مركبة ضخمة باسم « فندق الغرباء » فاستقلها ، ولما بلغ الفندق استقبلته ربة النزل ورحبت به ولكنه لم يفهم كلمة مما قالت وقادته الى حجرة بالدور الثالث مطلة على فناء خرب ٠ ولكنه لم ينم ليلته تلك وبادر فى الصباح الباكر الى كلية الحقوق ، ولم يكن يعلم أن الجامعة مغلقة بمناسبة عطلة عيد الفصح فسأل عن الأستاذ ادوارد لامبير الذى كان أستاذا بمدرسة الحقوق الخديوية فعلم أنه مسافر فى الريف فعاد أدراجه يائسا وسار يضرب فى الطرقات على غير هدى حتى قادته قدماه الى حانوت مساح أحذية وعليه اعلان عن « غرف مفروشة للايجار » ــ فدلف الى الحانوت وسأل صاحبه عن هذا الاعلان فأفاض الرجل فى الكلام ثم وضع فى يده ورقة بالعنوان ٠٠٠

فتوجه اليه فاذا به فى الدور السابع باحدى العمارات بشارع فيكتور هيجو واستقبلته امرأة سمينة منتفخة شقراء بخراء وأدخلته الى غرفة فسيحة ، فاستأجرها فورا ودفع لها أجرة شهر مقدما ونقل أمتعته من فندق الغرباء الى تلك الغرفة !! ثم قصد الى مكتبة فى ساحة بلكور واشترى كتابا فى القانون الرومانى وآخر فى الاقتصاد السياسى وورقا وكراسات وأقلاما وعاد الى الغرفة وأخرج قاموسا وبدأ يقرأ على ضوء مصباح من الغاز !

وفى تلك الفترة فتحت الكلية أبوابها والتقى بالأستاذ أدوارد لامبير وبدأ يحضر المحاضرات مع الطلبة الفرنسيين ولم يكن فى الكلية طالب مصرى سواه ، لأنه هو الذى بدأ بعد ذلك بالدعاية الى ليون فى مصر فأقبل الطلاب بعد ذلك ولم يأت شهر نوفمبر من سنة ١٩٠٨ حتى كان فى ليون أكثر من خمسين طالبا مصريا ثم تزايدوا حتى بلغوا فى سنتين نحوا من ثلاثمائة طالب فى جميع

كليات الجامعة ومدرسة التجارة العليا وبقية المعاهد وتأسس « المعهد الشرقى » خصيصا للعلوم العربية والشريعة الاسلامية واعتز الأستاذ لامبير بطلابه كما اعتزوا به !!

وأخذ لطفى جمعة يختلف الى الكلية صباح كل يوم وكان قد بدأ دروسه فى آخر السنة الدراسية ولا يعرف من اللغة الفرنسيه الا كلمات قليلة فعكف على قراءة الصحف صباحا ومساء وحضر تمثيل المسرحيات وقصد الاجتماعات العامة وأخذ يتلقف الكلمات، ويغشى المجالس ويتكلم صوابا حينا وخطأ أحيانا حتى شق طريقه .

ولما تمكن من امتلاك زمام اللغة اتجه شطر المكتبات العامة وحدد موضوع بحثه ودراسته وهو سبب سقوط الشرق وانحلال دوله وتدهور شعوبه وسبب سيادة الغرب ونهوض أممه وغلبة حكوماته على بقية العالم ، وعندما قرأ مؤلفات أنصار الظلم وطواغيت الاستعمار أمثال ليروا بوليو الذى ألف كتابا ضخما يمجد فيه الاستعمار الأوربى فى الشرق ويستنبط له قواعد وقوانين كان — كما يقول — يرتجف من الغيظ وهو يقرأ هذا الكتاب ويتخيل أن أوربا قد نسجت حول الشرق فخا من الفولاذ خصوصا بعد أن صار الاستعمار علما بقواعد وأركان وفنا بأصول وفروع ...

وفى تلك الأثناء مرض لطفى جمعة مرضا خطيرا نتيجة الوحدة والاغتراب والتعفف والكتمان والحرمان ، وفقد شهيته للطعام والنوم وشخص أحد طلاب الطب المصريين مرضه بأنه مرض القلب فى آخر أطواره !! وأشار عليه بالعودة الى مصر أو دخول المستشفى ليقضى فيه أيامه الأخيرة ، ولكن أحدهم نصحه بالذهاب الى الدكتور مويسيه فلما ذهب اليه قال له بعد أن فحصه فحصا دقيقا كاملا « ليس بأحشائك الباطنية أى مرض عضوى ولكن قل لى : هل لك صديقة صغيرة ؟ » فاستفسر منه عن مقصده حتى فهم أنه يقصد الى عشيقة من

العاملات أو الطالبات يتنزه معها ويخلو بها ويغازلها ويقضى منهـا وطرا فلما أجابه نفيا هز الرجل رأسه وقال :

ـ ان أى مرض جسمي يصيبك أنا كفيل بعلاجه ، أما المرض الذى يصيبك من الكبت والحرمان فلا قبل لى بعلاجه فان امتنعت عن سماع نصيحتى فخير لك أن ترحل الى بلادك فان الكبت والرطوبة هنا وقيظ الصيف فى ليون تصطلح عليك فتؤذيك ويعقبهـا مرض خطير .

ثم وصف له طعاما خاصا ومياها معدنية ، فاتبع نصيحة الطبيب فيما يتعلق بالطعـــام والنوم ولزم عيادته طوال اقامته فى أوروبا ، أما نصيحته عن الحرمان فقد عقد العزم على مخالفتها معتمدا فى ذلك كما يقول على الله . وأما العودة الى الوطن فقد صمم على أن يموت بعيدا عن بلده وألا يعود الا اذا تم دراسته وجاهد ضـــد أعداء الوطن فى كل مكان ...

لقد كان لطفى جمعة ـ طوال اقامته فى فرنسا بعيدا عن النساء بعده عن اللحم والنبيذ والطباق والقهوة والشاى ، يقول فى احدى خطراته التى سجلها سنة ١٩٠٨ « لم اذق لذة الشباب لأننى كنت أحمل فى عهده هموم المشيب » !!

وقد استطاع ـ كما يقول أن يتخلص من حب النساء وهو فى عنفوان شبابه لانه أدرك مبكرا أن الحب الجنسى لون من تعذيب الرجل ومحاربة مواهبه وتثبيط همته وخنق طموحه الى المجد والقضاء على فنه ان كان شاعراً أو كاتباً أو مفكراً .

يقول انه لم يحب باحترام امرأة كما أحب السيدة خديجة رضى الله عنها وجدتين له وامرأة هندية هى مدام كاما التى قضت

حياتها وأنفقت مالها فى الذود عن وطنها ومحاربة أعدائه ورضيت بالاغتراب والشــقاء فى سبيل الدفاع عن مثلها الأعلى وقد عرفها فى أوربا سنة ١٩٠٩ واستمرت علاقتهما حتى سنة ١٩١٢ .

أما مصادر الرزق فقد فتح الله أبوابها عليه من مراسلة جريدة اللواء وبعض مبالغ ضئيلة كان مجموعها فى الشــهر لا يزيد على اثنتى عشر جنيها . ولما نشر فى الصحف المصرية حينذاك أن نفقات الطالب لاتزيد فىالشهر علىهذا القدر ـ حقد عليه الشبانالمقبلون على ليون لأنه فتح أعين أولياء أمورهم ، وان كان يعلم أنه ظلمهم بنشر هذه الفكرة ولكنه قصد بذلك الى تيسير الأمر على الآباء ليبادروا الى ارسال أولادهم ولا يحجموا عن ذلك لأن معظمهم كان يخشى أن يضطهد أولادهم بعد عودتهم الى مصر ، لأن ليون كان منظوراً اليها بعين السخط وتعتبر الجالية المصرية فيها طلاباً ثائرين وكارهين للاحتلال وللحكومة الخاضعة له . وقد زاد الموقف حرجا ذلكالمؤتمر الوطنى الذى انعقد فى جنيف سنة ١٩٠٩ وشارك لطفى جمعة فى أعماله فضلا عن المقالات التى كان ينشرها فى جريدة اللواء ثم فى جريدة العلم بتوقيع قارىء ناقد كانت هذه المقالات ـ كمـا يقول ـ بغيضة الى الرجعيين المصريين .

ونود بهذه المناسبة أن نوضح أمرا ذلك أن بعضهم زعم أن الحزب الوطنى كان يتولى الانفاق على لطفى جمعة خلال اقامته فى فرنسا ، ولكن هذه المزاعم لا أساس لها لأن لطفى جمعة سجل مذكراته اليومية خلال سنة ١٩٠٩ يوما بيوم كما عاشها وحدثنا فى هــذه المذكرات عن أزمات مالية طاحنة كانت تمر به فيقول « لا يغيظنى ويقهرنى الا فقرى وخوفى من عدم اتمام الدراسة لقلة المال » وحدث أن جاءه خطاب من أهله فى طنطا لمح فيه عزمهم على استدعائه الى مصر فلما خطر بباله هذا الخاطر وظن امكان حرمانه من اتمام تعليمه صمم

على الهجرة الى تونس ليتناول عملا يمكنه معه اقتصاد نفقات تعليمه. وحدث أن شعر ذات يوم من الأستاذ لامبير أنه أشار فى استحياء الى استعداده لمعونته حتى يصل المال الى يده من مصر فشكره وعاد الى غرفته يبكى ولازم الفراش وتجنب لقاء أستاذه فاتهمه بعض أصدقائه المصريين بغموض الحياة، وانه لايقابلهم لأنه يخلو الى معشوقة غريبة الأطوار مثله ، وجمح بهم الخيال الى حد وصفها كأنهم رأوها !! فلما ترامت اليه غيبتهم عذرهم وضحك ـ كما يقول ـ ذلك الضحك الذى قيل أنه كالبكاء !! .

وقد حاول لطفى جمعة أن تتولى الجامعة المصرية الانفاق عليه فقد كتب فى يوميات الاثنين ١٤ يونيو سنة ١٩٠٩ « هذا الانسان العجيب أحمد زكى باشا سكرتير الجامعة كتبت اليه مستنجدا لألتحق بارساليتها التى يبعثون فيها جماعة من الجهال اكراما لأقاربهم وأصحابهم فلم يجبنى وهم يدعون أنهم يساعدون العلم والمتعلمين ولكن أظن أن أفكارى السياسية هى التى تجعلنى شوكة فى حلقهم فالحمد لله على ذلك » .

❊ ❊ ❊

كان من أوائل الكتب التى اشتراها لطفى جمعة « اعترافات جان جاك روسو » وقد أقبل عليه بشغف ليستطلع أسرار هذا المعترف العجيب لأنه كما يقول كان يرى فى شخص هذا الحكيم المسكين شبها شديدا به ، فقد كان طريدا شريدا وقد علم نفسه بنفسه وألقى بذاته فى خضم الحياة وهو لا يحسن السباحة فاجتهد حتى أتقنها ، وكان على الفطرة غير متصنع ولا متكلف وكان يحب الحق والصراحة وقد هاجر من وطنه الى أوطان أخرى فى سن تقرب من سنه ، وكان لا يحفل بالمال ان قل عنده أو كثر وخلة جميلة زادته تعلقا بهذا الفيلسوف وهو حبه الحرية ودفاعه عن الضعفاء

ونهوضه لمقاومة أعداء المساواة الانسانية وكانت رسالته الأولى التى قدمها لأكاديمية ليون « أســـباب التفاوت بين البشر » وقد نالت الجائزة ...

يقول لطفى جمعة « ان العرب لم يكتبوا عن روسو شيئا فيه غناء لمثلى ، لأنه ليس مؤلفا يغريهم لأنه مشهور بأنه من دعاة الثورة الفرنســـية وكان المصريون فى أول القرن العشرين يخشـــون ذكر الثورة لأن الانجليز أرهبوهم وأرعبوهم وقد أعان الانجليز على الرعب والارهاب وغرس بذورها فى نفوس المصريين حب الوزراء والكبراء وطبقـة الباشوات للمناصب والمـال وطمعهم فى المناصب واعتقادهم ـ وكانوا على حـق ـ أن الانجليز وحدهم هم الحاكمون المطاعون ، وكانت جرائد الانجليز تسميهم أولى الحل والعقد وولاة الأمور حتى بعد حادثة دنشواى التى لم ينهض لمقاومتها أحد غير مصطفى كامل ، وكان سعد زغلول نفسه فى وقتها وزيرا للحقانية وكان أخوه وكيلا له فى تلك الوزارة بل كان أحد القضاة الذين كتبوا الحكم ومهروه بأسمائهم ، ويزيد فتحي زغلول على شقيقه الذى صار زعيم مصر بعد حادث دنشواى بعشر سنوات أنه كان مثقفا ثقافة فرنســـــية وعاكفا على نقل بعض كتبهم الى اللغة العربية ولا سيما ما كان ضد حرية الأمم مثل جوستاف ليبـون ، وكانت غاية فتحى زغلول أن يقاوم النزعة الدستورية وأن يحارب مصطفى كامل ومبادىء الحزب الوطنى لأن الانجليز كانوا أقوياء والمصريين كانوا جهـلاء وضعفاء ولا يؤمنون بالوطنية ولا سيما الطبقة المتعلمة المنتفعة بالوظائف ، وأرادت هذه الطبقة أن تجعل من نفسها أرستقراطية لتتحكم فى رقاب الفقراء من الفلاحين وغيرهم ـ ولم يكن لديهم طريقـة غير الزلفى للانجليز واتخاذهم سادة ليتمكن أفراد هذه الطبقة من اتخاذ الفلاحين عبيدا » .

قضى لطفى جمعة ما بقى من السنة الدراسية من وقت وصوله

فى ابريل الى أوائل يوليو فى تنقل بين الدور ، حتى استقر به المقام بشارع موليير وأخذ يواصل الدرس ولا يطمع فى التقدم الى الامتحان فى الدور الأول . وكان قد وصـــل الى ليون عشرون طالبا بسبب دعايته فى الصـــحف المصرية اقتــداء به ، فاجتهد فى جمع كلمتهم بتأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين ولعلمه بحب الرئاســه والتناطح عليها كما يقول فقد توارى واكتفى بايحاء الأفكار حتى اذا انعقدت الجمعية العمومية قال لهم : « أقترح عليكم أن تكون جمعيتنا بدون رئاسة دائمة بل ينتخب رئيس فى كل جلسة » فقال أحدهم: ولم هذه البدعة ولم لا ننتخب رئيسا دائما مثلك لأنك صـــاحب الفكرة قال : لسبب بسيط وهو رغبتى فى أن يتدرب كل واحد منا على الرئاسة ولأجل أن يجود كل عقل بخير ما فيه من الأفكار ففرحوا بهذا الرأى .... »

وقد انطوت هذه الدفعة الأولى التى وردت أواسط سنة ١٩٠٨ وأواخرها وأوائل سنة ١٩٠٩ « على أن أنبغ الطلاب فحلقوا فى أجواء القانون والأدب والتاريخ والاقتصاد والسياســـة وســـائر العلوم باشتياق واقبـــال حتى حازوا أعلى الدرجات ، وظهر منهم نوابغ وفحول كانوا دعائم النهضـــة الحديثة التى بدأت فى أوائل القرن العشرين فى مصر وهم الذين أجابوا الدعـــوة الى عقد المؤتمرات الوطنيـــة فى جنيف وبروكسل وباريس سنة ١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١١ . وكانوا جيش مصر المجاهد ، وهم الذين نهضوا بأعباء ثورة ١٩١٩ بعد أن غرسوا بذورها وتعهدوها بالسقيا وهم الذين نفخوا فى رماد الأمة فأشعلوا النار المقدسة فى قلوبها » .

لقد كان المثل الأعلى للطفى جمعة ولأمثاله فى تلك الفترة – الاستعداد بالمعرفة وطلب العلم للكفاح السياسى الوطنى ومحاربة السياسة الانجليزية بالوسائل المشروعة وقتها وهى الخطابة والكتابة والقيام بالدعوة الى المؤتمرات الوطنيـــة فى جنيف وبروكســـل

وباريس ، وأصبحت الوطنية هي المقصد الأساسي والسياسة القومية هي الغاية القصوى وأضاف اليها مطالبة الخديوى عباس بالدستور !!

وحدث في تلك الاثناء ان نجح شاب جزائرى اسمه ابن على فخار من تلمسان فى امتحان الدكتوراه فتأثر لطفى جمعة بنجاحه وكانت بينهما مودة فأراد أن يؤدى له تحية ويشجع المصريين فكتب مقالا مسهبا فى وصف الاحتفال بمنحه اجازة الدكتوراه نشرته جريدة اللواء فى يونية سنة ١٩٠٨ وجاء فى هذا المقال « ان أهل الجزائر وسائر شمال افريقيا عرب مثلنا ومسلمون يتطلعون الى الحرية والاستقلال فمتى يأتى اليوم الذى يضم فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد خلع نير الاستعمار والاستبداد ... اننا نرى فى الأفق وميض برق وأتخيل السيد الأستاذ ابن على فخار من حملة الشعلة التى تضىء المستقبل » .

وفى يوم وصول البريد بهذا العدد من الجريدة الى فرنسا بعث الأستاذ لامبير فى طلب مقابلة لطفى جمعة ـ فلما قابله وجد فى يده عدد اللواء ووجهه أصفر يقطر غيظا وما أن رآه حتى جبهه بقوله « يا عزيزى لطفى ! انك خربت بيت ابن على فخار !! تحت شعار الوحدة فى الدين والعواطف وسوف يطرده المجلس البلدى فى ليون من وظيفته التى هى مصدر عيشه وأسأت اليه من حيث أردت الاحسان » فقال له لطفى جمعة « وكيف كان ذلك يا أستاذى الأعز ؟ قال : خذ !! ألست كاتب هذا المقال ؟ فأجاب : نعم قال : انك تدعو الى الثورة فى الجزائر وفى شمال أفريقيا ... أعمل معروف فينا واترك لنا جزائرنا وتونسنا ومراكشنا واصنع ما بدا لك فى الانجليز دفاعا عن مصر » فقال له لطفى جمعة : « اننى أمجد كلية الحقوق وأستجلب الطلاب المصريين وألوح لهم بالمجد وأعمل على جمع كلمتهم حولك وأنت حامل لوائنا ووالدنا والداعى لخيرنا ومؤسس نهضتنا وصديق مصطفى كامل وشريك جهاده فى آخر سنى حياته .

ولكن لامبير قال له : ولو !! اصنع جميلا واترك لنا شمال افريقيتنا واصنع بالانجليز لأجل وطنك ما بدا لك .. لقد أسأت الى شخصيا . فقال له لطفى جمعة : لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر وشمال أفريقيا ملك لكم بل هى ملك أصحابها ... ثم انك علمتنا التضحية والبذل فى سبيل الكرامة فاستقلت من منصب نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل كرامتك ولم تخضع للانجليزى دنلوب فكيف تعيب علينا الدعوة الى الحرية .... سلام عليك » .

وانصرف لطفى جمعة مغاضبا وصمم على طلب تحويل اسمه الى كلية حقوق باريس أو بوردو أو ديجون . فبعث الأستاذ لامبير فى أثره الأستاذ عزيز ميرهم وقال له كيف تترك ليون ان لامبير يبنى عليك آمالا كبارا ويتنبأ لك بمستقبل عظيم . فقال له لطفى جمعة : لو كان هذا حقا ما صدمنى فى أعز شىء لدى . وعاد الى منزله غضبان آسفا وبعد قليل جاءه الأستاذ ادوار لامبير لزيارته فى غرفته وسأله : ما هذا الذى سمعته من ميرهم ؟ انك اعتزمت على الرحيل ؟ ومن ذا الذى يتركك تفعل ما تشاء قبل أن تدخل الامتحان الأول : ألا ترى لى حقا عليك أرشدك الى ما فيه الخير حتى تتم دراستك ؟ هل تكبدت كل هذه الأهوال ليشمت بك دنلوب وهيل ناظر مدرسة الحقوق وقمحه بك وكيلها وكل أعداء مصطفى كامل ؟ أمازح أنت ؟ ومن يقابل محمد بك فريد عند وصوله بعد أسبوع ؟ ومن يلقى دروس الشريعة الاسلامية بالفرنسية على اخوانك فى العام المقبل ؟ ... أتريد أن تهجر المعسكر بعد التجنيد وتفر من خدمة وطنك .

فضحك لطفى جمعة وقال له : ان ميرهم لم يفهم قصدى !!

وفى نهاية الحديث قام مع أستاذه وصحبه الى باب داره زيادة فى تكريمه .

وقد سجل لطفى جمعة هذه الحادثة بعد حوالى ربع قرن فى كتابه « حياة الشرق » ص ٣٦٧ .

أوجستا دامانسكى

كان لطفى جمعة يقضى اجازة صيف سنة ١٩٠٨ بلوزان عندما تعرف بالأديبة الروسية السيد أوجستا فيليبوفنا دامانسكى ، وكان بنزل حينذاك ببنسيون أطلق عليه صاحبه الموسيو بروشيه اسم « فيلابيانكا » !! • كانت السيدة أوجستا أو « جوتى » كما كانت تحب أن تنادى ، سيدة فى نهاية العقد الثالث من عمرها كما وصفها لطفى جمعة بيضاء البشرة رقيقة الجلد جميلة العينين والصوت واليدين سوداء الشعر جدا وأجمل ما فى عينيها لونهما ، فقد كانتا كالمخمل الأزرق الضارب الى الخضرة ، وكان حاجباها على طبيعتهما كما لو رسمهما نقاش ماهر بقلم فاحم وجبينها عريضا عاليا ••• وكانت يداها ناطقتين كأن بنانها ألسنة تعينها على البيان • ولها جلسة خاصة وشمم وشعور بالذات ورغبة فى الفتنة وكانت غيورا شديدة الغيرة ساخرة لا تفوتها النكتة اللاذعة، محبة للمال لا لتدخره ولكن لتوفر أسباب راحتها . . كان الاحتشام والأناقة والشعور بالجمال من مميزاتها وكانت تجيد اللغات الروسية والبولونية والفرنسية والألمانية والايطالية ، ولما زارت مصر حاولت أن تتعلم العربية •

كانت منفصلة عن زوجها وتكاد تكون مطلقة ولكنها متمسكة بعفتها وقد نزحت من بلدها « مويلف » لتبعد عن زوجها .

كان لطفى جمعة يتوهم انها جاسوسة روسية أو وسيطة سياسية الا انه كما يقول أحبها لأنها من شعب عظيم يفنى فى سبيل الحرية ويهلك فى محاربة الظلم وله نوابغ أحبهم وأقدرهم وأعرفهم فى ثمارهم أمثال تولستوى وتورجنيف ...

كانت أوجستا أوجونى أو « المليحة الملحة » كما يعبر عنها لطفى جمعة فى بعض كتاباته تقيم مع والدتها وطفلها الصغير بوريس « Boris » فى فندق موران بلوزان ... وكانت تعينها على الكتابة وتقوم على شئون الطفل فتاة تدعى زينابيد فيدريانو فسكى وهى فلاحة روسية متوسطة الطول ذات وجه برىء وعينين لامعتين وشعر ذهبى .

وذات ليلة من ليالى أغسطس سنة ١٩٠٨ دعته أوجستا الى زيارتها فى الفندق الذى تنزل به وذلك بعد محاولات ومطاردات عديدة لأنه كان يعتقد أنها « امرأة الأقدار » تتبعه وتحاول أن تجتمع به بالقوة وبالحيلة ولكن هذا كان وهما من اوهام الشباب والأدب والفن كما يقول .

ولبى لطفى جمعة الدعوة . وجلس اليها فى شرفة فسيحة بالفندق تطل على البحيرة والجبال وكانت الليلة مقمرة والبدر يتوسط كبد السماء .

وتحدثت اليه طويلا فى الأدب والثورة والتاريخ وتولستوى ونهضة روسيا فانبهر بها وأعجب بها .. فلم يكن ـ كما يقول ـ فى علاقته معها مشغوفا بالجسد بل كان مشغوفا بالروح والعقل .. وامتدت جلستهما بالشرفة حتى انتصف الليل أو كاد .

ويذكر لطفي جمعة أنه سألها في تلك الليلة ـ « لم يشعر الانسان أثناء التقائه بانسان آخر لم يسبق بينهما معرفة أنه شديد الانجذاب اليه كأنهما اجتمعا في حياة سابقة كما يرى بقعة من الأرض فيتذكر على الرغم منه انه سبق ان رآها ووطئها ويكون في الحالتين كأنه في حلم عميق ، حلم يقظة وصحو لا حلم نوم ونعاس؟ أتجيبين على هذا السؤال ؟ وهل شعرت يوما بهذا الشعور أو مثله » (١) .

فامتقعت وترنحت ثم قالت : متى خطر ببالك هذا الخاطر والى ما تقصد بقولك ؟

قال : لم أقل انه خطر ببالي أو وقع لي ولم أقصد الي شيء معين .

قالت : لقد شعرت هذا الشعور ومر بقلبي .

وكانت منفعلة بادية التأثر ...

ثم أردفت قائلة : لعلك قد تعبت من طول السهر ؟ ...

وكانت هذه العبارة سببا للفرقة بينهما اذ عزم على مغادرة لوزان وارتحل عن فيلا بيانكا في صباح اليوم التالي مبكرا فرارا منها وقصد الى باريس حيث نزل بفندق نوتردام دى لسبرانس

---

(١) سجل لطفي جمعة هذا الشعور في مقال له بجريدة الدستور في مايو سنة ١٩٤٤ بعنوان « رجوع النفس الانسانية الى الماضي واشرافها على المستقبل » ذكر فيه ذلك الحديث الذي دار بينه وبين اوجستا في تلك الليلة من ليالي اغسطس سنة ١٩٠٨ كما سجله أيضا في روايته « الفتى العادل » التي نشرت في حلقات بجريدة البلاغ اليومي سنة ١٩٣٠ وفي روايته « عائدة » التي نشرت في حلقات مسلسلة بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٢ .

« سيدتنا ذات الأمل » بشارع فوجير على مقربة من مونبارناس وميدان المرصد ومدرسة الفنون الجميلة وكنيسة سان جرمان !!

وهناك أخذ يطوف بشوارع باريس ويتخلل طرقاتها ، فكان يشعر بأن فى كل خطوة وكل زاوية قد جرى جانب من التاريخ وكذلك فى كل زاوية وخطوة قد جرت دماء صرعى المبادىء وصرعى الآمال وصرعى الهوى !! وجلس الى تمثال جى دى موبسان فى بارك مونصو وقد أحبه حبا جما لأنه أسعده أياما وليالى لا تحصى وعلمه كثيرا من دروس الحياة وفتح عينيه على طبيعة الرجل والمرأة ورفع له النقاب عن طبيعة المجتمع وحاز اعجابه لرشاقة أسلوبه ورقة تفكيره وكان يعتبره أعظم قصاص فى العالم وأب القصة القصيرة .

وغشى لطفى جمعة فى باريس حدائق سان كلوولوكسمبرج وفونتنبلو وأخذ يقرأ ويكتب ويشهد التمثيل فى أرقى الملاعب ويغشى مجالس الأدباء والعلماء حتى نسى المليحة الملحة وتوارت فى خزائن الذاكرة .

ولكن الرواية لم تتم فصولا !!

انتهز لطفى جمعة فرصة أعياد الميلاد فى شتاء سنة ١٩٠٨ وعاد الى القاهرة فى أوائل ديسمبر وظل فيها حوالى شهرين جدد فيها صلاته برجال الفكر والأدب والسياسة .

واجتمع برجال الحزب الوطنى وأعضاء نادى المدارس العليا وحضر هذا الاجتماع محمد فريد رئيس الحزب وقاد مظاهرة ضخمة فى شوارع القاهرة وتجمهر الناس وأخذوا يهتفون حتى بلغت المظاهرة ميدان عابدين ثم تجمع المتظاهرون بحديقة الأزبكية

فقام يخطب فيهم ويقول ان عيد الأمة أهم بكثير من أعياد الملوك والأمراء .

كما زار الجامعة المصرية وأهداها مجموعة من الكتب باللغة العربية والفرنسية والانجليزية كما أهدى مكتبة مدرسة الحقوق الخديوية مجموعة أخرى من الكتب .

وفي السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٠٩ استعد للعودة الى فرنسا لمواصلة الدراسة فزار ادارة الحزب الوطنى وادارة اللواء وودع أخوانه ولقيه حافظ ابراهيم فقال له : « اذهب ولا تعد الا بعد اكمال دروسك » فأثرت هذه النصيحة فى نفسه .

وفى ٢٧ يناير سجل لطفى جمعة أحداث ذلك اليوم بقوله : « نهضت هذا الصباح مبكرا وودعت خالتى وجدتى وقلبى يكاد يمزقه الحزن لفراقهما ولكن الواجب والخدمة الحقيقية للعلم والوطن أعظم من حب الأهل .. سافرت الى الاسكندرية وكانت سفرة القطار محزنة لما يتراكم على من الهموم .. أبحرت الباخرة شلزويج فى الساعة الثانية ، هذه هى المرة الرابعة التى أركب فيها هذه الباخرة ذاتها .. كان الجو فظيعا جدا فلزمت غرفتى ونمت بحزن وألم .. » .

وفى أول فبراير سنة ١٩٠٩ لاحت شواطىء فرنسا البنفسجية ورست الباخرة بميناء مارسيليا فاستقل القطار الى ليون حيث أسرع كعادته الى فندق الغرباء ، وفى تلك الفترة فكر القيام بسياحة فى بلاد الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وبلاد العالم الاسلامى كله ليكتب عنه كتابا ويخطب فى أبنائه ثم شرح لاخوانه هذا المشروع لدعوة أمم شمال افريقيا للاجتماع لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة روابط أدبية ومادية .

وفى صباح ٤ فبراير سنة ١٩٠٩ قصد الى كلية الحقوق حيث قابل الأستاذ لامبير وتحدث معه ومما قاله الأستاذ له أن الحركة الوطنية فى مصر ينبغى أن تكون فى أيدى الشبيبة وأن فريد بك من الأعيان بعكس مصطفى كامل الذى أدرك أن الحركات الكبرى لا تقوم الا بالطبقات الشعبية الوافرة العدد ويحدثنا لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٠٩ انه حضر دروسا فى اللغة الهيروغليفية
لا تقوم الا بالطبقات الشعبية الوافرة العدد . ويحدثنا لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٠٩ انه حضر دروسا فى اللغة الهيروغليفية
على الأستاذ لوران ، واقترح على اخوانه الاقبا لعلى تعلم تلك الأستاذ أن نسخة هيروغليفية من حكم «بتاح حوتب» موجودة بدار الآثار بليون نعقد لطفى جمعة العزم على نقلها الى العربية ، وقد تم له ما أراد فوضع كتاب « الحكمة المشرقية » وقد اشتمل هذا الكتاب على حكم بتاح حوتب وجولستان أو روضة الورد للشاعر الفارسى سعدى الشيرازى وكتاب التعليم الراقى للمرأة فى اليابان لاونادايماكو وقد نشره بمجلة البيان العربى سنة ١٩١٢ .

وسجل لطفى جمعة فى يوم ١٥ مارس أنه اطلع على كتاب لوشرى عن مركز مصر الدولى فأعجب به وعزم على التفرغ لدراسة القانون الدولى لتطبيقه على مركز مصر على أساس أن يكون هذا موضوع بحثه عن المسألة المصرية عند تقديم رسالة الدكتوراه .

كما شرع خلال تلك الفترة فى تكملة تعريب كتاب الأمير لميكيافلى واعداده . كما بدأ فى ترتيب « حكم نابليون » وهى الاقوال المأثورة التى قالها نابليون فى السياسة والتاريخ والحرب والمرأة وقد ظهر هذان الكتابان فى سنة ١٩١٢ .

ويذكر لطفى جمعة فى أحداث يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩

أنه تسلم شهادة بانتخابه عضوا فى مجمع الخالدين بنيويورك وقد وصله بعد ذلك فى يونيو خطاب من أمريكا داخله شهادة باسمه تدل على ان مجمع الخالدين قد انتخبه عضوا لمدة تسع وتسعين سنة بعد ان ثبت لهم انه يستحق الخلود . ويعلق لطفى جمعة على ذلك بقوله « انه دهش جدا من هذه الشهادة لأنه لم يفعل شيئا يدعو اليها . وضحك من المقارنة بين استحقاقه الخلود فى نظر جماعة من الأمريكان وعدم القدرة على مواجهة مطالب الحياة المادية فى نظر الواقع !! » .

ويسجل فى يوم ٣١ مارس انه قد وصلته أنبـاء عن اعادة قانون المطبوعات الذى يسعى الانجليز والخديوى فى تنفيذه ويعلق على ذلك بقوله « انهم حسنا يفعلون لأنهم يزيدون النار اشتعالا ويعلمون كيف نستر أفكارنا وكيف نعمل كثيرا ونقول قليلا ان مصادرة الحرية فى تركيا لم تمنع الأحرار من الثورة واعلان الدستور » وفى اليوم التالى دعا أبنـاء الوطن المقيمين فى ليون والضواحى واقترح عليهم نشر احتجـاج فى صحف ليون والقـاء خطاب عن حرية الصحافة — وفعلا زار ادارة جريدتين وترك فى كل منهما مقالة احتجاج كما خطب فى اليوم التالى فى مقر جمعية الطلاب المصريين بليون فى جمع حاشد من الفرنسيين حضره أربعة من كبار محررى الصحف وبعض مندوبى جمعيات الطلاب وقد نشرت جرائد ليون حينذاك ما دار فى هذا الاجتماع .

وفى الخامس من ابريل قصد لطفى جمعة الى جنيف حيث نزل بأحد بنسيونات شامبل وهناك فكر فى وضـع كتاب باللغات الثلاث اسـمه « مصر تتهم انجلترا » يشرح فيه المسـألة المصرية — وبدأ فعلا يجمع مواد هذا الكتاب .

وسجل فى يوم ١١ ابريل انه قرأ كتاب « فروست » فى

الجمعيات السرية فى أوربا ويقول « انه كتاب ممتع فى غاية اللذة ويرينا بوضوح وجلاء لا ريب فيهما أن كل الأمم نالت حريتها بأمرين الأول حركة سرية تدبر من زعماء القوم المخاصين ، والأمر الثانى بمقاومة حربية أى ثورة فان تمت الثورة بلا دماء فنعما بها » .

ولم ينقطع لطفى جمعة خلال تلك الأيام عن مواصلة دراسته القانونية والاستعداد للامتحان والاختلاف الى مدرســـة جنيف الجامعية والاستماع الى دروس الاقتصاد التى كان يلقيها الأستاذ ميلو ٠٠ ويسجل فى يوميات ٢١ ابريل تلك الأمنية « أريد أن أكون محاميا جنائيا » ثم يقول بعــد أن قرأ كتاب « الانســان المجرم » للعلامة « لومبروزو » لا أظننى أكون قاضيا جنائيا لاننى سأطبق فى أغلب الأحيان قانون الرحمة وأضرب بقانون المحــاكم عرض الحائط علموهم قبل أن تعــاقبوهم واذا عاقبتموهم فكونوا بهم مشفقين فمنــذ أن ارتفع معدل القراءة والكتابة فى فرنســا هبط معــدل الجرائم فهل بعد هذا برهان ؟ » .

وفى جنيف كتب لطفى جمعة مقالا فى جريدة « جورنال دى جنيف » عن حالة مصر السياسية وقانون حرية الصحافة كما زار برتونى زعيم حزب العمال بسويسرا وصاحب جريدة اليقظة وكان مما قال الرجل له ان كل الأعمال السياسية الكبرى لا تنجح الا اذا كان وراءها مجموع الشعب، والحركات لا تفوز الا اذا عضدها الشعب أما ما بقى منها فى يد علية القوم فمآله الزوال والفشل !! ثم أهداه مؤلفات البرنس كورتيكين الروسى وعدة رسائل ومجلات اشتراكية ، كما زار بنسيون فيشر الذى كان ينزل فيه الشيخ محمد عبده عند زيارته جنيف هو وأصدقاؤه .

وفى ٧ مايو سنة ١٩٠٩ سجل لطفى جمعة نبوءة تحققت

بعد نيف وستين عاما يقول « طالعت كتاب الاستعمار عند الأمم الحديثة ... انه مكتوب للماضي لا للمســـتقبل ... ان نظريات الاستعمار فى الوقت الحاضر قد تغيرت جدا ثم اننى أقول بكل صراحة وسرور أن الاستعمار قد زال من العـالم أو كاد يزول وانه لا يأتى آخر القرن العشرين حتى تكون كل أمة متمتعة بحريتها وحقوقها مهما كان مقدارها بين الأمم » وقد كتب بعـد ذلك بحوالى أربعين عاما فى جريدة الدستور مقالا بعنوان « زوال الامبراطورية البريطانية حقيقـة تاريخية طبيعيـة كانقراض جـرم من دورة الفلك » .

ولم ينقطع لطفى جمعة عن مراسلة رجال السياسة كما لم تنقطع مراسلاتهم اليه أمثال فردريك ريان الايرلندى وشياد مجى كريشنا فارما الزعيم الهندى الذى كان مقيما بباريس ، كمـا لم ينقطع عن التأليف فوضع فصولا من كتاب « تاريخ نهضة الشرق » « أو تحرير أمم الشرق » وأعتقد ان هذا الكتاب كان نواة لكتاب « حيـاة الشرق » الذى ألفه سنة ١٩٣٢ كمـا وضع بعض الليالى من كتابه « ليالى الروح الحائر » .

وفى الخامس من يونيـو عاد الى ليون وبدأ يسـتعد لدخول الامتحان ويحضر لدرس القانون الجنائى على الأستاذ فورير والقانون الدولى على الأستاذ بول بيك والقانون الجنائى على الأستاذ جارو والاقتصاد السياسى على الأستاذ بروييه واقترع لتاريخ امتحانه ، وذلك بسحب ورقة مبين فيها يوم الامتحان منعا للشكوى ، وشرع فى تلخيص المطولات فى دفاتر صغيرة ولم يجد صعوبة الا فى تدبير ثمن هذه الدفاتر !!

وفى غمرة الاستعداد للامتحان سجل يوم ١٠ يوليو سنة

١٩٠٩ أنه يفكر فى وضع رسالة باللغة العربية يوضح فيها للمصريين حقوقهم وذلك بمناسبة مطالعته للقانون الخاص بحقوق الانسان فى فرنسا ثم يقول « ولكننى لما تأملت فى الحقوق المذكورة وجدت أنها مواد أملتها روح برجوازية وليس فيها من مبادىء الاشتراكية وحرية الفكر ما يبرر اذاعتها فى مصر ، حقيقة اننا فى مصر مهضومو الجانب مغلوبون على أمرنا وخصوصا الفلاحين ولكن الدنيا تسير الى الأمام .. وحيث ان مستقبل العالم يسير فى طريق الاشتراكية الكاملة فاننى أعتقد أنه من الأصلح عدم افساد هذه الفكرة المثالية بتقديس المبادىء البرجوازية ونترك الباب مفتوحا للمبادىء الاشتراكية ومركز فرنسا فى سنة ١٧٩٠ غير مركز مصر فى سنة ١٩٠٩ لأننا لا نعرف ما يخبئه القدر لوطننا السعيد الشقى بغاصبيه » .

وأدى لطفى جمعة الامتحان فكانت النتيجة أنه كان من بين من هنأتهم لجنة الامتحان كما يقول وان كان حظه سيئا مع الأستاذ جارو الذى وجد صعوبة فى ارضائه كل الرضا !!

وهنأه الأساتذة كما هنأه الأستاذ لامبير وبعث الى مصر برقية يطمئن فيها جدته وخالته بنتيجة هذا الامتحان !!

ويروى انه فى يوم ٣ اغسطس وصلة خطاب مسجل من أحد وكلاء الأشغال أو المحضرين يطلب فيه منه الحضور لأمر يهمه وحدد له اليوم التالى موعدا ، وقد شغل هذا الخطاب باله كثيرا وأخذ يتخيل انه من رجل قريب له أو صديق فى استراليا أو أمريكا أو نوفا سكونيا مات حديثا وترك له ميراثا ، أو من عمة عجوز محبة للخير أو من محسن يريد ادخال السرور عليه فذهب الى المحضر وهو كثير الأمل وصعد الى مكتبه فى شارع الرئيس كارنو

وقدم له الخطــاب وانتظر أن يقول له سيدى العزيز انى أعزيك فى وفاة عمة جد خال أبيك المتوفاة فى مقاطعة سانتا فورتونا وأهنئك بأنها تركتك منفذا لوصيتها والمتصرف الوحيد .. الخ !!

ولكن المحضر قال له بكل بساطة : « ســيدى أطالبك بمبلغ أربعين فرنكا دينا عليك للمســـيو فيلى الكتبى ! » فهبطت جميع آماله وقال له : « ياسيدى ليس فى مقدورى دفع المبلغ بأكمله » . وأخرج من جيبــه عشرة فرنكات من الخمسين البــاقية معه فقبلها الرجل وأعطاه ايصـــالا بذلك ثم ودعه وانصرف . وتبددت جميع أحلامه فى كنز مونت كريستو كما يقول !!

مؤتمر جنيف الأول سنة ١٩٠٩

سافر لطفى جمعة فى أوائل أغسطس الى ايكس ليبان للاستجمام من عناء العمل ، وبهرته المدينة بمحاسنها وخصوصا بساتينها وفنادقها وبحيرتها التى خلدها بورجيه ، ثم قصد الى هوت سافوا وبدأ فى الاعداد لمؤتمر جنيف الأول ، فشرع فى كتابة خطبته « نهضة الأمم الشرقية » التى كان يزمع القاءها فى هذا المؤتمر الذى كان مقررا عقده فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

لقد كانت المؤتمرات الوطنية التى عقدها الحزب الوطنى وشارك لطفى جمعة فيها بقلمه ولسانه تقليدا جديدا لم تشهده الأحزاب المصرية التى كانت فى ذلك الحين مجرد تجمع للقادة وجريدة تعبر باسم هؤلاء القادة ــ كما كانت تعبيرا عن احساس الحزب بمسئوليته تجاه مصر وقضاياها المختلفة وعلى راسها حق البلاد فى الحرية والاستقلال .

وحدث فى ذلك الوقت أن تحدث لطفى جمعة مع الاستاذ بول بيك أستاذ القانون الدولى فى السياسة فتبين له أنه رجل مستعمر وقد اشترى هو وزوجته قطعة أرض فى الجزائر وانتويا الانسحاب اليها بعد انتهاء مدة خدمته ، فلما كلمهما فى حرية الجزائر ووجوب استقلالها نظر اليه وقال : هذا مستحيل لأننا سنقضى شيخوختنا هناك . فقال له : هل لأجل شيخوختك تذل

أمة بأسرها !! فقال بيك : « اعمل معروفا اترك لنا جزائرنا وتكلم عن مصرك .. » .

ويعلق لطفى جمعة على ذلك بقوله : « وهذه هى عين العبارة التى سمعتها من الأستاذ لامبير لما نشرت فى العام الماضى مقالة فى اللواء عن الجزائر وتونس » .

سافر لطفى جمعة الى جنيف حيث قابل محمد فهمى رئيس « اللجنة الدائمة لشباب مصر فى جنيف » كما قابل المرحوم على الشمسى واجتمع بأعضاء لجنة المؤتمر وقابل هارديال الزعيم الهندى الذى زوده بخطابات تعارف من ضمنها خطاب لمدام كاما بباريس .

وفى ٢٤ أغسطس استقل القطار مع حامد العلايلى الى باريس لزيارة كبرى الصحف الفرنسية ونشر الدعوة فيها عن المؤتمر ثم السفر الى لندن للدعوة اليه .

وفى باريس قام بزيارة جريدة الطان وقابل رئيس تحرير الشئون الخارجية وذكر له مهمته ثم توجه الى جريدة الديبا والجورنال والماتان والاكلير ، وبعد أن أتم مهمته فى باريس ركب البحر الى نيوهافن ومنها الى لندن وعكف على تحرير منشور للأمة الانجليزية ، وقابل روتشستين وأطلعه على المنشور فوافق عليه وكلفه بطبع ألف نسخة منه لارسالها لأكابر النواب والكتاب فى انجلترا ، ثم توجه فى المساء الى البرلمان حيث قابل توم كيتل فضرب له موعدا لمقابلته ، كما قابله بعض المصريين هناك من بينهم توفيق دياب والشيشينى . وفى الموعد المحدد توجه الى مجلس العموم حيث كان كيتل العضو الايرلندى فى استقباله فأحسن الرجل وفادته وعرفه ببعض أعضاء من الايرلنديين أمثال ريموند وديلون وهازلتون كما قدمه الى بعض أعضاء حزب الأحرار ،

فتحـدث معهم وتكلم طويلا عن المؤتمر وأهدافه ووعده كيتـل بالحضور الى جنيف .

ثم توجه لمقابلة بعض محررى الجرائد اللندنية مثل جريدة وستمنستر وجازيت وجريدة جلوب وجريدة ديلى نيوز ومورننج بوست .

وفى ٢٨ أغسطس توجه الى البرلمان الانجليزى حيث قابل كير هاردى زعيم حزب العمال ومؤسسه ودعاه الى المؤتمر واستعمل ــ كما يقول ــ كل ما آتاه الله من نعمة الفصاحة والتأثير ليقنعه باجابة الدعوة ، فاعتذر الرجل لارتباطه بمواعيد سابقة فكلمه بشدة وقال له : « انت كنت تبكى لأجل الشعب الجائع منذ عام واحد والآن شعب مظلوم يستغيث بك ولا تساعده لأنه شعب شرقى اذن اشتراكيتك قومية لا انسانية ، فبهت الرجل وانصرف !! .

ويروى لطفى جمعة عن أحداث يوم ٣٠ أغسطس سنة١٩٠٩ انه توجه الى البرلمان الانجليزى فرأى ماكدونالد سكرتير حزب العمال جالسا يكتب خطابا فجلس أمامه وكتب خطابا اليه يطلب فيه منه انتداب بعض أعضاء الحزب للسفر الى جنيف وكتب العنوان على المظروف فلمحه ماكدونالد وقال : « لا أستطيع أن أمنع نفسى من قراءة اسمى » فقال له لطفى جمعة « لى الشرف أن أتحدث الى السيد رمزى ماكدونالد » فرد قائلا نعم اننى هو وأعطاه الخطاب ولما قرأه قال : أننا سنعقد جمعية مساء اليوم وستكون هذه المسألة فى مقدمة المسائل التى نبحثها ، ونعدك خيرا .

وروى لطفى جمعة ما حدث لهازلتون فهنأه على ذلك وقال له : « ان ماكدونالد أقوى رجل فى ادارة الحزب كما ان هاردى أقوى رجل فى النفوذ » .

وفى آخر أغسطس وصلت برقية من المستر ويلفريد بلنت يدعو فيها لطفى جمعة وحامد العلايلى الى العشاء وقضاء ليلة فى قصره العتيق الفخم بجوار هورشام سكس بجنوب انجلترا الشرقى . وقد سجل لطفى جمعة هذا اللقاء فى يومياته سنة ١٩٠٩ كما سجله بعد ذلك بنيف وعشرين عاما فى « البلاغ الاسبوعى » سنة ١٩٣٠ (١) فقال « كان عصر اليوم الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٠٩ عندما رأيت المرحوم بلنت للمرة الأولى .. فقد وصلت مع رفيقى فى السفر فى الساعة الخامسة بناء على دعوة من رب الدار فسافرنا من لندن الى هورشام حيث غيرنا القطار بمركبة يجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريبا وسط الحقول والأحراش النضرة .. ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم وأبلغنا تحية السيد واعتذر لنا بأنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا فصعدنا الى غرفنا .. وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار الرحبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة يلبس الثياب العربية من عباءة وكوفية وعقال وقفطان وبيده عصا طويلة كالعكاز ولكنها الى رقة العود أقرب منها الى ضخامة الهراوة ، فحيانا باللغة العربية بصوت جميل رقيق ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهته ووافر أدبه وحلو حديثه ، وكان يتكلم أثناء الطعام عن مشاهير من عرفهم من المصريين كلاما وجيزا يدل على شديد حبه لمصر وأهلها ، وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس .. لقد دام هذا الاجتماع خمس ساعات من الساعة الثامنة مساء الى الساعة الأولى صباحا ولا أذكر أننى قضيت أمتع منها ولا أنفع ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقى الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من تاريخ مصر العزيزة وصدقه فى روايته وتحمسه مع شيخوخته لكل ما فيه نفع لمصر من أكبر العوامل على جعل

(١) البلاغ الاسبوعى فى ٨ يناير سنة ١٩٣٠ .

هذا المجلس من ألذ المجالس وأمتعها وأنفعها .. كان الحديث عبارة عن أسئلة منا وأسئلة منه .. سألناه عن رأيه فى عرابى فقال « لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل وآخر اتصالى به كان بشأن مراجعة ترجمته التى كتبها بيده ونقلتها الى كتاب « التاريخ السرى » لقد كان عرابى صادقا ومخلصا فى وطنيته حقا .. وكان ذا استعداد خطابى عظيم ولكنه كان ضعيفا فى السياسة والحرب .. ولم يكن عرابى مطلقا خائنا ولا مرتشيا ولا بائعا وطنه ولكنه كان شديد التردد .. سألناه هل كان دخول الانجليز مبنيا على غلطة من عرابى أم أنه كان أمرا محتما من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث ؟ ، أجاب : « الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية اقترفه عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل التل الكبير بأيام وهو الذى حضره أركان حربه وعبد الله النديم وجان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين ، فقد أجمع رأى هذا المجلس على تعطيل قناة السويس تعطيلا ماديا يمنع الجيش الانجليزى من الوصول الى الشاطىء الغربى لها فأرسل عرابى تلغرافا الى ديلسبس يخبره بأن الانجليز يخرقون حياد القناة وأنه مضطر لتعطيلها ما دامت دخلت فى ميدان الحرب فرد عليه فردناند ديلسبس بتلغرافه الشهير « لا تلمس قناتى !! بسوء وأنا الكفيل لك بانزال عسكريين فرنسويين مع كل عسكرى انجليزى» فتمسك عرابى بهذا التلغراف وقال له أعضاء المجلس : « ان ديلسبس هذا مجنون وكاذب وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطان فرنسيان فضلا على الجنود وانه لا نفوذ له فى بلده وأن أعمال الهندسة شىء والحرب والسياسة شىء آخر فلم يعمل عرابى بنصحهم .. وفى الليلة التالية دخل الجيش بدسيسة بعض الباشوات المصريين ..

وسألناه عن رأيه فى بلاد العرب فقال : « انه ينتظر لهم

مستقبلا عظيما ولابد أن يتحد العرب لتأسيس دولة حرة مستقلة .. » .

ثم دعاه لطفى جمعة الى المؤتمر فاعتذر لكبر سنه وضعف صحته وأعطاه خطابات توصية كثيرة كما أعطاه صورته مهداة بخط يده ، ولا تزال هذه الصورة محفوظة لدينا وتحمل تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، كما أعطاه خطابه الى المؤتمر باللغة الفرنسية وطلب منه أن يقرأه بنفسه بالنيابة عنه وطلب منه أن يرده اليه لأنه ليس عنده نسخة اخرى فوعده بذلك .

وقد سجل بلنت هذا اللقاء فى يومياته (١) فكتب يقول يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٩ :

« زارنى على العشاء والمبيت شابان مصريان ليتحدثا الى عن بعض آمالهما ، لقد جاءا الى انجلترا للدعوة الى المؤتمر الوطنى المزمع عقده فى جنيف فى الثالث عشر من سبتمبر ـ ذكرى معركة التل الكبير ـ ان كلا منهما شجاع فى آرائه لا سيما أكبرهما ـ لطفى جمعة ـ فانه على جانب كبير من الذكاء وقوة الحجة ، وقد أعاد الى ذاكرتى شخصية مصطفى كامل . انه يتحدث الانجليزية بطلاقة فضلا على الفرنسية ، أما الأصغر ـ يقصد المرحوم حامد العلايلى ـ فانه ابن أحد أغنياء الوجه البحرى وقد تلقى على مدى ثلاث سنوات بعض العلوم بجامعة اكسفورد ، أما الأول فهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقد حصل على درجة علمية من جامعة ليون وكان يتناول ـ من وقت مضى فى بعض مدن الوجه البحرى بعض المسائل السياسية ، وقد بث فى الناس آمالا كبارا فى برنامجه وكلا الشابين ماضيان فى خططهما ، لقد جاءا

---

(١) يوميات بلنت (١٩٠٠ ـ ١٩١٤) الجزء الثانى . ص ٢٧٨ .

يطلبان منى النصح فى الظروف الحاضرة وأخبرانى أن الخديوى قد اتجه بكليته الى انجلترا ولكن تأثيره ضئيل جدا وان طلاب الأزهر قد أصبحوا كلهم تقريبا الآن من الوطنيين وأن الذى يخشيانه حاليا هو أن حكومة القسطنطينية سوف تبيع مصر للانجليز ، وقد وافقتهما على هذه المسألة ونصحتهما بألا يناصبا القسطنطينية العداء فان علاقة مصر بالامبراطورية العثمانية هى الدرع الواقعية ضد انجلترا ، كما تباحثنا فى انشاء جمعية سرية على غرار جمعية الاتحاد والترقى التركية ، وقرأت لهما خطابى الى المؤتمر ـ الذى لم أنته منه بعد ـ وسوف يأخذانه لقراءته فى افتتاح المؤتمر وهو بالفرنسية وسوف يترجمانه الى العربية والانجليزية .

لقد جلسنا نتحدث حتى منتصف الليل ، انهما من نوع الشبان الذين يصنعون الثورات فانه لا فائدة ترجى من وراء الشيوخ المصريين لأنه ليس لديهم الشجاعة الكافية » .

وقد ظلت العلاقة بين لطفى جمعة والمستر بلنت قائمة واستمر تراسلهما ، وحدث فى سنة ١٩١٦ أن قامت السلطات الانجليزية بتفتيش منزل لطفى جمعة ومكتبه فى مصر ، وسطت على آلاف الأوراق والوثائق والخطابات والمخطوطات ولم تردها اليه وأعدمت بعضها واحتفظت بالبعض الآخر وكان من بين هذه الأوراق ـ للاسف ـ خطابات ويلفريد سكاوين بلنت وهى نحو من مائة خطاب خاص وفيها بعض الأشياء العامة ، يقول لطفى جمعة « ان هذه الخطابات ملك الأدب والتاريخ وملك أسرة الرجل ومن حق مؤرخى حياته والمترجمين له أن ينشروها لأنها من قلمه وانشائه وخطه وتعبر عن آرائه المحترمة فى العالم كله فى فترة من الزمن ، ولكن الذى يعزينى أن هذه المكاتيب الفاضلة قد وجدت بمبانيها ومعانيها فى مذكراته التى نشرت بعد ذلك فلم يضع على

العالم شيء من فكره ولعل هـذه الخطابات نفسـها فى محفوظات احدى الوزارات الأوروبية » .

وواصـل لطفى جمعة اتصـالاته للدعوة الى مؤتمر جنيف فزار ويلفريد مانيل صديق بلنت ودعاه الىالمؤتمر كما زار خابردى الهندى وتوجه الى مجلس النـواب الانجليزى فأبلغـه المسـتر ويلسون بأن حزب العمال قد قبـل الدعوة للحضور الى المؤتمر كما أبرق كيرهاردى بحضوره مع عضو آخر هو بارنز .

عاد لطفى جمعة بعد ذلك الى جنيف وبدأ المؤتمر وعقدت أولى جلسـاته فى ١٣ سبتمبر سـنة ١٩٠٩ وقد حضره جميع المصريين فى فرنسـا وأنحاء أوربا كمـا حضره جمع حاشـد من الفرنسيين والانجليز ورجال الصحافة والمراسلون وجلس كبار المدعوين أمثال هاردى وهازلتـون على المنصـة التى كان يجلس عليها أعضاء اللجنةالدائمة وألقى محمد فريد خطابه فىالمجتمعين .

وفى اليـوم التالى ألقى كيرهاردى خطبته فأنحى على مصر باللائمة ومدح كرومر والاحتلال الانجليزى وامتن على المصريين بالاصلاحات فى الرى والزراعة .

يقول لطفى جمعة « وفى الحال نهضت وطلبت الكلمة فرفض محمد فهمى رئيس اللجنة الدائمة فرجوته أن أقول كلمة لشكر الرجل ـ وهذه حيلة منى ـ ولما وقفت دهش النـاس الذين سكروا بكلام الزعيم دون أن يفهموا مغزاه فألقيت خطبة من نار ورددت عليه كل آرائه كلمة فكلمة وقلت له : أنت جئت تسمعنا مدحا فى كرومر ومدحا فى الاحتلال وليس هذا أملنا فيك . . هـذه صورة طبق الأصل من كلام الانجليز فى مصر وأنت زعيم حزب العمـال تقول الحق وتدافع عن الحرية ، وهنا لم تقل الحق ولم تدافع عن الحرية بل قويت سـاعدهم علينا فنحن لا نقبـل كلامك ، وان

الذين صفقوا لك لم يفهموا الانجليزية ولا يمكنني أن أترك هؤلاء الناس فى حيرتهم .. نحن نطلب الحرية والاستقلال كاملا ولا نرضى بهما بديلا واذا كنا نقبل النصح بالصبر والرضا فلم عقدنا هذا المؤتمر ؟ وهل نسيت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ وتقييد الصحافة وحبس الزعماء وفيهم عبد العزيز جاويش الذى فى السجن » .

وعلى أثر ذلك حدثت ضجة فى المؤتمر وصفق الناس وهللوا وانسحب هاردى بدعوى الغضب ، ونقلت وكالات الأنباء نص خطبة لطفى جمعة الى جميع الصحف بالتلغراف ثم عاد النظام الى المجتمعين وقام بارنز عضو البرلمان الذى حضر مع هاردى وألقى كلمة هادئة عن صاحبه وقال نحن اسكتلنديان لا انجليزيان . وقد سجل بلنت فى يومياته تلك الحادثة فكتب يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٩ ص ٢٨٣ يقول « لقد أحرز مؤتمر جنيف نجاحا وكتب الى عثمان غالب عن الشاب جمعة الذى أخذ بزمام المبادرة فى الاجتماع المصرى ورد ردا حسنا على كيرهاردى الذى ألقى خطابا يعنف جارح واستطاع أن يحمل المؤتمر على أن يكون فى جانبه » .

ثم خطب هازلتون وكيتل وأيدا وجهة نظر لطفى جمعة ، وفطن هاردى الى أنه فشل فى خطته وهى أن يخطب خطبة لتحسين علاقته مع الحكومة البريطانية وأدرك أن مجاملاته للسياسة الانجليزية لن تفيده شيئا .

وكانت دهشة محمد فريد عظيمة مما حدث حتى انه قبل لطفى جمعة وبكى وضمه الى صدره وقال له « أنت ابنى أنت خليفتى .. أنت .. الخ » .

وقد أحس لطفى جمعة براحة نفسية عميقة لأنه أخذ بحق أمته ووطنه كما يقول .

وبعد الظهر حضر بارنز اليه وقال له : ان هاردى عاتب عليك لأنك لم تطلعه على خطبتك وردك عليه فقال له : « أنت مازح يا مستر بارنز ؟ كيف أطلعه على خَطبة ارتجلتها ارتجالا ولم أكن لأعلم بما سيقول ولو أطلعته أو أخذت أذنه لذهبت الفرصة واذن كان الموت أحب الى من أن أفرط فى هذا الحق .

فقال بارنز : أرجوك بالنظر الى سنه ومقامه أن تأخذ بخاطره لأنه اعتذر عن وليمة العشاء فقال له : ان عدل خطته فأنا صديقه وتلميذه ولكن ليس قبل هذا .

ثم ألقى بارنز وهارديال والهلباوى خطبا ، كما خطب هاردى خطبة أخرى جديدة مدح فيها مصر وأنذر الظالمين بسوء العاقبة ومدح الوطنية المصرية وانتهى المؤتمر فى ١٦ سبتمبر .

وقد سجل لطفى جمعة أعمال هذا المؤتمر فى كتاب مخطوط ـ استولت عليه السلطات الانجليزية للأسف الشديد عندما دهمت منزله سنة ١٩١٦ ضمن ما استولت عليه من أوراق ووثائق ومخطوطات وخطابات ، يقول لطفى جمعة ان هـذا المخطوط كان « وثيقة ثمينة حقا وكان يجب على أن أخفيه عن الأعين أو أبادر بطبعه بعد عودتى من أوربا مباشرة ولكن المال كان يعوزنى وكان على الحزب الوطنى أن يتولى نشره ولكن أعدائى وحسادى فى قلب الحزب كانوا أبعد الناس عن معونتى وكذلك أعضاء اللجنة الدائمة لشباب مصر فى جنيف .. ولكن أعمال المؤتمر وأعمالى خاصة مودعة بطون الصحف والمجلات ولا سيما أمهات الجرائد الانجليزية كجريدة التيمز والديلى تلغراف والديلى نيوز وليبور ليدز وجرائد ايرلندا ومصر والهند ، فلست باحثا عن الشهرة أو الخلود من هذا السبيل ولو أننى طبعت مئات المجلدات لأثبت جهادى فى سبيل وطنى وأمتى وملتى ما زادنى فى أعين السادة

المعلومين الا مقتا ولاتخذوها أسلحة لمحاربتى كما دلني الاختبار بعد ذلك فماذا يكون كتابى المخطوط عن مؤتمر جنيف ؟ . فى سبيل الله تعبى وسهرى وسعيى وجدى واجتهادى وقراءاتى وكتابتى وتدوينى وتبويبى وأسفارى وصبرى على الجوع وحيرتى الدائمة فى انتظار المال القليل من هنا وهناك لأنفقه فى العلم والكتب فى سبيل الطبع والنشر والدعوة الى حرية وطنى وعزة أبناء بلدى ، فى سبيل الله آمالى ومثلى العليا وأهدافى ، اننى أقدم ما أقدر وفوق ما أقدر لخدمة وطنى ثم أعود فاذا يد فارغة وأخرى لا شىء فيها كيد سليمان الحكيم التى برزت فارغة من نعشه يوم دفنه موعظة للأحياء !! » .

سافر لطفى جمعة الى باريس فى ٢٢ سبتمبر بناء على دعوة محمد فريد له حيث اجتمع به كما اجتمع بطلعت حرب وفرح انطون وفكر فى انشاء جريدة « لينندار اجبسيان » وقام بزيارة مدام جوليت آدم ثم عاد الى ليون فى ٢٧ سبتمبر حيث اشتغل فى المطالعة والقراءة وكتابة مذكراته عن المؤتمر وكتابة المقالات لجريدة اللواء ومقال عن نهضة الشرق لمجلة الشرق فى باريس .

وفى تلك الفترة وضع مسرحية « هرماكيس » وخلاصنها أن هرماكيس يدعو الى أن هناك الها واحدا وأن الملك ليس ابن الآلهة وانما هو مخلوق كسائر البشر وأنه يجب على الشعب أن يسمع صوته ويلبى نداء اله واحد ليرمى عن كاهله استبداد ملك متأله مما يحنق عليه الملك فيأمر بسجنه ، وفى السجن تراوده ساتينى ــ عشيقة الملك ــ عن نفسه ، فيأبى فتحنق عليه وتطالب الملك برأس هرماكيس فيجيبها الى ذلك ثم يتبين للملك أن ساتينى قد خانته مع رئيس الحرس فيأمر بقتلها .

وفى الثالث من نوفمبر بدأ العام الدراسى الجديد ..

واستأنف لطفي جمعة كفاحه في سبيل العلم ·· فقد كان هــذا العام عام الحصــول على الليســانس .. ومع ذلك فقد سجل في أحداث يوم ٨ نوفمبر أنه كتب مقالا عن قناة السويس بين فيــه الأخطار التي تعود على مصر من مد أجل امتياز الشركة ، ومما جاء في هــذا المقال « ان القنال سيئول الينا بعد انتهاء مدة الامتياز ويجب على مصر أن تفكر في ذلك وتعد له العدة من الآن » .

وفي خلال تلك الفترة اتجه لطفي جمعة الى دراسة الفلسفة فاختلف الى مدرســة الآداب بجــامعة ليــون حيث حضر بعض المحاضرات ، وسجل في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ شروعه في وضع كتاب عن فلاسفة الاسلام وقد انجز تأليفه في جنيف في أواســط سنة ١٩١١ وقد طبع هذا الكتاب بعد ذلك في مصر سنة ١٩٢٧ ويقع في أربعمائة صفحة وقد انتهج في تأليفه نهجا جديدا وقد قام محمد نور الدين ناهين الصيني بترجمة هذا الكتاب سنة ١٩٤١ الى اللغة الصينية .

كتب اليه المرحوم أمين الريحــاني في ١٥ ســبتمبر ســنة ١٩٢٧ يقول « ما أجمل الحياة وما أعزها عندما يمكن المــرء المفكر من مثل العمل الذى قمت به خدمة للعلم والفلســفة وما أطيب الأيام واللذها التي تصرف في تأليف كتاب مثل كتــابك الأخير في « فلاسفة الاسلام » .. قد لا ينعم صاحب الفــكر بغير الأفكار التي يخلدها فتخلده وما الخلود في نظرى غير الخلود الفكرى .. وأنت أيهــا الأخ الحبيب من الخــالدين في أثرك الكبير الأثر الذى يقرن اسمك الكريم بتلك الأسماء الخالدة التي طالما أعمرت قلبك وأنارت ذهنك وكانت الأنيس الوحيد والســمير الفريد في ساعات العقل المثمر وفي ساعات الروح الحائر وفي ساعات الكآبة والقنوط اني ممن يرفعون في النهضــة المصرية الأدب على السياســـة ، فالاصلاح الحقيقي الذى فيه الاستقلال الحقيقي لا يجيء عن غير

هـــذا الطريق التى ينيرها بأنوار العلم الصحيح نفر من الأدباء الذين تعجب بهم ونحترمهم لا لما بدا من آثارهم الأدبية والنقدية والعلمية وفيها الكثير الجليل، بل لما يتقد فى صدورهم من الأشواق العالية والآمال الشريفة ويصح أن تقول ان النهضة المصرية شوق عظيم جميل يشتغل فى تحقيقه الأدباء الحقيقيون والأخ لطفى فى مقدمتهم » .

وفى ١٤ ديسمبر انتخب لطفى جمعة عضوا فى مجلس ادارة المجمع العلمانى « ميسون لايك » برئاسة هريو محافظ مدينـــة ليون ، كما انتخب الاستاذ لامبير والمسيو بورت عضوين فى هـذا المجلس .

* * *

انقضت سنتان على تلك الليلة المقمرة فى شرفة فندق موران بمدينة لوزان لم تنقطع خلالهما أوجستا عن مراسلة لطفى جمعة والاعتذار اليه عما بدر منها فى تلك الليلة .

وفى أجازة عيد الفصح سنة ١٩١٠ ســـافر لطفى جمعة الى جنيف بعد أن وصلته رسالة منها تدعوه فيها وتلح عليه فى الرد ، وقصد الى حى بتى لانسى ونزل بفندق راســين الفنـدق الذى كانت تنزل به المليحة الملحة ..

وكان أول لقاء بينهما بعد هذه الفرقة يوم الأحد ١٩ مارس سنة ١٩١٠ ، وقد سجل لطفى جمعة ذكريات هذا اللقاء وما تلاه فى كتابات كثيرة فى قالب قصصى أخاذ هى فى حد ذاتها قصة من الأدب الرفيع !!

وفى هذا اللقاء أهداها كتاب « مذكرات سائحة فى تركيـا » تصف فيه المؤلفة ثورة تركيا سنة ١٩٠٨ فأهدت اليـــه كتـــاب ديمترى مرجو فسكى فى تاريخ نهضة الاحياء فى ايطاليا ، فكان هذا

الكتاب فاتحة عهد جديد لأنه أدى الى قيامه بدراسات طويلة وكتابات كثيرة وانتهى بسفره معها الى ايطاليا وزيارة فلورنسا وجنوا وبادوا وميلانو وبولونيا .

وخلال تلك الفترة التى أقامها بفندق راسين كتب وقرأ كثيرا وجعل فى كل يوم أربع ساعات لمواصلة مذاكرة الدروس وتلخيصها واستعار من مكتبة الحقوق بجنيف كتبا ضخمة فى الاقتصاد السياسى والاشتراكية والقانون التجارى وقرأ كتبا فى الاستعمار تعليقا على القانون أو التشريع الاستعمارى الذى وضعته فرنسا لمعاملة المسلمين والعرب فى شمال افريقيا وواظب على قراءة المجلات الفرنسية والانجليزية وكبريات الصحف اليومية .

وكانت أحاديثه مع تلك الأديبة الروسية أو « المليحة الملحة » تدور أحيانا حول سياسة بلادها وتفصيل الأحزاب والمبادىء تفصيلا يشمل وصف الرجال أمثال ميلوكوف ووصف المعركة التى كانت قائمة حينذاك بين القيصر والثوار وتاريخ الدوما ، وكان حى كاروج بجنيف فى تلك الفترة مقر الثوار فكان لطفى جمعة يلمحهم فى ذهابهم الى الحفلات السياسية ويستمع الى الخطب التى كان يلقيها أمثال جوريس ويصنت الى المساجلات بين الساسة والزعماء فى بيت الشعب بساحة بلانبا ليه .

وحدثته أوجستا عن تولستوى ودستوفسكى كما حدثته عن جوركى وكان يعيش فى روما فى تلك الفترة مع صديقه ممثل الأوبرا وأغرته بالسفر الى بايروت بألمانيا فى موسم فاجنر اذ كان حبها للموسيقى عظيما وقد استمع الى الأوبرا العالمية للمرة الأولى فى صحبتها فرأى ــ كما يقول ــ عالما عقليا روحيا كان مغلقا دونه .

كما روت له عن جوجول أكبر كتاب القصة الروسية كما عرفته لأول مرة بأندوريف الكاتب القصصى العظيم والذى عاش الثورة الروسية واكتوى بنارها ٠

وزار لطفى جمعة فى صحبتها الكاتب المحارب السويسرى جون نينه صديق مصر فى عهد اسماعيل باشا ومستشار عرابى أثناء الثورة العرابية وهو الذى أفتى له عشية التل الكبير قبل الموقعة بساعات بردم قناة السويس وعدم الثقة بوعود دليسبس فأحجم أحمد عرابى خوفا من أوربا فكان احجامه سبب نكبة مصر فى التل الكبير لأن القنال لو ردم ـ كما يقول لطفى جمعة ـ فى تلك الليلة ما استطاع الانجليز هؤلاء اللصوص الحمر الثياب والوجوه والسود القلوب أن يصلوا الى جيشنا أو يدخلوا بلادنا كما فشلوا فى كفر الدوار ٠

ولم تدم اقامة لطفى جمعة فى حى بتى لانسى الا أسبوعين رحل بعدهما الى ليون فزار الكلية وحضر بعض المحاضرات وقابل الأستاذ لامبير وحاول البقاء فى منزله بليون ولكنه عند ما شعر بالضعف يعاوده والوحدة والرطوبة تلحان عليه ، عقد العزم على العودة الى جنيف وعاهده الطلاب على ارسال صورة من المحاضرات مخطوطة بطريقة الاختزال وتزود بكتب القانون وتوجيهات أساتذته ولا سيما هو فلان وبيك وجارو وبعض أصدقائه المصريين وشد رحاله عائدا الى جنيف على أن يعود فى يونيو قبل امتحان الليسانس بشهر ٠

وهكذا عاد لطفى جمعة الى فندق راسين مرة أخرى ، وفى خلال تلك الفترة أصدر صحيفتين لخدمة الأهداف الوطنية ومحاربة الاحتلال الانجليزى فى مصر هما « صوت الشعب » وكانت تصدر باللغة

العربية و « مصر » وكانت تصدر باللغة الانجليزية وقد سجل مستر بلنت فى يومياته يوم ١٧ مارس سنة ١٩٠٩ أن لطفى جمعة كتب اليه يبلغه بعزمه على اصدار هاتين الصحيفتين ويطلب منه المعونة والارشاد . وتوجد من هاتين الصحيفتين نسخ فى جميع مكتبات أوربا العامة ولكنهما صودرتا فى مصر ومنعهما الاحتلال من الدخول؛ ولكن لطفى جمعة — كما يقول — تمكن من ايصال بعض النسخ بطريقة سرية .

وقد رد لطفى جمعة فى صحيفة « L'Egypte » على تيودور روزفلت ابن عم رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق وكان قد حمل على مصر حملة شعواء فى القاهرة ولندن لأن أبناء عمومته اليهود — كما يقول لطفى جمعة قد أكرموا مثواه فى مصر والسودان فرد تحيتهم بالطعن فى الوطنية المصرية ولم يخجل من أن يحرض الانجليز ويدعوهم الى استعمال الهراوة فى معاملة المصريين فان لم يرغبوا فليتخلوا عن مصر لتحكمها الجمهورية الأمريكية !! وشايعت بعض الصحف الفرنسية والسويسرية لطفى جمعة فى رده على روزفلت وكانت له صلات ببعض محرريها منذ سنة ١٩٠٩ التى عقد أثناءها المؤتمر المصرى الأول فى جنيف .

وشارك لطفى جمعة خلال اقامته بحى بتى لانسى فى عيد العمال فى أول مايو سنة ١٩١٠ وكان الاحتفال به فى جميع أنحاء أوربا عظيما جدا فيما عدا انجلترا وكانت حركة العمال قد قويت فى فرنسا بتأثير جوريس وفى ألمانيا بتأثير أوجست ببيل وفى انجلترا برئاسة كيرهاردى .

ولقد كانت حياة لطفى جمعة فى تلك الفترة شبه انتصار فى معركته ضد المرض والخمول الذهنى واليأس والغربة فقد خرج من ليون هاربا بعمره — خائفا من المرض ، مرض الجسم والروح — وفارا

من جمود البلد وبرودة طبيعة أهله ووحدة العيش وان كان يتسلى فى أوقات الفراغ بالمطالعة ويغشى مجالس العلم ويستمع الى محاضرات القانون ويصرف همه فى الدرس ويروح عن نفسه بكلية الآداب ودراسة اللغة الهيروغليفية على الأستاذ لورتيه ، وكان من رفاقه فى الدرس بييرمونتيه الذى اكتشف مقبرة بشنس فى صان الحجر والمرحوم أحمد زكى · كما كان يحاضر فى قاعات المحاضرات ويشارك الأستاذ لامبير وهريو عمدة المدينة فى تكوين المدارس العلمانية ومن بينها الليسيه الفرنسية التى تأسست فى مصر لمقاومة النزعة الدينية فى مدارس الفرير ·

عاش لطفى جمعة فى بيت آل راسين بجنيف عيشة سعيدة ولكنه لم يقطع صلته بأصدقائه الايرلنديين والهنود الذين عرفهم فى مؤتمر جنيف المصرى سنة ١٩٠٩ ·

وبدأت فترة جديدة فى حياته ، فقد مكنه قربه من جنيف من الوصول الى المكتبة الجامعة وساحة بلا نباليه وساحة الملعب وميدان الجنرال ديفور بطل سويسرا الوحيد ومن هناك الى كاروج فشارع مون بلان والجسر الكبير وجزيرة جان جاك روسو ·

وقد عرفته أوجستا بمكتبة كبيرة وأطلعته على روائع الأدب الفرنسى ولا سيما مؤلفات جان جاك روسو وأحضرت له « العقد الاجتماعى » و « أسباب التفاوت بين البشر » و « اميل » كما أحضرت له مؤلفات فولتير ·

فدرس حياة جان جاك وكتبه وداوم على تفهمها وصمم على أن يفتتح بفلسفته وآرائه ومبادئه محاضرات يلقيها على المتأدبين من أهل مصر عند عودته الى الوطن ·

كما كان يحضر مع أوجستا محاضرات وخطبا فى بيت الشعب ويستمع الى سباستيان فور وجاك جوريس وبرتونى ٠

وانتهزت أوجستا فرصة زيارتها المكتبات وأرشدته الى مجلة مركور دى فرانس ولم يكن قد سمع بها من قبل ولا قرأها ، فكان اهتداؤه اليها ظفرا عظيما له ومصدر معرفة واسعة بالأدب والفنون الحديثة وقد كتب فيها مقالا سنة ١٩٢٠ (١) ٠

ودعته أوجستا ذات ليلة الى حفلة أحيتها الراقصة العالمية « ايزيدورا دنكان » فشاهد رقصة الأوعية وهى من أروع رقصات البالية ٠

وقد كان الفضل يرجع الى هذه السيدة كما يقول — فى ايقاظ رغبته واتساع فهمه وتطلعه الدائم للاتصال بالعقول الكبيرة الدائمة الحركة فى العلم والفلسفة والأدب ٠

واقترب ميعاد امتحان الليسانس ولم يبق عليه سوى ستة أسابيع ، فأخذ ينظم فكره وعمله ويجعل حياته مطابقة لتفكير منطقى وصمم على الانتقال الى ليون ليستعد للامتحان فى ميدان العمل وفى جو الجامعة وفى وسط الأساتذة والطلاب ، ولكنه خشى عاقبة الوحدة والرطوبة ففكر فى الاقامة فى شاربونيير احدى ضواحى ليون الباسمة وحدد يوم أول يونيو موعدا للسفر وكان الامتحان يعقد فى أواخر يوليو ، وأبلغ أوجستا بما عزم وكانا يجلسان حينذاك بجزيرة جان جاك روسو فبكت ثم وافقت على السفر بشرط أن تلحق به ٠٠ ثم نهضا وغادرا الجزيرة ، وقالت له : لن نعود

(١) A propos du tour hindou de la corde rigide, Mercure de France, 15.4.1920, pp. 852-855.

لهذه الجـزيرة أبدا لأننى سمعت فيهـا نبأ فراقنا فزال حبهـا من قلبى !!

وقد صدقت نبوءتها فلم يجلس مع أوجستا فى هذه الجزيرة بعد ذلك اليوم أبـــدا !! ٠

وصل لطفى جمعة بمفرده الى شاربونيير فى يوم شديد القيظ وبعد أسبوعين من وصوله جاءته برقية من جنيف تنبىء بوصول اوجستا ، وفى هذه الفترة زاره الأستاذ محمد ناجى الفنان الشهير وكان حينذاك طالبا بالحقوق وروى له وصف سياحته فى ايطاليا وزيارته المتاحف فى روما وفلورنسا ، فنذر أن نجح فى الامتحان أن يسافر الى فلورنسا ٠

كانت فترة اقامته فى شاربونيير من أسعد فترات حياته فقد كان يقصد الى ليون كل صباح يتابع دروسه ويشارك فى تكوين « خلوة الشرق » وهو المعهد الذى أسسه لامبير لمواصلة بحوثه فى الشريعة الاسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى ، وقد قام لطفى جمعه بقسطه فى القاء المحاضرات العامة فيها بالكلية وقد خلفه المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق فى فترة غيابه ٠

والى جانب ذلك كانت له حياته الخاصة تشرف عليها أوجستا اشراف الصديقة الحميمة والمدبرة الحكيمة التى تستهويها ملذات العلم والأدب والروح دون غيرها من الملذات ٠

وفى تلك الأثناء لفتت أوجستا نظـره للمرة الأولى الى عـلم الفلكلور أى أدب الشعوب ولغاتهم الدالة على أخلاقهم وفيها أغانيهم وأمثالهم فلم يعرف قدر هذا العلم ــ كمـا يقول ــ الا بعد سنوات عنـدما وجد له علاقة وثيقة بالدراسات الجنائية والاجتماعية ٠ وقد كتب بعد ذلك عدة مقالات وأبحاث فى الأدب الشعبى ، من ذلك بحثه عن « الاجتماع وعلم الشعوب وآدابها وحكمتها فى الفلكلور

العالمى » بمجلة المقتطف عدد مارس وابريل سنة ١٩٤٣ ومقاله عن « أدب الشعب والثقافة العامية » ، المنشور بمجلة اللطائف سنة ١٩٤٣ – ومحاضرته فى نادى الانجلو عن « اللغة العربية والعامية » ـ ومقاله « السحر والتمائم والحجب والرقى والعزائم » بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ١١ سنة ١٩٣١ . كما ألقى فى سنة ١٩١٨ محاضرة فى « فن الملاحن » Argot فى جمعية الشبان المسيحيين لا يزال مخطوطها موجودا لدينا ، وقد أشار الدكتور عبد الحميد يونس فى محاضرته عن الفنون الشعبية فى الوطن العربى بنادى المعلمين سنة ١٩٦٩ الى جهود لطفى جمعة فى هذا الميدان .

يذكر لطفى جمعة أن أوجستا حدثته أيضا عن التجديد فى الفنون الرفيعة والتطور فى المدارس الأدبية من شعر ونثر وتصوير ونحت وموسيقى وأسمعته ـ لأول مرة ـ شعر تيوفيل جوتيه وبول فرلين وارتور رامبو وأرشدته الى معارض الرسم التى تقام فى عواصم أوروبا وأوجدت صلة بينه وبين رومان رولان ، وتواريخ الموسيقيين .

لقد كان من أهم الأمور لديه أن يسارع الى اجتياز الامتحان ليتحرر من قيود الدراسة وان لم تكن الدراسة قد عاقته عن الاتصال برجال السياسة والأدب فى أنحاء العالم ، فكانت ترد اليه المكاتبات والخطابات من بلنت (١) وكيرهاردى وتوم كيتل وهزلتون وروتشتين ولفيف من الساسة الانجليز والفرنسيين والايرلنديين والهنود وزعمائهم ولا سيما شيادمجى كريشنا فارما صاحب مجلة أنديان سيوسيولوجيست ومدام كاما

---

(١) سجل بلنت بعض هذه المكاتبات فى يومياته ص ٣٢٦ يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩١٠ .

وهارديال وسافاركار وكانت تصله كتبهم المطبوعة والمخطوطة ٠

وعندما حل يوم الامتحان وكانت فترته تستغرق ثلاثة أيام انقطع عن المذاكرة وقضى يومين فى الرياضة والسير فى الحقول ٠

يقول لطفى جمعة « وحدثت لى فى هذا الامتحان بعض الحوادث العجيبة منها أننى فى عشية الامتحان رأيت فى الرؤيا بعض الأسئلة فى القانون التجارى والدولى فاحتطت لذلك بمراجعة خاصة لهاتين المادتين ولا سيما الأسئلة التى رأيتها فى الرؤيا ودهشت اذ صادفت هذه الأسئلة نفسها فى الامتحان وأجبت عليها اجابة حسنة جدا ٠٠ وفى اليوم التالى كنت أتوجس خيفة من امتحان أستاذ القانون المدنى عمانوئيل ليفى الاسرائيلى والخطيب السياسى الاشتراكى النزعة » ٠

وقد ألقى عليه الأستاذ ليفى بعض الأسئلة فأجاب عليها بتوسع ثم قال له :

– أشكرك ٠ لا فائدة من تعذيبك وتضييع وقتى !!

وفى اليوم الثالث كان امتحان التشريع الاستعمارى وتشريع العمال والمبادىء الاقتصادية وفى نفس اليوم ظهرت النتيجة وهى نجاحه بتهنئة المحلفين وهى نتيجة تعلن والاساتذة وقوف يتلوها تصفيق الطلاب وأهاليهم ٠

ولم يكتف لطفى جمعة بالحصول على شهادة الليسانس بل عزم على أداء امتحان الدكتوراه بعد أداء امتحان المعادلة فى مصر وهكذا امتدت سنوات دراسته فى فرنسا حتى سنة ١٩١٢ ٠

واعتقد أنه أصبح طليقا وأنه سينال قسطا من الراحة حوالى ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل قبل استئناف الدراسة الخاصة ، ولم يكن ليعلم أنه فى سبتمبر من تلك السنة (١٩١٠) سيكون فى باريس وبروكسل فى سبيل المؤتمر الوطنى المصرى الثانى ٠

سياحة فى إيطاليا

عقب حصول لطفى جمعة على الليسانس استقر رأيه على أن يقضى مع أوجستا بضعة أيام فى ســياحة فى ربوع ايطاليا فشدا الرحال حيث بلغا جنوا وفى اليـوم التالى رحلا الى شاطىء بيل ، وزارا الكامبوسانتو وهو مقر الموتى فشاهدا آيات من الفن وبراعة التصوير وحذق المثالين والنحاتين والحفارين فى المرمر والرخام مما يدهش الألباب ويبهر الأبصار ويذهل العقول ، كما جلسا فى الجلاريا وهى أفخم أسواق جنوا وأوفرها بالبضائع والنفائس ، وزارا أفخم الكنائس ومتحف الصور ثم رحلا الى فلورنســا وقاما بجولة للتعرف على معالم المدينة ومتاحفها وكنائسها ولا ســيما الكنيسة الكبرى « الدومو » وسارا فى ساحات المدينة وخاصــة ساحة لوجيا أفخر وأعرق الســاحات ونزلا بتلك المدينــة بأحد الفنادق المطلة على نهر الأرنو ، وذات يوم أشارت أوجستا الى الجسر الذى تراءى من بعيد وذكرت له أن هذا الجسر التقى عليه دانتى وبياتريس .

وقد أعجب لطفى جمعة بفلورنسا اعجابا شــديدا يقــول « ما روما وما باريس وما لندن وما برلين وفينا ؟ فيرنزه وميونخ والقاهرة تلك مدن الخيــال والجلال والسحر الحلال .. لك الله

يا فرنزة ولـكل من تنفس فى جوك وعاش على أرضـك وأظلتـه سـماؤك فى كل الأجيال » !!

وفى تلك الفترة أتم نقل كتاب الأمير لميكافيلى الى العربيـة ورأى أن يستعين بنسخة ايطالية فى اتمام ترجمة هذا الكتاب ، فانتهز فرصة وجوده فى بلد ماكيافلى وهو أحد أعلام تلك المدينة وتتبع موطنـه وزار بيته ورأى مؤلفـاته ومخطوطاته محفوظة فى هذا البيت ، وشاهد خط يده وزار قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفيلا وجمع ما استطاع من الكتب والرسائل والصور حتى وجد الجو التاريخى ــ كما يقول ــ وكان يشـتم عبقه كأنه يعيش فى زمنه . وقد سجل هذه الفكرة مجسمة فى مقـدمة كتـاب الأمير الذى أهداه مطبوعا سنة ١٩١٢ الى « أوجست فيليبوفنا » رمزا الى اسم أوجستا كما يقول اعترافا بفضلها عليه فى تلك الفترة .

ونذكر فى هذه المناسبة ان السيدة ماريا ناللينو عقدت مقارنة فى مجلة « الشرق الجديد » الايطالية عدد ديسمبر سنة ١٩٣١ بين الترجمتين العربيتين لكتاب الأمير لميكافيلى تحدثت فيهـا عن ترجمة رافائيل زاكور سنة ١٨٢٣ لهذا الكتـاب وترجمـة لطفى جمعة له فى سنة ١٩١٢ ، أنتهت فيها الى أن ترجمة لطفى جمعة أرقى وأدق وأبلغ كثيرا من ترجمة زاكور وعقدت مقارنة بين بعض نصوص كتاب الأمير كما وردت فى هاتين الترجمتين (١) .

وقرأ لطفى جمعة تاريخ ايطاليا لجويتشارديني أحـد مؤرخى فلورنسا وأحب ليوناردوفنشى وميكيل انجلو وموتشيبلى كمـا شاهد لوحات دونا تيلو وبيلينى وجيرلاندجو ورفائيل وفيليبـو

---

(١) Maria Nallino, Intorno a due tradizioni arabe del « Principe » del Machiavelli, Orient Moderno, Anno XI, N. 12, Dicembre, 1931, pp. 604-616, Roma.

وفيركيو وجيتو وبنفنتو تشيلينى وعشرات وغـيرهم من سـادة الفن فى هذا البلد .

كما ترجم لجيور لامو ســافونارولا أحد أتقياء فلورنســا وشهدائها ، ورأى آثار هـذا الراهب مصـــونة فى صومعته فى دير الدومنيك كما شاهد خط يده وتفسيره الانجيل وبعض ثيـابه والصليب الذى صلب عليه وتصاويره ومحابره وأقلامه ، وشاهد صومعته التى عاش فيها راهبا قبـل ظهـور دعوته وهى غرفتان صغيرتان جدا لهما سقف على هيأة قبو بأبواب مستديرة ونافذتين ضيقتين مستديرتين وفى الأولى منهمـــا كرسى خشبى كان يجلس عليه الراهب وصندوقان أحدهما مكتوب عليه بالايطالية اسـمه كاملا وأنه صلب وحرق بفلورنسا بأمر أهل المدينة سنة ١٤٩٨ .

وقد أثر هذا الرجل فى نفسه فكتب عنـه رسـالة وافية سلبها الانجليز فيما سلبوا من المخطوطات عنـد تفتيش منزله فى مصر سنة ١٩١٦ (١) .

كما قرأ لطفى جمعه نعيم دانتى وجحيمه وكوميديته الربانية التى نظمها مستوحيا حبه لبياتريس احدى فاتنات فلورنسا كما قرأ قصص بوكاشيو أكبر قصاصى هذا البلد .

وبينما كان يمتع عقله وروحه فى فلورنـــســا ويشـــتغل بالدراسات الفنية والأدبية واتمام تعريب كتاب الأمير جاءته برقية من الدكتور منصور رفعت تستدعيه للسـفر فورا الى باريس للاعداد للمؤتمر الوطنى الثانى الذى تحدد موعد انعقاده فى أيام ١٤ و ١٥ و ١٦ سـبتمبر سنة ١٩١ بعاصمة فرنســا ، فأبلغ

---

(١) أشار الأستاذ حسن عثمان فى كتابه « سافونا رولا ، الراهب الثائر » سنة ١٩٤٧ الى هذه الرسالة .

أوجستا نبأ تلك البرقية وطلب اليها أن تكتب في الصحف الروسية مثل برافدا وجازيت البورصة بعض الرسائل عن المؤتمر المصرى المزمع عقده .

واستقل معأوجستا القطار عائدين حتى بلغا لوزان فاستقلت هى القطار الى جنيف وودعته باكية ضاحكة بينما أخذ هو سمته الى باريس .

يبدو من كتابات لطفي جمعة أن العشرة قد امتدت بينه وبين أوجستا فترات لم تزد فى مجموعها على عـام بدأ فى مارس سنة ١٩١٠ وانتهى فى نوفمبر سنة ١٩١١ وان كان قد اجتمع بها بضع ساعات فى يونيو سنة ١٩١٢ فى فيفى ثم افترقا الى الأبد ولم يلتق بها الا فى رؤيا كالحقيقة كما يقول .

وفى سنة ١٩٢٥ عندما كان الاستاذ أحمد الصاوى محمد فى باريس كتب الى لطفى جمعة من هناك عن أوجستا يقول :

« كنت أمس (٢ مارس سنة ١٩٢٥) فى الحفلة التى أقيمت فى النادى الروسى تكريما لمدام أوجستا وقد اشتريت تذكرتين لما علمت بأن هناك حفلة تقام لمساعدتها وما أن دخلت فى الســـاعة العاشرة مساء حتى رأيتها لأول مرة تخطب وتلقى بصوت متهدج قطعة أدبية وقد ضمت الحفلة نحو مائتين من خيرة القوم وبعض الوزراء وجاءت بعد الخطابة تحيى ضيوفها وكنت سـأتردد جدا فى ذكر اسمك .. كنت سأقول لها انى أسمع بشهرتك الأدبيـــة ولكنها ذكرت اسمك لى وسألتنى عن المرحومتين الجدة والخـالة وعن أسرتك الحالية وعن أولادك وقالت انك لم تكتب لها من زمن طويل .. لقـد ألحت عليها الشيخوخة الحاحا مزعجا ولو رأيتهـا لأقسمت لك أنك ستنكرها ولشد ما أسفت أنا .. كنت أريد أن احتفظ بحلمى الجميل وخيالى البديع عنها .. ان الحقيقة ليست جميلة دائما » .

وفى سنة ١٩٢٧ ارسلت أوجستا خطابا الى لطفى جمعــــة ولكنه أهمل الرد عليه .

يقول لطفى جمعه «وقد ندمت على تقصيرى فى ذلك ومازلت نادما لان هذه السيدة أدت الى من الفضل والجمائل مالايحصى ، وتحملت بسببى آلاما كثيرة ، واستهانت فى سبيلى بما لا يستهان به وأدخلت الى عقلى وقلبى وروحى خواطر ومبادىء ومشاعر تركت فيها آثارا لايمحوها الزمن ولم يكن اليها من سبيل أو ذريعة غيرها ، وقد تفتحت فى ظلها كل مواهبى ورغائبى وتجسدت كل حقائق الحياة فى نظرى بفضلها وقوتها وايمانها ، وأرشدتنى الى مطالعات ودراسات لم أكن أنالها وأعانتنى فى قراءات وتحصــيل علوم ، وســهرت على ســهر الشــقيقة والزوجة والصـديقة والأم الرءوم .. جمال امرأة وخلالها وعقــل الرجــل وحسن تصرفه ولكنها حيال هذه النعم كلها أدنتنى بفعلة واحدة من الموت المحقق لولا عناية الله ورحمته فأزهدتنى فى الحياة أعواما وأفقدت ثقتى فى جنس الانسان وأخــرجتنى من حلم الاديب الى غيظ المنتقم فكتبت رواية «قلب المرأة» وبالغت فى تسويد صحيفتها وماكان ينبغى لى أن أفعل هذا .. نعم لقــد عراها الندم فترة ولكنى كنت اذ ذاك على شفا حفرة عميقة من اليأس ألتمس الشفاء فلا أجده: شفاء النفس والقلب ، وأحوجتنى الى الضلال أياما معدودة وما كان ينبغى لى لولاها ، ولكن غفر الله لها فقد علمت أنها تألمت كثيرا .. لقد كفرت عن سيئاتها ولاريب أنها قضت نحبها ، وقد اجتمعت بها بعــد موتها مرة واحدة اجتماعا لا شك فيه ورأيتها فى الرؤى مرات عدة واننى أشعر بها الآن (١٩ مارس سنة ١٩٤٧) بجانبى ولأجلها وقفت اليوم والليلة على احياء ذكــراها عافيا صــافحا مصافحا سامحا متسامحا» !!

مؤتمر بروكسل
سنة ١٩١٠

ولنعد الى حديث المؤتمر ، فقد وصل لطفى جمعه الى باريس ثم قصد الى « فاميلى هاوس » مقر لجنة المؤتمر وكان أول من لقى ـ كما يقول ـ امرأة زرقاء صفراء هزيلة اسمها الآنسة دى روشبرون وكانت قد كاتبته منذ سنة تطلب منه مقالة فى مجلة تزمع اصدارها نجدة للمسألة المصرية .. وكانت هذه المرأة تعمل كاتمة أسرار لجنة المؤتمر الوطنى الثانى فى باريس وقد عينها محمد فريد فى هذه الوظيفة بعد أن سعت للتعرف اليه .

يقول لطفى جمعه «قابلت هذه المرأة وحدها تدق على الآلة الكاتبة فى الغسق وكنت أظن سأقابل فريد بك والدكتور منصور رفعت والدكتور عثمان غالب باشا وحامد العلايلى فانقبض صدرى عندما رأيت وجه تلك البنت .. وأخذت تثرثر بلسان ذرب ونطق فسيح وعبارة بليغة .. فوعيت من أقوالها أنها تتكلم عن الزعيم الوطنى فريد بك . وتسألنى لماذا لم أحضر متاعى وأين نزلت وكيف أصنع لأحضر جلسات اللجنة وانا سكرتيرها وأنها سكرتيرة مساعدة لى . فقلت لها : يا آنسة .. !!

قالت : الآنسة عزيزة دى روشبرون فاننى فرنسوية نبيلة كما تعلم من تقديم لقبى بنسبة « دى » ولكننى مسلمة أسلمت

حديثـــا ٠٠ هداني الى الايمـــان فريد ٠ فلم أجب ٠٠٠ وهممت بالقيام وهبطت الدرج وأنا أشد ما أكون حزنا وحمدت الله على أنني أخـذت مسكنا بعيـدا عن هـذا المستقر الذى تحرسـه عزيزة» ٠

وأخذ لطفي جمعة يعد خطابه للمؤتمر وكان موضوعه « وجوب حياد مصر حيادا دوليا احتراما لقناة السويس» وانتهز فرصـة وجوده في باريس فتردد على المكتبة الوطنية ليتم بحثه ودراسته عن عهد الاحياء في ايطاليا ٠

ثم قصد الى فاميلي هاوس واجتمع بفريد بك وعشرات من البكوات والاعيان ومن بينهم الدكتور محجوب ثابت والاســتاذ حسين هيكل وحدث أن سأله أحد المجتمعين لماذا لاتعملون كمـا عمل حزب تركيا الفتاة ، فأجابه لطفي جمعة : « لانه ليس عندنا جيش ولا سلاح ولا أنور ولا نيازى ولا طلعت ٠٠ » ٠ وفي اليوم التالي قابل فؤاد حسيب وكان كاتبا بالفرنسية فانضم الى المصريين يكتب في الصحف الفرنسية ، ولقى المرحوم شفيق منصور وكان حديث العهد بالنجاة من قضية الورداني كما رأى عمدا ومشايخ وكثرة أخرى من المشبوهين والمندسين من رسل فيليبيدس وهارفي باشا ووزارة الداخلية ، فلما خاطب محمد فريد في أمر هؤلاء الجواسيس قال فريد بالخواني لاتظهروا علمكم بأمرهم فأولا نحن نسـتفيد من أموالهم التي يدفعونها بمثابة اشتراك وثانيا ليس عندنا أسرار يخشى عليهم وأننـــا لو أظهرنا اهتماما بهم لبلغوا أمانيهم عنـــد سادتهم وكادوا لنا كيدا ٠

وقـد حضر بعض الهنود المقيمين في باريس للمشاركة في المؤتمر تحت رياسة السيدة الفـاضلة مـدام كاما وكان يعيش في كنفها رهط من الوطنيين الهنـــود أمثال هارديال وشـاتوبا دايا

وأكبرهم سافاركار الذى فر من لندن عقب اغتيال السير كرزون وايلى رأس الجاسوسية الانجليزية على طلاب الهنود ، والذى قتله دنجرا الشهير وسجن الشيخ عبد العزيز جاويش بسبب تمجيده بمقال فى اللواء بعنوان «اليوم يعدم دنجرا» .

وقد اتهم الانجليز سافاركار بالتحريض كما اتهموا الوزير الهندوكى شيامدجى كريشنا فارما الذى كان يصدر جريدة « الاجتماعى الهندى » وكان يحمل فيها على الاستعمار البريطانى فى الهند حملات صادقة .

قسم لطفى جمعه وقته بين المؤتمر فى فاميلى هاوس وبين مجامع الهنود ، وكتب الى مستر بلنت خطابا فأجاب بمكتوب طويل لفريد بك بوصفه رئيس المؤتمر ومعه خطاب جليل باللغة الفرنسية واشترط أن يتولى لطفى جمعه تلاوة هذا الخطاب فى المؤتمر ـ وقد نشر هذا الخطاب بالعربية فى مصر مرارا .

واتصل لطفى جمعه بالصحافة وكافة الاوساط السياسية وحضر كيرهاردى زعيم حزب العمال ومؤسسه من انجلترا ليشارك فى أعمال المؤتمر .

ولكن حدث فى الاسبوع الأخير قبل الموعد المحدد لانعقادالمؤتمر وهو أيام ١٤ و ١٥ و ١٦ سبتمبر ـ وهى أيام الاحتلال البريطانى بعد موقعة التل الكبير ـ أن تفاقمت حوادث التجسس حول المصريين وظهر للأسف ـ كما يقول لطفى جمعه ـ أن عزيزة روشبرون فى مقدمة الجواسيس .

ففى ١٠ سبتمبر وصلته دعوة لمقابلة وزير الداخلية مستر بريان بقصر وزارة الداخلية فذهب معه محمد فريد وحامد العلايلى حيث قابلوا رئيس مكتب الوزير فمهد بالحديث بأن

انجلترا تنظر الى المؤتمر بعين السخط وان حكومة فرنسا متحالفة مع بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ فأجابوه وردوا عليه حججه فقال : «ان خلاص المسألة فى يد موسيوبريان» ودعاهم الى مقابلته ؛ ولما استقر بهم المجلس قال الوزير للطفى جمعه : «أنت طالب بكلية الحقوق فى ليون وتعلم أن القانون لا يبيح لك الاشتغال بالسياسة » فقال له «نعم ! ولكنى لا أشتغل بسياسة فرنسا ولكن بسياسة وطنى وفرنسا وطن ثان لكل ضيف وهى أم الحرية وحقوق الانسان » • وتكلم فريد بك بعبارة بليغة •

فقال بريان : «لأجل هذه الأسباب كلها أنصح لكم أن تعقدوا مؤتمركم خارج فرنسا وليكن فى سويسرا أو فى امارة لكسمبورج لاننا لانود أن نصدر أمرا بطردكم من فرنسا !! واذا صدر هذا الامر تحرمون من الدخول وتقعون تحت مراقبة الشرطة السرية» •

فقال له لطفى جمعه : « أن فرنسا لا تفعل هذا لاننا دعونا عشرات من أعضاء البرلمان الفرنسى والراشيتاج الالمانى والبرلمان الانجليزى وهؤلاء اذا صدر قرار سيقدمون استجوابات بشأنه على أننا مسالمون ولا يزيد عملنا فى المؤتمر عن الخطابة والكتابة فى حدود القانون » •

فاعتدل الرجل وقال «على الرغم من هذا فاننى لا أريد أن اصدر قرارا بطردكم ولا أريد أن يعقد مؤتمركم عندنا وأنصح لكم بمغادرة البلاد بطريق المودة » •

فأشار محمد فريد الى لطفى جمعه اشارة فهم منها انه

لا فائدة من مناقشة هذا الرجل ونهض ونهض بريان للتوديع فقال له لطفى جمعه مبتسما :

ـ لم أكن أظن ياسيدى الوزير الاكبر ورئيس المجلس أن كلمة دولة كائنة من كانت تكون هى العليا فى باريس . فقال الرجل : «ماذا تريد أن تقول ؟ ! فقال فريد بك «أنت ونحن رجال قانون ونعد أفراد أسرة واحدة وأنا أؤكد لكم اننا رأينا جواسيس من دولة أجنبية يحيطون بنا ويتتبعون خطواتنا فى كل مكان » ، فابتسم بريان ابتسامة صفراء وقال « ان الأوهام يا سيدى تجعلكم ترون الانجليز فى كل مكان» .

وقد سجل بلنت فى يومياته ص ٣٣٢ يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩١١ أن لطفى جمعه كتب اليه بما حدث فى شأن منع الحكومة الفرنسية عقد المؤتمر فى باريس .

واجتمع لطفى جمعه بلجنة الاعداد للمؤتمر وتباحثوا وتناقشوا واستعرضوا كل الممكنات والمستحيلات والمدن والدول التى يستطيعون الالتجاء اليها قبل أن يذاع الامر ، واقترح بعضهم اسم «بروكسل» وكان فيها حينذاك معرض دولى ، فوافق الجميع على اختيارها وسافر أحمد وفيق الى بروكسل ليهيىء مكانا وجوا صالحا للاجتماع ، وقد وفق فى اتخاذ مكان فسيح بديع فى قلب العاصمة البلجيكية وحجز ثلاثة طوابق من فندق كبير . يقول لطفى جمعه ـ «لقد أراد الله أن يعقد المؤتمر الوطنى المصرى الثانى فى نفس موعده الذى كان محددا لانعقاده فى باريس وقد حضر اليه كل المدعوين والأعوان والأنصار وقد أبلغناهم الدعوة فى وقتها المناسب وعددنا هذا العمل نصرا من الله ..»

ويوجد كتاب ضخم مطبوع باللغة الفرنسية فيه أخبار هذا المؤتمر» (١) .

وأذكر فى هذه المناسبة أن المستشرق الأمريكى آرثر جولد شميت قد وضع رسالة دكتوراه سنة ١٩٦٤ قدمها الى جامعة هارفارد عن «الحزب الوطنى تحت رئاسة محمد فريد من سنة ١٩٠٨ ـ ١٩١٩» تحدث فيها عن دور محمد لطفى جمعه فى الحزب الوطنى خلال تلك الفترة بالنسبة لما كان له من علاقات شخصية بكثير من الشخصيات المصرية والاوروبية ، وقد أمددناه بكثير من المعلومات مما دونه لطفى جمعه فى مذكراته عن تلك الفترة .

نعود فنقول ان لطفى جمعه أتم دراساته القانونية بعد أن قدم رسالته فى «دستور المدينة» فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام وكان تحديد موضوع هذه الرسالة بموافقة الاستاذ أدوارد لامبير (٢) .

وفى سنة ١٩١٢ عاد الى أرض الوطن .

وهكذا بدات مرحلة جديدة من مراحل الحياة والكفاح .

---

(١) نشرت مجلة الطليعة الترجمة الكاملة لجلسات مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠ فى أعدادها ابريل ومايو ويونيو سنة ١٩٦٩ كما نشرت المجلة فى عددها الصادر فى مايو سنة ١٩٦٩ ماجاء بمذكرات لطفى جمعة عن الظروف التى لابست انعقاد ذلك المؤتمر ومطاردة السلطات البريطانية له (العدد الخامس مايو سنة ١٩٦٩ ص ١٤٦ ـ ص ١٤٩) .

(٢) اورد لطفى جمعة دراسته عن دستور المدينة فى كتابه « ثورة الاسلام وبطل الأنبياء » طبعة سنة ١٩٥٨ ، ص ٧٠٢ ـ ص ٧٢٠ .

لطفي جمعة .. والمحاماه

عندما كان لطفى جمعة فى باريس سنة ١٩١٠ مع أصدقائه ورفاقه من رجال الحركة الوطنية جرى بينه وبين المرحوم أحمد لطفى أول حديث عن المحاماة اذ سأله : « كيف تكون حالى اذا عدت الى مصر لأشتغل بالمحاماة ، فقال له : « هذا من أبسط الأمور ، فما عليك لدى عودتك الا أن تقابلنى فأرشدك الى امتحان المعادلة وبعد أن تجتاز هذا الامتحان بكل بساطة وسهولة تعمل معى فى مكتبى مع أخى وهو يعرفك جيدا ويحبك » فشكره لطفى جمعة وآمن بقوله واعتقد أن هذا الأمر من السهولة والبساطة بحيث وضعه .

كذلك وعده فحول المحاماة حينذاك أمثال الهلباوى وأبى شادى فى جنيف وباريس وبروكسل وليون كما وعده أحمد عبد اللطيف ومحمود أبو النصر ومحمد عبد الوهاب فى باريس وروما بأن يسهلوا له الخطوات الاولى فى المحاماة .

وعندما عاد من فرنسا بعد أن حصل على اجازة الحقوق فى العلوم القانونية من جامعة ليون ، كان لابد من اجتياز امتحان المعادلة .

ويحدثنا عن دراسته لدخول هذا الامتحان فيقول « لما عدت عرضت لى ضرورة الاستماع الى عالم ثقة فى المواريث ولم يكن بينى

وبين امتحان المعادلة سوى عشرة أيام ، فدلني أهل الفضل على الشيخ محمد زيد الابياني وكنت أقرأ كتبه وآراءه فقصدت اليه فى داره صباح يوم جمعـة فى يونية والحر شـديد والنفس ضائقة والقلب بين الرجاء وضده فاستقبلني فى المنظرة فى بيتـه بجوار السيدة صفية ورحب بى وأكرمني ثم قال بصوت أجش رنان : خير يا محمد أفندى فقلت له : أحمل اليك تحية الأسـتاذ ادوارد لامبير وثناءه وقوله انه لا ينساك • وكان لامبير قد عرف الشيخ الابياني أثنـاء نظارته على مدرسة الحقوق عام ١٩٠٦ وعرف قدره وأحبه فقال لى : أكتب له بتشكره عنى ثم قلت : يا سيدنا الشيخ قصدت اليك لمراجعة المواريث فقال : مرحبا بك • ثم صفق بيديه وطلب ورقا وقلما وأملى على أحدى مسائل المواريث فلم ادر جوابها فنظر الى وقال : « ان شـاء الله فى العام المقبل يا محمد أفندى اذا كنت لا تجيب على هذه المسـألة فلا أمل لك فى النجاح هذا العام » • فأسقط فى يدى وقلت له : «ان تعطيل عام يعود على بخسارة كبرى فأرجوك أن تلقى على درسـك ولا تبعة لك فقال : ضميرى لا يهاودنى لأننى اما أضمن نجاح تلميذى والا فلا اضيع وقتى ووقته قلت لـه : ستجدنى ان شاء الله مجتهدا وقبل بعد جدل طويل وبدأنا وقد بهرتنى طريقته التى يحسـده عليها أقدر أساتذة أوربا •• » • وفى ينـاير سنة ١٩١٢ تقيد اسم محمد لطفى جمعة فى جدول المحامين فتقيد جسمه وفكره وعقله وقلبه كما يقول بحبال من مسد أتقنت جدلها وأجادت حبكها صنعـة المحاماة •

وكان فى الفترة بين تقديم الطلب وقيد الاسم يتردد للسؤال عن النتيجة على سكرتير محكمة الاستئناف فيلقاه رزق ميخائيل الذى كان قاضيا بالمحاكم الاهلية وكان يسأله لماذا لا تقبل وظيفـة فى الحكومة ؟

فكان يجاوبه أجوبة سطحية ولكنه ـ كما يقول فى مذكراته ـ يضمر فى نفسه العجب من هذه الاسئلة ويردد فى أعماق قلبـــه كيف يعرض على العمل فى الحكومة وأنا خارج من مؤتمرات سياسية أعمالها انتقاد لأعمال الحكومة والمطالبة بحقوق الأمة ؟ كيف آكون فى طليعة المشتغلين بالحركة الوطنية منذ تنبهت للحياة وأعود اليوم بمجرد حصولى على اجازة الحقوق أطلب وظيفة فى النيابة والقضاء ؟ » ٠

ولكن رزق ميخائيل أخذ يلمح له بأن الجهات المسئولة ترحب به وأنها تضرب صفحا عن الماضى وتود الانتفاع به فى خدمة القانون والعدالة ، وأشار عليه بمقابلة المرحوم عبد الخالق ثروت الذى كان حينذاك نائبا عاما للعمل على تعجيل طلب القيد بجدول المحامين ،فلما لقيه لطفى جمعة فاتحه ثروت فى أمر الوظيفة ووعده بمرتب حســـن وبالعمل فى القاهرة وفى مكتبه فطلب منه امهاله بضعة أيام للتفكير وخرج من عنده مصمما على رفض الوظيفة ولكنه خشى ان هو رفض الوظيفة أن يتعطل قيد اسمه خاصة وقد ذكر له رزق ميخائيـــل أن لجنة قبول قيد المحامين لا ميعاد لها ولا ضابط لقراراتها ، ومع ذلك فقد صمم على الرفض وفاتح ثروت باشا بذلك ٠

وعلم رزق ميخائيل بما حدث فأخذ يغريه ويلح عليه فىقبول الوظيفة فأجابه بالصراحة التامة قائلا له :قد أكون مرغوبا فى لما يظن بى من الكفاءة وأنا أنكرها ولو فرضنا أننى ذو كفـــاءة فلماذا لا تكون فى صف الشعب ، ان فى الحكومة كثيرين من أصدقائى ورفقاء شبابى القادرين العلماء ، ولابد من حدوث التوازن بين القوتين فيكون للحكومة رجالها وللشعب رجاله » ٠ فلما يئس رزق مما اعتبره نصحا يمليه الاخلاص وحب الخير حاول تحويل عزمه عن القاهرة وقال له ان فى المدن الكبرى مثل طنطا وأسيوط مجالا عظيمـــا

لمثلك ويمكنك أن تقيم هنـــاك حتى يشـــتد عودك وتنمو فوتك وتملك الوقوف على قدميك وأقصد بذلك حتى تجمع ثروة حسنة ولكن لطفى جمعة ذكر لمحدثه الوسط العلمى والوسط العقـلى والاتصـال بالأدباء ووجود فطاحل المحامين فى القاهرة ، فلمـا سمع رزق ميخائيل هذا أيقن أنه لا فائدة من مشورته .

يقول لطفى جمعة « لقد كنت تملا بخمر البذل والتضحية فى سبيل المنفعة العامة .. التضحية بالمنصب والمال وأقول لنفسى اذا كان كل من أرى من العلماء والفضلاء فى صف الحكومة فمن يكون للضـعفاء يدفع عنهم غوائل الحوادث ويرد عنهم كيد الزمان وأية وسيلة أقرب وأفضل من المحاماة ، ففى حظيرة هذه الصنعة الكريمة الشريفة يمكن أن أكتب وأخطب وادعو للخير والحق والحرية وأخدم العـاجز واليتيم والأرامل والفقيرات ، وهـذا الجانب البراق واللماع الذى يخلب اللب ويخطف الابصار هو الذى استهوانى وجـذبنى واستمالنى ولم يكن لذلاقة اللسان أو حضور البديهة أو سعة العلم والاطلاع والاستعداد الفطرى لممارسة هذه الصنعة أقل أثر فى اقناعى لأننى خلو من تلك الصفات ولأن الرجل فى وقت التصميم على أكبر الأعمال لا ينظر الى صفاته أو مواهبه وما يليق به وما لا يليق وانمـا يطيع العاطفة طاعة عشواء ، وماذا كانت عاطفتى منذ دخلت مدرسـة الحقوق فى خريف سنة ١٩٠٧ الى أن تقيد اسمى فى جدول المحامين فى سنة ١٩١٢ ؟ كانت الخدمة العامة رائدى ومرشدى وغايتى التى أرمى اليها .. ولا أنسى حديث المرحوم مصطفى كامل باشا فى ادارة جريدة اللواء اذ كنت أقدم له نسخة من كتاب « تحرير مصر » فى جمع حاشد من الباشوات وذلك فى ربيع سنة ١٩٠٦ قال لى بعد أن هنأنى ووعدنى بقراءة الكتاب وتقريظه فى اللواء « اياك والاشتغال بالسياسة دون أن يكون لك عمل ثابت ومورد رزق معروف فانهم فى مصر يصمون الخادم العام المتفرغ لمصلحة الوطن بالنصب والاحتيال كما يفعل الآن

الشيخ على يوسف ضدى ولو أننى اشتغلت بالمحاماة ولم أنقطع لخدمة الوطن عن طريق السياسة كنت ربحت أموالا وفيرة واحتفظت بصحتى وضمنت السعادة لأهلى وأسرتى ولكننى فضلت المصلحة العامة على المنافع فكانت النتيجة ما ترى ؟ هذا ما قاله له المرحوم مصطفى كامل قبل وفاته بسنتين ٠

وفى ٤ مايو سنة ١٩١٥ قبل لطفى جمعة للمرافعة أمام محكمة الاستئناف العليا كما قيد اسمه بجدول المحامين المقبولين أمام محكمة النقض فى مارس سنة ١٩٣٥ ٠

بدأ لطفى جمعه حياته فى المحاماة بالتمرين ـ وكان عليه أن يتقدم الى محامين من مشاهير الطائفة ليقضى فترة التدريب فى مكتب أحدهم وقد كانوا كلهم أصدقاءه وقد وعدوه فى أوربا ومصر أن يتعهدوا خطواته الأولى فى هذه المهنة ، وكانت خاتمة المطاف عند المرحوم حسن صبرى الذى لقيه هاشا باشا الى أن عرف غايته من زيارته فلما رفض طلبه قال له وهو يودعه « يؤلمنى أن تنصرف دون أن تعرف حقيقة الدافع لى على الاعتذار وانى مصارحك لعلمى بأنك لا تبتئس ولأريح ضميرى وضميرك ٠٠ أعلم أن رجلا مثلك لا يقبل على معاونته كبار المحامين لأسباب أولها أنك مشهور شهرة سياسية قد تحرج موقف بعضنا ممن لا يألفون سياسة الحزب الوطنى وثانيهما انك قد يدفعك حب العمل الكثير فتستدرج عملاءنا فيرغبون فيك كعادتهم فى التعلق بكل جديد » ٠٠ فخرج لطفى جمعة من مكتب حسن صبرى ضيق الصدر مرتاح الضمير كما يقول وأخذ سمته الى رجل سورى وكلمه فى الأمر فدله على مكتب المرحوم اسكندر عمون ٠

وقد كتب لطفى جمعة فى مذكراته عن تلك الفترة يقول «كانت

السنة الأولى فى المحاماة فى أكناف اسكندر عمون بك من أسعد أعوام الحياة ، فقد رجانى حافظ رمضان باشا برابطة الحزبيـــة أن أباشر قضاياه أمام محكمة الجنايات لأنه ظن بى خيرا فعملت له بدون مقابل لأكسب الخبرة ولاقيس قوتى فى محكمة عليـا كانت نفسى تتوق اليها من زمن طويل وقد حصلت على أحكام كثيرة بالبراءة ولم أحصل على دانق وكان يلذ لى أن أدرس القضايا وأحسن الدفاع فيها وأنفق من مالى ووقتى لأفوز بانتصار » .

« كانت هذه السنة الاولى سعيدة حقا فقد تقدمت الى المحكمة المختلطة فى قضايا كثيرة وكان بعض قضاتها ولا سيما المسيو نيوهام الدنمركى أعدل قاض وأعطف رجل على الفلاحين المصريين ورأيته بعينى يحطم رءوس المرابين من اليونان الذين امتصوا معظم دماء هـــذه الأمة ، أى حطم رءوس أموالهم وكسر شوكتهم ودمغهم بأحكـــام عادلة بلغت أسباب بعضها سبعين صفحة .. » ثم يروى حوارا سمعه بين هذا القاضى وبين أحد المرابين اليونانيين وهو يدافع عن نفسه بانه لا يسرق هذا الفلاح الفقير ويجادل بحجة أنه يمتلك مائة الف جنيه فيرد عليه الموسيو نيوهلم قائلا « لقد جمعت هـذه الثروة من مجهود هذا الرجل وأمثاله وهذه وقائع القضية تثبت ذلك » .

وبعد أن أمضى لطفى جمعة فترة التمرين اتخذ لنفسه مكتبا بشارع محمد على رقم ١٥٢ بوقف السيد محمد شريف باشا الكبير، وقد ظل بهذا المكتب الى أن تركه فى مارس سنة ١٩٣٨ ولم يتخذ بعد ذلك مكتبا وان ظل يزاول مهنة المحاماة حتى طلب احالته الى المعاش فى مارس سنة ١٩٤٨ بعد أن بلغ الثانية والستين من عمره وبعد أن قضى ٣٦ عاما فى المحاماة بذل فيها جهودا رجا أن تكون مقبولة عند الله سبحانه وتعالى وموضع رضا كل من اتصل بهم من زملائه كما جاء فى خطابه الى نقيب المحامين بطلب احالته الى المعاش.

والواقع ان لطفى جمعه لم يبغض شيئا كبغضه الوظيفة وقيودها ولم يحب شيئا كحبه صناعة المحاماة ٠

وبهذه المناسبة أذكر أنه حدث أن عرض عليه المرحوم أحمد باشا ماهر سنة ١٩٤٤ وظيفة مدير مكتب الصحافة بمجلس الوزراء فقابله بمكتبه وقال له : « انني لم أجيء لأجل وظيفة أو مرتب بل جئت لأنك طلبت منى مساعدة ونويت أن أرفض أى مرتب بل أعمل متطوعا المدة التى تريدها بشرط ترشيحى للانتخابات بمجلس النواب عن دائرة مصر الجديدة » — وأعاد نفس الحديث على المرحوم محمود فهمى النقراشى كما أعرب عن ذلك لابراهيم عبد الهادى ، وعندما استبانت حقيقة الموقف وعدم الرغبة فى ترشيحه عن دائرة مصر الجديدة وظهرت له المراوغة والمماطلة بادر الى تقديم استقالته ، وهكذا لم يمكث بهذه الوظيفة التى كان يسميها « محنة مكتب الصحافة » سوى أيام معدودات ٠ وكتب الى أحمد ماهر خطابا بتاريخ ١٩٤٦/١١/٤ جاء فيه « اتشرف بالاستفهام المتواضع عن سبب اقصائى عن أمنيتى وهى استمرار خدمة وطنى عن طريق البرلمان وقد خدمت وطنى من سنة ١٩٠٥ أى منذ أربعين عاما ولم ألتمس نفعا لشخصى ولا مطلبا ماديا طوال هذه الأعوام وعملت بقلمى ولسانى وقلبى فى قضية الوطن معك ومن سنة ١٩٣٨ الى وقت مجيئك الى الحكم وجدير بقلبك الكريم وعقلك السامى وخلقك الممتاز أن تنبهنى الى عيوبى التى أدت الى القضاء على غايتى وتتويج حياتى لأصلحها وأعدلها وأختم عمرى ختاما حسنا ٠٠ لقد لبيت دعوتك ونزلت حومة ذلك الميدان الغريب عن فطرتى وطبعى واستعدادى نزولا على ارادتك ولم ألبث أن باشرت العمل فى ذلك المنصب حتى أحسست أن روحى تتألم وقلبى يتأثر وكرامتى تنهار وخاطرى ينكسر ، كرامة العلم والأدب والماضى الحافل بالجهاد والطلب وخدمة الوطن والدين ونصرة الحق وتلك العزة التى جعلها الله

لذاته ولنبيه والمؤمنين التى مافتئت أدافع عنها وانافح فى سبيلها وأتألم للاحتفاظ بها وهى جزء من دينى وشطر من يقينى وبضعة من كيانى وغذاء ونور وأمان وثراء اذا عز الغذاء أو ضعف النور أو تزعزع الأمان وقل الثراء ، بل صوت أسمعه يؤنسنى ويشد أزرى وقد صحبت هذه العزة كالروح الأمين منذ وعيت وأدركت حقائق الأشياء وليس بالهين على أن أتنحى أو أتخلى وان الردة أسهل من التفريط فى الكرامة .. فهل تعلمت وقرأت وسهرت وكتبت وخطبت وتألمت وأملت عبثا ولهوا طوال أربعين عاما أو قطعت هذه المراحل الجليلة النبيلة لترمى بى الأحداث على كاهل صخرة جرداء مجدبة ؟ .

وهل قضيت السنين قابضا بيدى على جذوة من جمر لأرسب فى النهاية رسوب الحجر فى سقر ! حاش لله ومعاذ الله وأستغفر الله وأتوب اليه » .

يقول لطفى جمعة « كيف أترك المحاماة وهى أم رءوم أعاننى الله عليها وجعلها رزقا لى ومرتعا ومظهرا لمواهبى أكثر من ثلاثين عاما لأنزوى وأنطوى فى أحد أركان بؤرة وأترك الحياة الحرة والاتصال بذوى العقول والفصاحة والقضاة والمحامين الذين يعتبروننى رئيسا لهم جميعا ؟ أين المودة والرحمة والود والوفاء وقد قضيت حياتى أنادى بالحرية والحق والاعتماد على الله سبحانه وتعالى دون سواه فالجأ فى هذه السن الى هذا .. معاذ الله تبت الى الله وعزمت ألا أعود والحمد لله من قبل ومن بعد » .

وهكذا عاد لطفى جمعه الى أحضان المحاماة التى أحبها من كل جوارحه وأخلص لها الاخلاص كله ووهبها من جهده وعرقه وفنه وفصاحة لسانه وحضور بديهته وسرعة خاطره وسعة علمه واطلاعه وقوة حجته ورباطة جأشه الشىء الكثير !

لقد كتب لطفى جمعه مقالات كثيرة عن المحاماه كعلم وصناعة وفن ، من ذلك ما كتبه بجريدة الاهرام فى يناير سنة ١٩٢٥ عن المحاماة تحدث فيه عن حقيقة هذه المهنة وقدرها وكرامتها وجمالها وجلالها وآلامها ومسئولياتها وعذوبتها ومرارتها وعزها وهمها ، وبالجملة كل ما له مساس بها من حيث علاقة صاحبها أو أسيرها بالله وضميره أولا ، وبالقضاة والقانون ثانيا ثم برفاقه وجمهور المتقاضين والموكلين أخيرا .

كما كتب تحت عنوان «لعل وعسى» بجريدة البلاغ عن ضرورة استثناء المحامي من نص المادة التى تعاقب على اهانة المحكمة بحيث لايحكم عليه بأية عقوبة لانه جزء من المحكمة ويتمتع فى المحاكم الاوربية بحصانة كبيرة .

كما كتب فى جريدة البلاغ فى ١٩٣٠/٣/٢٨ يقترح الغاء عقوبة الاعدام وتناول فى جريدة المقطم فى ١٩٣٧/٩/٢٤ تحت عنوان «ثقافة المحامى وعلاقتها بصنعته» مايجب عليه أن تكون ثقافة المحامى من سعة اطلاع على كل ما له مساس بصنعته وبغيرها من الصناعات خصوصا فى هذا العصر الجديد ومن ذلك اهتمامه بعلم النفس الحديث وماتفرع عليه من الدراسات فى الدوافع الهووية والعاطفية ومنها المامه بالطب الشرعى بما له من الأهمية فى القضايا الجنائية واطلاعه على تاريخ الشرائع الحديثة ، وكذلك قراءة المجلات القانونية التى فيها شرح القضايا الشهيرة ومجاميع مرافعات أكابر المحامين الأموات منهم والاحياء .

وفى سنة ١٩٢٣ أثار لطفى جمعه فى جريدة الاهرام ضجة حول ضرورة ادخال نظام المحلفين فى المحاكم المصرية وكذلك الاخذ بنظام تخصص القضاة بحيث يخصص للقضاء الجنائى رجال ينتخبون من بين أعضاء النيابة المشهود لهم بالكفاءة ويخصص

للقضاء المدنى رجال يختارون من خيرة المحامين ذوى الخبرة الواسعة .

ولكن هذه الأمنية لم تتحقق الا بعد ثمان واربعين سنة عندما نص دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ على الاخذ بنظام مشاركة الشعب فى القضاء .

وقد ترافع لطفى جمعه فى أهم وأخطر القضايا السياسية التى شغلت الاذهان فى النصف الاول من هذا القرن مثل قضية السردار السير لى ستاك سنة ١٩٢٥ وقضية القنابل سنة ١٩٣٢ وقضية مقتل امين عثمان سنة ١٩٤٦ وهى من اهم قضاياالإغتيال السياسى التى عمت موجته البلاد تعبيراً عن السخط والغضب الذى كان يعتمل فى النفوس حينذاك على المستعمرين وأذنابهم وعملائهم .

والواقع من الأمر ان لطفى جمعه كان يجد فى هذه القضايا السياسية متنفسا يعبر من مرافعاته فيها عما كان يعتلج فى نفسه من سخط على المحتلين وأذنابهم وما إقترفوا فى حق هذا الشعب من مظالم واستبداد ، كتب فى مذكراته يقول :

«القضايا السياسية الكبرى التى باشرتها ، الاولى سنة ١٩٢٥ وهى قضيه مقتل السردار والثانية هى قضية القنابل سنة ١٩٣٢ وهى أكبر قضية سياسية فى مصر والثالثة قضية الجمعية السرية التى قتل فيها أمين عثمان باشا وضرب بالرصاص بضعة جنود انجليز ، وفى الأولى أعدم رعيل من شبان مصر أمثال شفيق منصور ومحمود اسماعيل وعبد الحميد عنايت وجماعة من العمال الذين اشتغلوا بالسياسة ، وفى الثانية سجن نجيب اسكندر وعشرة من الطلاب مكننى الله من براءة تسعة منهم وكان بطلها

ابراهيم الفلاح ... وفى الثالثة حوكم ستة وعشرون طالبا من أنجب الشبان وأحسن العائلات .. » .

وقد سجل نطفى جمعه أحد مواقفه فى قضية اغتيال أمين عثمان سنة ١٩٤٦ فكتب فى ١٦ ابريل سنة ١٩٤٧ يقول :

«بكرت الى المحكمة وأنا عالم سلفا أن القضية ستؤجل ، ولكننى تعودت وجود المفاجآت فى المحاكمات السياسية .. وتسللت الى الجلسة فقابلت الكاتب وطلبت منه نسخة من تقرير الطبيب المختص بالأمراض العقلية مصطفى الخولى فأحضره لى وبعد أن انتهيت من قراءة التقرير حضر المتهمون ورفضوا دخول القفص وقد جعل المختصون الاسلاك بارتفاع ٤٠ سم من أعواد القفص بحيث لا يمكن لمن بداخله أن يروا الوجوه بوضوح ولا يراهم أحد كذلك ولا يمكن الاتصال بهم بالأيدى، وهذا لون من ألوان الاضطهاد مع أن المتهم بالقتل واحد ، ثم أن نصف المتهمين مفرج عنهم ، فدنوت منهم وسمعتهم يقولون نحن لانصعد أبدا الى هذا القفص، فقصدت الى رئيس قوة البوليس وهو بكباشى وقلت له : احذرك يا حضرة الضابط من استعمال القوة لارغام هؤلاء الشبان على دخول القفص فقال لى : صدرت أوامر بذلك ولكنى لا أفعل .. ووكلنى الشبان فى أن أقابل رئيس المحكمة وأعرض عليه ظلامتهم فقبلت واستوقفنى الضابط العظيم وقال لى : هل عندك نسخة من كتاب ليالى الروح الحائر فقد قرأته وأنا فى التعليم الثانوى وأنا الآن فى الخامسة والخمسين من عمرى ولم أنسه . فقلت له باسما : ولكنه لم يمنعك من خدمة البوليس فقال لى : العيش ياأستاذ .. أنا ثائر ولكنى خاضع ! .. ودخلت على المحكمة فأحسن المستشارون استقبالى وقلت للرئيس : جئت اليك لأرجوك فى كيت وكيت فقال لى : القانون ! فقلت له وأنا ابتسم : ولكن لا تنس أن هؤلاء الشباب هم أول من نادى بوحدة وادى النيل

التى صارت شعار الأمة وموضوع قضيتها أمام الامم المتحدة ، ثم ان الجلاء قد تم فى آخر الشهر الماضى أليس لهم اكرام ورحمة ؟ فقال لى رئيس المحكمة : هذا موقفنا مع احترامنا لك فشكرته وانسحبت وعدت الى أولادى ولم أكد أصل حتى جاءنى رسول من قبل رئيس المحكمة وكدت أرفض العودة اليه ولكن ظننت أن هناك خيرا لهم فذهبت فقال لى : أنت لم تشرب قهوة فاجلس معنا واشرب قهوة . فجلست فقال لى : اكراما لخاطرك أنه عندما يريد أى واحد منهم أن يتكلم نحضره أمامنا فى حرم المحكمة ويقول مايشاء (أى بينما يكتوى بقية اخوانه بنار القفص) فلزمت الصمت وقلت له : أشكرك على القهوة ولكن الاطباء نهونى عنها .

وهكذا عدت الى الجلسة ، فقرر المستشار أن ينظر القضية فى غرفة المداولة فى غيبة الاولاد ليقرر التأجيل .. أى أنهم سوف يقضون رمضان والاعياد فى السجن مرة جديدة !! » .

وتشاء ارادة الله عز وجل أن يكون من بين هؤلاء الذين نقل لطفى جمعه رغبتهم لرئيس المحكمة فى عدم الدخول الى القفص السيد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية !

* * *

عرف لطفى جمعه فى مرافعاته التى كان الناس يهرعون الى سماعها بفصاحة لسانه ووضوح الفكرة وحضور البديهة وسرعة الخاطر وذكاء النكتة . وقد ذكرت جريدة الاهرام عن مرافعته فى قضية مقتل السردار أنه كان «يتخللها نكات كثيرة أضحكت الحاضرين حتى المتهمين جميعا فى قفصهم » ! كما كتب محمود عزمى فى جريدة السياسة فى ١٩٢٥/٥/٣١ تعليقا على هذه المرافعة يقول « أنا أعتزم قصر ملاحظاتي اليوم على واحد من المحامين فقط

هو الاستاذ لطفى جمعه لكننى مقتنع أن المحامين يعذروننى وقد حضروا الجلسة كلها كما حضرت واستمعوا الى مرافعــة الأســتاذ كما استمعت وأرجو أن يكونوا قد حكموا كما حكمت ان ماتخللها من العبارات اللطيفة والنكات الطريفة تصطحبها تلك الاشـــارات اللطيفة .. لايمكن أن يسجل الا قائما بذاته ولايمكن الا أن يفـرد له يوم من أيام ملاحظاتنا ..

كان الاستاذ لطفى جمعه كثير الاستعارات والتشبيهات فى مرافعته ، لكنه كان دائما رشيق التعبير وحدث أن وصف المتهم الذى يدافع عنه بأنه كان كشافا يحمل طبلا ونفيرا ويمسك نبوتا ويلبس بنطلونا قصيرا على الرغم من أنه سنى ملتح بدل أن يترك الكشافة لابنه ، فلفت أحد المحامين نظره الى أن الامير الجليل عمر طوسون هو كشاف مصر الأعظم ، فتلقاها الاستاذ لطفى وهى طائرة وقالها للمحكمة مضيفا ان الناس على دين ملوكهم فأراد على محمـد ابراهيم (وهو المتهم) أن يتمثل ويتشــبه وأن يكون كشـــافا أصغر !! » .

والواقع أن النكتة والفكاهة عند لطفى جمعه لم تكن مقصودة لذاتها بقدر الهدف الذى يرمى اليه من ورائها فقد كان ــ كمـا يقول (١) ــ يحبها ولو فى مجلس القضاء المعتم لانها دواء الخمول والجمود وضياء الظلام المخيم على الخــواطر والأفئدة فتشحذ الكليل وتنعش العليل وتبعث الوسنان وتيقظ الهاجع ولا يأباها الا البليد والأحمق ولايغضب منها الا المغرور وضيق الصدر .

يقول الاستاذ حبيب جاماتى فى مقــال عن «محمد لطفى جمعــه

---

(١) تراجم مصرية ، مخطوط ، فى ترجمة القاضى محمد خالد باشات أحد البارعين فى النكتة .

المفكر الساخر الذى فقدته مصر» منشور بمجلة الاثنين فى ١٩٥٣/٦/٢١ :

«كان رحمه الله مرحا قلما رآه اصدقاؤه مقطب الجبين عابسا بل كان يبتسم دائما او يضحك فى أشد المواقف حرجا لانه كان ينظر الى الدنيا والى الحياة بتلك الروح الساخرة كأنه يمثل دورا فى مهزلة بشرية لاتستحق أن ينغص الانسان نفسه من أجلها ولهذا لم يفارقه ذلك المرح الساخر أو تلك السخرية المرحة لا فى أعماله ولا فى أقواله ولا فى كتاباته .. والسخرية المرحة ظاهرة واضحة فى جميع مادونه لطفى جمعه فى الكتب والصحف فضلا عن أحاديثه ومرافعاته التى كان الناس يهرعون اليها» .

ونذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ عبد المنعم خفاجي كتب في كتابه « قصة الأدب المعاصر » عن لطفي جمعه يقول « لقد كان من أذكى المصريين وأفصحهم لسانا ، وأقدرهم حجة وأكثرهم صراحة وكان خطيبا لا يبارى الى حد أن أحد المستشرقين سمعه يخطب فى حفل فقال لمن حوله :ان هذا الرجل لا يختلف فى شىء عن أبلغ بلغاء الماضى فى فصاحة لسانه وبلاغته » ٠

والواقع أن لطفى جمعه كان من الخطباء القلائل الذين اذا سمعهم الشخص شعر بصدقه وحماسته وأخذ ببلاغة أسلوبه وفصاحة لسانه وأعجب بقوة عارضته والقدرة على الابانة والتعبير باخلاص عن أفكاره بحيث يشعر الانسان أنه يستفيد في كل لحظة ويضيف الى ذهنه معرفة جديدة صادقة ٠ وقد كتبت جريدة البلاغ فى عددها الصادر فى ١٩٥٣/٦/٢٩ تقول « لم يكن لطفى جمعة يترك ميدانا من ميادين النشاط السياسى والاجتماعى دون أن تكون له فيه جولات ولم يكن يترك مجتمعا دون أن يخطب فيه أو يحاضر وقد واصل هذا النشاط طوال حياته تقريبا ولم يكف عنه

الا فى الساعة الأخيرة ، فقد استمر يدافع ويكتب ويخطب ويحاضر أكثر من خمس وأربعين سـنة دون أن يمل ويمل جمهـور قرائه ومستمعيه ، يساعده على هذا التجاوب بينه وبينهم قلم سيال وأسلوب سهل فياض وروح مرحة »· وقد خطب لطفى جمعة وحاضر فى مختلف الأمور من سياسة وأدب واجتماع فى الاذاعة المصرية وقاعة يورت التذكارية بالجامعة الامريكية وجمعية الشبان المسيحيين وفي قبة الغورى وجمعية الشبان المسلمين وفى مختلف الاجتماعات والاحتفالات الاجتماعية الأخرى ·

وينبغي ألا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر مجلة « سجل أشهر القضايا » التى كان يصـدرها لطفى جمعه سـنة ١٩٣٤ وكانت تتضمن أشهر القضايا الجنائية والسـياسية والعاطفية ـ كقضية «مولاى مصطفى» وقضية « دريفوس » الشهيرة وكيف كان اتهامه والحكم عليه وتعذيبه ثم ظهور براءته وغير ذلكمن الابحاث القانونية·

كذلك مذكراته التى كان يقدمها فى القضايا الهامة وفيها ما يعتبر بحق من قبيل الأدب القضائى الرفيع ·

لقد كان درس احدى القضايا الجنائية الهامة وأعداد المرافعـة فيها احدى للذاته الحقيقية ، كتب يقول : ان هذه اللذة لتطغى على جميع المتاعب التي أعانيها حتى لا أشعر بها مطلقا وانى اثناء هذا الاستعداد أتخيل تأثير ابرازها عند العمل النهائى فازداد تحمسا ونشاطا وأنى كنت بحمد الله أوفق فى مطابقة النتائج لما كنت أتخيله أثناء العمل ، ومن أهم ما لا حظته أن هذه الملذة كنت أترقبها قبل أن أدرس القانون وسبب ذلك يرجع الى أمرين ـ الأول ـ رغبـة شديد منذ صغرى فى مكافحة المظالم ، وأخرى فى ازالة الغموض وحل المشكلات ، والأمر الثانى كثرة مطالعاتى فى الكتب والصحف التى تسرد وقائع القضايا العالمية ولا سيما الصحف الانجليزية ··

ان من القضايا ما لو دفعت فيها لأصحابها مالا لأترافع فيها وكان ذلك في مقدورى لفعلت ذلك » ٠

وفي سنة ١٩١٧ اتفقت الجامعة المصرية معه على تدريس مادة القانون الجنائى لطلبة السنة الثانية بقسم الحقوق فكتب مذكرات فى القانون الجنائى تحدث فى القسم الاول منها عن النظرية العامة للتجريم والعقاب ثم تناول فى القسم الثانى شرح قانون العقوبات المصرى ٠

وتحدث في القسم الخاص بفلسفة العقوبة عن أحدث النظريات وخاصة فكرة الدفاع الاجتماعى Dfense Sociale واعتبار العقوبة وسيلة لحماية المجتمع لا للانتقام من الجانى ومحو التعذيب من العقوبات واصلاح السجون ٠

الـــزواج

في سنة ١٩١٧ فقد لطفي جمعة آخر عضو في عائلته التي نشأ فيها ولم يبق الا والده المرحوم الشيخ جمعه ·

وكان يكتب له خطابات في أوربا يعرض عليه فيها زواجا من قريباته ، فكان ـ كما يقول ـ يسخط حينا وحينا يسخر ·

فلما أن توفى آخر عضو من أفراد عائلته وهي خالته ـ شعر بوحدة أليمة في الحياة وبحاجة الى من يؤنسه وبضرورة المرأة في حياة الرجل اذا كان يريد أن يعيش مستقيما وأن يضمن السلام فيحياته الداخلية وأن يضمن التوازن في حياته العقلية وشعر بكل ما يشعر به صاحب العمل العقـــلي من الحاجة الى مرفأ أمين يستريح الرجل لديه بعد الزوابع الخارجية · وقد كان هذا الشعور طبيعيا وانـــه شعور عظيم اذ جرت المقادير به وبما تلاه كما يقول ·

وفي مستهل السنة الثانية والثلاثين تزوج لطفي جمعة · يقول « هي سن حسنة ومعقولة بالنسبة لظروفي الخاصة وان كانتمتأخرة قليـــلا بالنســـبة للشرق والاســـلام ، وكان يصـــح لي ما دمت مقدورا لي أن أقع في هذه الحفرة السعيدة أن أتزوج في الخامســـة والعشرين على الأكثر ؛ ولكنني من الخامسة والعشرين الى الثانيـــة

والثلاثين وكنت فى ظروف أليمة بسبب مرض آخر أفراد أسرتى مرضا خطيرا اقتضى حبى له واحترامى لذاتى وتقديسى لله أن اتفرغ لخدمته والعناية به ، هذه السنوات السبع هى الآن فى نظرى خير سنوات الحياة والشباب ٠٠ هكذا كان القدر » ٠

يقول لطفى جمعة « كنت فى سنة ١٩٠٤ فى السابعة عشر من عمرى كتبت قصة مصرية « فى وادى الهموم » وذلك فى طفولة الشباب قبل أن أستدير الى العزوبية وقد جرى قلمى بوصف الزوجة التى أتمناها فكتبت بقلم طفل أننى أريد فتاة مخلصة طيبة القلب تقودنى بيدها البريئة فى دياجير الحياة وليس يهمنى جمالها ولامالها بل اننى لا أريدها ذات مال بقدر ما تهمنى طيبتها واخلاصها وأمانتها ٠٠ الخ طبعا هذه آمال طفل وأفكار طفل ونظرة طفل للحياة وقد عرفت فى الحياة وقبل الزواج غير هذا النوع من النساء ،ولكننى قد حافظت على حياتى واستقامتى على قدر طاقتى ولكننى ما قولك أن هذه الجرثومة بقيت فى قلبى خمس عشرة سنة كاملة أى الى أن تزوجت وقد شاءت المصادفة أن هذه التى تزوجتها كانت تنطبق عليها معظم هذه الصفات٠٠ وقد وقع فى قلبى مذ رأيتها أنها ستلد لى أولادا ولم أدر كيف يتم هذا الأمر ولم أفكر مطلقا فى الزواج ٠٠ فلما انقضت أيام الحد وقبيل الحركة المعروفة فى مصر باسم ثورة ١٩١٩ بسبعة أشهر عقدت زواجى على هذه السيدة ٠٠ لم أكن أؤمن بالزواج الذى يقوم على الحب لأن عمر الحب قصير وعمر الزواج طويل فاذا قصر أحدهما عن الآخر انهار البناء وهو كذلك ليس زواج مصلحة لأننى لم أطمع فيما تملك وان طمعت هى فيما أملك فمن حقها ، فكان زواجى منها نوعا من التعاون المادى والمعنوى والاشتراك على قطع مراحل الحياة وكانت آمالى محصورة فى أن أعمل وأن أرزق أولادا من هذه المرأة بذاتها وأن أتنى بتربيتهم » ٠

وقد رزق لطفى جمعة عشرة أبناء نصفهم ذكور والنصف

الآخر اناث ولم يدخر وسعا في تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم وأنفق جميع ما رزقه الله فى شئونهم ولم يقتن مالا ولا عقارا · يقول « لم أجمع المال قط ولم أحمل له هما ولذا لا أعد الحصول عليه بكثرة نوعا من اللذة لأنه مهما جمع عندى فانه ينفق فى أبوابه وهـــذه خلة عندى منذ الصغر ولم أشعر بحاجة للمال الا بنسبة شعورى بالحاجة الى مقتضياته » ·

السياسة

لقد شارك لطفي جمعة بقلمه ولسانه وماله في الحياة السياسية ولم يدخر وسعا في سبيل خدمة الوطن ، وكان يؤمن بأن خدمة الوطن ورقى الأمة ونهضتها وتحريرها من ربقة الاستعمار واجب مقدس يجب عليه وعلى أمثاله الاضطلاع به . كتب من لوزان في ١٧ يوليو سنة ١٩٠٨ الى صديقه فؤاد طلبة أحد أبناء الثورة العرابية الذين نفوا مع أحمد عرابى يقول « ان الواجب يدعونى فى كل ساعة وينبغى لى أن ألبى نداءه ... ينبغى لى أن انسى نفسى وحياتى لأرقى بنفوس غيرى ولأضيىء حياة الكثيرين .. ان الواجب يأمرنى بأن أحترق ليستنير غيرى وان كانت هذه الحياة تأمرنى بطلب العلم والسعادة فى الوحدة ولكن الواجب عندى أسمى وأقدس ، أتحصى هموم مثلى ؟ أفى الأرض من يقدر على تخفيف حملى أم فى السماء أنتظر الجزاء ؟ ليس لى الا العمل وحب الوطن فهما ملجئى الوحيد الذى أنسى به مصائبى وأحزانى .. اننى منحت نفسى وعقلى لوطنى وبذلت جسمى للعمل .. هناك لا يخيب الرجاء ولا تحزن النفوس ولا تتراكم الهموم اذا عشت استفدت بسعادة لاتقدر واذا مت ففى رحمة الوطن ونعم الموت موت الكرام المجاهدين» .

ولم يحب لطفي جمعة شيئا كحبه لوطنه فقد كتب يقول فى خطراته « ما رأيت عشقا أعظم من عشق الوطن بلغ حدا منى اننى صرت لا أحب أهلى وأصحابى ونفسى الا لأننا أبناء وطن واحد !! » ٠

وقال « اننى أشعر بعذوبة العذاب وبجلال الموت وجماله فى خدمة الوطن والانسانية » وهو يشعر بالأسى كلما فكر فى أحوال بلده وما تعانيه فى ظل الاستعمار فيقول : « ان علمى بشقاء وطنى يمنعنى أن أكون سعيدا » ويتساءل وهو فى فرنسا « هل يمكننى أن أهدأ بالا وأقر عينا وأطيب نفسا وأتمتع بالحرية فى هذه البلاد وأنا أعلم أن أبناء وطنى فى مصـــر قد حرموا من حرية الكتــابة والخطابة ؟ ان الأنذال وحدهم هم الذين ينسون وطنهم وأمتهــم ما داموا مارحين فى نعمة الحرية ٠ اننى أستعمل كل النعم التى أجدها تحت تصرفى لأخدم وطنى ، لأعيد اليه حقوقه المهضومة ، هذا أشرف واجب وأقل ما ينبغى للوطن على أبنائه المخلصين » ٠

ويقول « ان واجبى نحو وطنى أعظم ألف مرة من واجبى نحو أسرتى وبهذا القدر يجل واجبى نحو أسرتى عن واجبى نحو نفسى ٠ وأول ما ينبغى لى اذا شعرت بقوة تريد الانطلاق هو أن أنظر حولى وأسعى على قدر طاقتى فى انفاق تلك القوة فيما ينفع قومى ، فان كانوا فى حاجة الى العلم علمتهم ، وان احتاجوا جهادا سياســـيا وقفت قلمى ولسانى وقلبى وفؤادى على تحقيق آمالهم ، هذا أقل ما يجب على الانسان نحو وطنه اذا كان يطمح الى خدمته » ٠

وينحى باللائمة على ابناء وطنه الذين لا يعرفون قيمة بلادهم فيقول « لاحظت من مطالعاتى الفرنسية أننى لم أعثر بكتاب أو صحيفة الا وجدت فيها اسم « مصر » ٠٠ وذكرت الحديث الشريف « مصر كنانة الله » وكلمة نابليون التى قالها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانه « مصر أهم قطر فى العالم » فاستشطت غضبا من أبنـــاء

وطني الذين لا يعرفون قيمة بلادهم ولا يقدرونها قدرها فيفدونها بأرواحهم » ٠

وقد بدأ اشتغال لطفى جمعه بالقضايا السياسية منذ أن اتصل بالمرحوم مصطفى كامل وشارك بقلمه بالكتـــابة فى جريدة اللواء وبلسانه بالخطابة فى المؤتمرات والمجتمعات السياسية فى سويسرا وفرنسا وبلجيكا وانجلترا ووضع كتاب « تحرير مصر » ســـنة ١٩٠٦ وأهداه الى « الشعب المصرى الكريم » ٠

وقد تناول فى هذا الكتاب سياسة انجلترا وأعمالها فى مصر فى القرن التاسع عشر وعلاقة المســألة المصرية بالدول الكبرى ، وسياسة بريطانيا الاستعمارية فى مصر وغيرها من المستعمرات ثم اختتم الكتاب بتأكيد أن انفع حل للمسألة المصرية هو منح مصر الحرية لأن مستقبل افريقيا متعلق بتحرير مصر ٠

ومنذ أن وطئت قدماه بلاد أوربا فى طلب العلم سنة ١٩٠٨ جعل شغله الشاغل خدمة الوطن مما المنا به فيما تقدم ، وفكر وهو فى فرنسا فى وضع كتاب باللغات الثلاث : العربية والانجليزية والفرنسية اسمه « مصر تتهم انجلترا » يشرح فيه المسألة المصرية شرحا عادلا ٠

كما فكر فى سنة ١٩٠٩ فى القيام بسياحة فى بلاد الاندلس ومراكش والجزائر وتونس والعالم الاسلامى كله ليكتب عنه كتابا وليخطب فى أبنائه ، وشرح لاخوانه هذا المشروع ودعوته أمم شمال افريقيا للاجتماع لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة روابط أدبية ومادية ٠

وقد كان جهاده فى أوربا فى سبيل الوطن والقضية المصرية

محل تقدير من الكثيرين فقد كتب اليه محمد كرد علي من باريس في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ « قضيت أكثر اليوم مع الأستاذ العلامة عثمان بك غالب ٠٠ وقد ذكرت له حالك فسر وهو معجب بفضلك محب لك جدا يعلق عليك آمالا كبارا لمصر وللمصريين » ٠

كما كتب اليه الأستاذ جورجي زيدان في ١٩١٢/٦/٧ يقول « أخذت تذكرتك في الاسكندرية وساءني أنك سافرت ولم أساعدك لكنني سررت من الجهة الاولى لأنك منصرف الى اتمام عمل يزيد أهمية في خدمة وطنك وأمتك وليس هذا العمل ولا كثرة العلم وحدها تؤهل الرجل الى خدمة وطنه وافادة أمته وانما هو الاستعداد الفطري والاخلاص ، وأنت من نخبة المصريين في ذلك بل أننا لم أعرف بينهم شابا فيه هذا الاستعداد للعمل مع النشاط وصدق اللهجة والصراحة في القول ولذلك فأنا أتوقع لك مستقبلا مجيدا في كل وجه وانما يشترط أن تعرف لك الأمة فضلك ولا تأخذها الأغراض أو يأخذ بعضها الحسد فيعمى ، ولكنك ستظهر ويبدو فضلك كالشمس وستكون من يباهي بهم الشرق ويفاخر » ٠

لقد كان لطفي جمعة يرى أن الأمم في حاجة الى ثورة شاملة فكتب يقول « عندما تحاول أمة من الأمم أن تنهض نهضة حقيقية تبدأ أولا بالضجر من الأساطير والشعائر القديمة فتسرع في الحال الى الخلاص من القيود المعنوية التي قيدها بها أبناء الاجيال السابقة ، ثم تدب فيها روح جديدة وتطالب بالتغيير العام في شئونها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية حتى اذا فرغت من هدم بعض الجدران التي كانت بطبيعتها تريد أن تنقض تأخذ في تشييد نظامات جديدة تلائم بعثها الجديد » ٠

ثم يقول في وضوح وصراحة « لا يزال العالم مهضوما ومظلوما ولا تزال أممه محتاجة الى ثورات اجتماعية وسياسية كبرى مادامت

الحكومة فى أيدى فئة تستخدم الشعب كله فى سبيل مصالحهـــا وتدعى لنفسها الامتياز الفكرى والعقلى على سائر الأفراد » ٠

وواضح أن لطفى جمعة يربط بين الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ويرى هاتين الثورتين توأمان لا ينفصلان ٠

وهو يبدو مترقبا ثورة شاملة فيكتب فى ١٨ يناير سنة ١٩٤٦ بعد أن بلغ الستين من عمره « أبدو فى معظم الأحيان ٠٠ وكأننى أنتظر شيئا يحدث لى وللعالم ، ولكن ما هو هـذا الشىء ؟ لم أكن أدرى ولا المنجم يدرى ؟ أنتظر شيئا غريبا خطيرا يغير مجرى حياتى ومجرى الحياة فى الدنيا٠٠ وبقيت أترقب كمن ينتظر فى المحطة قطارا ينقله الى مكان بعيد وأتمنى لو تحدث المعجزة فأتيقظ يوما لأرى الشىء الذى أترقبه يتحقق ولكن ما هو هذا الشىء ؟ ٠

واخيرا وبعد تأمل طويل وجرأة عجيبة منى أعتقدت أن هذا الشىء هو تغيير شامل للحياة التى تحيط بى وأهم شىء تغيير حالة الظلم بحالة العدل وحالة الفقر بحالة الغنى وحالة الجهل بالعلم٠٠ واتلمس من أتكلم معه وأبوح له بأفكارى فلا أجد حولى أحدا ٠٠ »

أما آراؤه فى الحكم فان كتاباته تنضح ببغضه الشديد للنظام الملكى ويتساءل : « لست ادرى ولا المنجم يدرى كيف يخضع الناس لمخلوق ضعيف جاهل ويسلمونه قيادهم فيستبيح أموالهم ويستحل أعناقهم لأنه من صلب رجل آخر كان حاكما قادرا ٠٠ على أننا لو رجعنا الى التاريخ لرأينا من فظائع ومظالم ذلك الحاكم ما تقشعر له الابدان ويشيب من هوله الولدان » ٠ ويرى أن الكاتب البليغ الذى يخلف كتابا جليلا والشاعر العظيم الذى يترك ديوانا جميلا والخطيب المفوه الذى يحرك النفوس ببلاغته ويوحى اليهـا أفكارا بديعة ولو مرة فى العمر واحدة ، أعظم من ذوى التيجان والعروش

لأن مواهب هؤلاء زادت الحياة سعادة ونورا أما الملوك فقد يزيدونها ظلما وفسادا ، ويصرح فى احدى خطراته فيقول « ما حكم مصر ملك عادل قط ولو تولاها عادل بفطرته لأفسد السلطان من خلقه ورد على أعقابه الى الظلم والاستبداد » .

لقد كان لطفى جمعة يرى أن النظام الجمهورى هو أحسن النظم للحكم فيقول سنة ١٩٠٨ : « ان الجمهورية فى ذاتها هى أرقى الحكومات وأنسبها لهذا الزمان وغيره من الأزمان » ويقول : « شعرت منذ عشت فى ظلال الحكومات الجمهورية أن سماء بلادها أصفى وهواءها أنقى وأخلاق اهلها أرقى من سماء وهواء وأخلاق الأمم الرازحة تحت عبء الحكومات الملكية المطلقة » .

وقد أعجب بكتاب « الجمهورية » لافلاطون وحاول نقله الى العربية لأنه وجد فى هذا الكتاب - كما يقول - كثيرا من الأفكار التى كانت تجول فى نفسه ويعجز عن التعبير عنها . ووجد فيها كلاما فى الأخلاق ونقدها وكلاما فى الحكم والعدل والظلم .. كلاما جديدا عليه بوصفه مفرغا فى قالب التأليف ولكنه قديم فى نفسه مندمج فى عقله وروحه .

أما السياسة فهى عنده ليست حرفة أو صنعة أو مهنة أو انتهازا للفرص بل هى كما يقول فى مقال منشور بجريدة الدستور سنة ١٩٣٨ « يظن كثير من المفكرين أن السياسة صنعة أو مهنة وأنها تنطوى على بعض الصفات العقلية كحضور البديهة أو سرعة الخاطر أو القدرة على انتهاز الفرص أو شدة الاستعداد للالمام بالمواقف ذات الأثر فى حياة المجموع ، وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحا ولكنه ليس كل ما تنطوى عليه السياسة ، وقد يكون الجمع بين هذه الخلال مؤديا بصاحبها الى بلوغ مكانة يرتضيها ، ولكن

الاجماع متفق على أن السياسة ليست مهنة ولا صناعة وأنها محصورة في شيء واحد ، وهذا الشيء الواحد هو بعد النظر وصدقه بحيث ينطبق الرأى الذى يراه رجل السياسة على ما سوف يقع فعلا فى المستقبل القريب أو البعيد من الحوادث ، ويدل استقراء التاريخ على صدق هذه النظرية فأن بعد النظر وصدقه يمكنان السياسى من وضع الخطط ورسم طرائق العمل ويكون نجاحه وتوفيقه تبعا لوقوع ما يتنبأ به » .

كان لطفى جمعه يرى فى الأحزاب جرحا داما ، فكتب يقول « وهذا جرح دام آخر شاهدته فى حياتى منذ سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٤٦ أى على مدى أربعين سنة ، وهو تعدد الاحزاب السياسية فى مصر وكثرة الشيع والفرق المنشقين والمنضمين وأعرف بنفسى حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية وحزب الامة والحزب الوطنى وحزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريين وحزب الكتلة الوفديـــة وحزب الشعب وحزب مصر الفتاة وحزب الفلاح والحزب الاشتراكى وغيرها مما لم تعه الذاكرة وهى فوق خمســة عشر حزبا فى مدى أربعين عاما كلها متناحرة ومتشابكة متحاربة حتى الذين انشقوا على بعضهم بعضا من أصل واحد ، ولا يوجد حـزب جدير بالاحترام غير الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل وهذا الاحترام لازمه من سنة ١٩٠٧ الى وفاة محمد فريد فى سنة ١٩٢٠ ثم انطفأ نوره وناره ، والذين انتسبوا اليه بعد ذلك انما انضموا جلبا للمنافع وعلمــا منهم بأنه لا ضرر يلحقهم من هذا الانتمــاء وقد يرشحون أنفسهم على مبادئه ومن أهم مبادئه عدم التعاون مع الحكومة ومع ذلك يدخلون الوزارة ، والذين يعتذرون عن قبول الوزارة يرون البقاء خارجا أنفع لهم وأجدى عليهم .. ولم يعلم واحد من هؤلاء أنهم أبلغوا الأجانب أغلى أمانيهم وهى أنه حتى رجال الحزب الوطنى وأتباع مصطفى كامل متى احتاجوا الى خدمة الحكومة انضموا تحت

لواء الاحتلال. ولم يذكر واحد منهم ن الانجليز عرضوا الحكم على مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ ، بعد دنشواى وبعد انسحاب كرومر فرفضوا وأنهم عرضوا الوزارة على محمد فريد وهو سجين فى سنة ١٩١١ بوساطة المرحوم الدكتور عثمان غالب باشا فرفضها باباء وقاطع صديقه القديم .. لقد رأيت هذه الأحداث كلها بنفسى كما رأيت أن كل من قاوم آمال أمته وحارب حريتها قد وصل الى قمة المناصب. كل هذه الأحداث عانيتها وشعرت بطعنات تصيبنى فى الصميم عندما تصيب كرامة وطنى وتصيب مبادئى التى وقفت شبابى على خدمتها وهكذا رأيت الحق يداس والعدل يهزأ به .. ».

وقد رأيت مأساة بل مآسى الحياة السياسية والدستور الذى كافحنا فى سبيله أنا وأبناء جيلى من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٢٤ ورأيت كيف كان الغش والتزوير والطبيخ فى الانتخابات وكيف ترشح العصابات وأفراد العصابات المتوثبة للقبض على الاحكام وقد قال اللنبى مندوب انجلترا فى مصر فى كتاب ألفه ان الحياة البرلمانية جعلت المصريين ينهشون بعضهم بعضا وينسون مطالبهم نحو انجلترا » .

ويروى لطفى جمعة فى مذكراته سنة ١٩٤٥ احدى هذه المهازل البرلمانية فيقول « قد مرت أزمة الانتخابات النيابية من أول ديسمبر الى ١٨ يناير سنة ١٩٤٥ تاريخ اجتماع المجلس فلا حياد ولا نزاهة ولا ضرب على أيدى المخالفين ، فقد تفشت الرشوة وبيع الأصوات والغدر والخيانة بعد أن تقدم للانتخاب كل من هب ودب من الهوام والحشرات وأغنياء الحرب والصعاليك والأميين والطامعين وقد ارتفعت الشكوى الى عنان السماء من مخالفة وعود رئيس الحكومة ووزير الداخلية . فقد تأكدت بشخصى أنه لم ينجح فى الانتخاب

الا من دفع بدرة من المال ، فقد كانت الأصوات تباع بالجملة والمفرد ويحشدون حشدا تبعا لأوامر العمد والمشايخ ورجال البوليس وقد اجتمعوا يوم ١٨ يناير وأقسموا الايمان وسمعوا خطاب العرش ٠ وكذلك أقرأ هذا كله وأنا أعتقد أن هذا العمل ليس الا تمثيلا مسرحيا قد تواطأ الكل عليه لحفظ المظاهر ولم تعد لأحد كفاية ٠٠ وقد جاء خطاب العرش الذى ألقاه أحمد ماهر يوم ١٩٤٥/١/١٨ مكتوبا بأقلام سواه مثل كل خطاب عرش آخر ٠٠ كلام غامض ووعود مبهمة واهتمام بالصغائر والتفصيلات والامانى العذبة وسراب الاستقلال والطموح الى السودان وغيره وهذه اجراءات تقليدية تتم فى كل دورة ٠ وقد نشر فى الصحف بعد ذلك انه لا توجد أزمة داخلية ولا خارجية لأن لامسون قال للصحفيين « كلوه ماشى كويس » أى أن لامسون عاد بكل قوته مسيطرا على الحكومة المصرية يحرك خيوطها كيف يشاء ويرهب رئيس الوزراء والملك فنازلا ويتهددهم طبعا باعادة النحاس الى الحكم ٠٠ ان كل وزير منهمك فى مصالحه الشخصية لأن كل وزير ماعدا ثلاثة أو أربعة أمثال مصطفى عبد الرازق وحافظ رمضان ومحمود غالب يعتقد أن الوزارة فرصة ليسدد فيها ديونه ان كان مديونا ويكون ثروة ان كان معدما ويزيدها ان كان عنده شىء ، وأما الأعمال العامة والصالح العام فانهم يتلقون الأوامر من الانجليز أو من الملك ٠

وقد تضخم مركز الملك فى الوقت الاخير وفى كل عيد أو مناسبة تشتغل الادارة الحكومية بالزينات والحفلات واستجداء التبرعات للقيام بالواجب نحوه على فرض أن الامة كلها فرحانه بكل مناسبة تذكرها بوجوده وبالنعمة العظيمة التى أنعمها الله به مع أنه لم يعمل شيئا لصالح هذه البلاد فى الحياة العامة ؛ ولكن الذين حوله من الموظفين يضفون على حركاته وسكناته أثوابا من الرياء والنفاق يضحكون بها على الأمة وعلى أنفسهم ٠٠ فبالله ما فائدة

الأنوار والزينات والرايات والأعلام وأقواس النصر لمجرد عودته من سياحة في جزيرة العرب لغرض سياسى وهذه أمة فقيرة مريضة جاهلة ؛ فهل يرغم المريض الفقير على الفرح بأشخاص متمتعين بالأموال الطائلة بفضل شقوة الأمة نفسها ؟ وكيف يطيب للجائع العارى العليل أن يشترك فى تمجيد الاغنياء والأصحاء الرافلين فى ثياب الحرير والصوف والمخمل ؟ وكيف يسر الحافى بتمجيد من عنده على الأقل مائة حذاء ٠٠ هذه أشياء تتم بالقهر والارهاب والنفاق ومظنون انها تشغل الشعب وأنها تسليه » ٠

وعندما أثيرت في مصر ضجة حول ما اذا كانت مصر فرعونية أم هي عربية كتب لطفى جمعة فى البلاغ تحت عنوان «خواطر المساء» يفند رأى القائلين بأن مصر فرعونية ويؤكد أنها عربية بدليل أن من يقول بفرعونية مصر نشأ فى المدنية العربية هو وأباؤه وأجداده الأدباء المتمكنين ٠

❋ ❋ ❋

عندما وصل لطفى جمعة الى مدينة جنيف في صيف سنة ١٩٠٩ اتجه ذهنه الى ثلاث نواح ، الأولى سقوط الغرب وانحداره وانحلال قوته في مستقبل قريب قدره بخمسين عاما ، والثانية عهد احياء العلوم فى ايطاليا ونهضة الفنون فى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، والثالثة أسباب انحطاط الشرق ، وهذه النواحى الثلاث وان كانت تبدو متباعدة ولكنها في الواقع ـ كما يقول ـ كانت مرتبطة كل الارتباط في ذهنه فالأولى تسعده لأنه يرى فيها منفذا للتقليل من شأن أوربا وخرقا فى درعها المصفح وثقبا فى سور قلعتها الشامخة ، والثانية وهى نهضة ايطاليا أشعرته بأمل نهوض الشرق فى المستقبل تقليدا لبعض أممه التى نهضت فجأة كاليابان

وخصوصا عند دنو القرن الرابع عشر الهجرى الذى كان مثيله الرابع عشر المسيحى قرن النهضة فى أوروبا ، أما المسألة الثالثة وهى سقوط الشرق عامة ومصر خاصة، فقد كانت هذه المسألة شغله الشاغل حتى كانت سنة ١٩٣٢ عندما نشر كتابه السياسى الحافل « حياة الشرق » دوله وشعوبه وماضيه وحاضره. وقد تناول فى هذا الكتاب حالة العالم حين ذاك وآمال الشرق فى المستقبل والطبقات الاجتماعية فى الشرق والاستعمار ونظرياته وتطور الامبريالية فى الشرق وخطة فرنسا فى تونس والامتيازات الاجنبية كما تناول السياسة الاوربية فى بلاد العرب وتحدث عن افريقيا والاستعمار وتناول بالبحث موضوع الحلف العربى الذى نادى به نورى السعيد سنة ١٩٣١ - ومما جاء فى هذا الشأن « ان هذا الحلف العربى أحبولة انجليزية يرجع عهده الى أربع أو خمس سنين وأن الغاية منه وضع نطاق حول جزيرة العرب وحماية النفط واخضاع العراق وتأمين طريق الهند واعداد متاريس ضد سياسة ايطاليا فى الجنوب وروسيا فى الشرق لأنه قد ثبت أن كل من يحبذ الحلف العربى انما يعضد الاستعمار مباشرة وان كان يختفى وراء المصلحة العربية .. ان الحلف العربى اذن حيلة سياسية استعمارية ترجع الى أعمال الانجليز فى عهد عبد الحميد » .

وتحدث لطفى جمعة فى هذا الكتاب أيضا عن أحوال مصر وسوريا والعراق والحجاز وشرق الاردن والكويت وعمان ومسقط وشمر والقصيم والبحرين واليمن والحبشة وشمال افريقيا والهند والأفغان وأندونيسيا من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فألقى الأضواء - منذ نيف وأربعين عاما - على أحوال الشرق العربى ودوله وشعوبه وحكامه وما فعله الاستعمار الغربى به وما انتهجه من أساليب ووضعه من مخططات بقصد تمزيق وحدة البلاد العربية واستنزاف خيراتها واستعباد شعوبها .

وخلص من دراسته وجولاته الجريئة والصريحة الى أن الشرق والاسلام والعرب فى حاجة الى العلم والعمل وفى حاجة الى تشكيلات ومناهج وخطط سليمة وعلمية وفى حاجة الى اصلاح اجتماعى ونهضة اقتصادية كما أنه فى حاجة الى زعماء مخلصين يقدرون الزعامة قدرها ويعملون بنيات سليمة ومقاصد شريفة دون مراعاة لمصالحهم الشخصية بل يفضلون المنفعة العامة على منافع ذويهم وأن يكونوا مع ذلك ذوى شجاعة واقدام وأهـــل بصيرة وتؤدة . وقد صادرت الحكومات الاستعمارية هذا الكتاب فى شمال افريقيا وبـلاد الشرق الاقصى وأذكر أن علال الفاسى كان يقول لى ان هذا الكتاب كان يهرب الى الجزائر وتونس ومراكش وليبيا كما تهرب المحظورات وقد كتب عبد القهار مذكر الجاوى الى لطفى جمعة فى ســـنة ١٩٣٢ يقول « نبشركم بأن الكتاب صودر فى جاوى وسومطره والحكومة أمرت بارجاع النسخ .. عسى أن يكون فى ذلك كل الخير للكتاب » .

وفى سنة ١٩٤٦ كتب لطفى جمعة فى جريدة الدستور مقـالات عديدة فضح فيها أساليب الاستعمار الفرنسى فى شمال افريقيـــا وأزاح الستار عن مآسيه وفظائعه الأمر الذى أقلق فرنسا فاتصل به رجل من السفارة الفرنسية وطلب منه معلومات عن مصدر مقالاته فأجابه بخشونة . وفى اليوم التالى اتصل به الرجل مرة أخرى ودعاه لشرب القهوة مع السفير الفرنسى فانتهره لطفى جمعة وهدده بأن يفشى اسمه وفحوى محادثته التليفونية وحذره من الاتصال به مرة أخرى .

وقد بلغ من حيرة الحكومة الفرنسية فى الوقوف على مصدر المعلومات التى تضمنتها هذه المقالات عن فضائح الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا أن اتهمت المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون — وقد كان حين ذاك على صلة وثيقة بلطفى جمعة بأنه هو الذى أمده

بتلك المعلومات لما عرف عن هذا المستشرق من عطف على نضال المجاهدين فى شمال أفريقيا ·

وقد كتب لوى ماسنيون مقالا عنوانه « فوكو فى الصحراء » بمجلة « أيام الثلاثاء فى دار السلام » بالعدد الثامن والتاسع سنة ١٩٥٩ يقول فيه « عند ما كنت فى زيارتى للقاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ بمناسبة الموسم السنوى للمجمع اللغوى العربى أبلغتنى السفارة بأنه نشر بجريدة الدستور بالعدد الصادر فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦ مقال من أربعة أعمدة معنون « أسرار الاستعمار الفرنسى فى مراكش ، قسيس جاسوس يخدم الاستعمار » وقد جاء فى هذا المقال « اننا ما دمنا نشجع التجسس لأمثال هؤلاء الآباء ونسمح بنشر أفكار لمثل الراهب « شارل ديفوكو » المبشر الفرنسى فى خدمة الجاسوسية الفرنسية فانما نتنكر لواجبنا ··· ان هؤلاء الآباء من أعضاء المكتب الثانى يدمرون حرية الشعوب باسم الله كبرت كلمة تخرج من أفواههم » ·

ونظرا لما تعلمه السفارة من سابق معرفتى بالأب « فوكو » فقد بحثت عن كاتب هذا المقال واكتشفت أنه محمد لطفى جمعة أحد أصدقائى والذى تلقى القانون فى باريس وحمل معه كتابى « ديوان الحلاج » الى مكة حيث يتلو تلبيته عند الملتزم ، وقد عرفنى أن هذا المقال لا يعدو أن يكون مجرد مقال ترجمه عن الفرنسية لكاتب يدعى « ج · كارتيه »

وانني حتى الآن لم أوفق الى العثور على أصل هذا المقال ·

ويضيف ماسينيون أن لطفى جمعة سأله حينذاك فى استنكار « لماذا صدمت هكذا من أجل مواطنك الموقر » ·

وعند ما غزت ايطاليا بلاد الحبشة سنة ١٩٣٥ ألف لطفى جمعة كتابه « بين الأسد الافريقى والنمر الايطالى » تحدث فيه عن بعض نواحى المسألة الحبشية ومقدار مطامع الدول الاستعمارية فى أثيوبيا واستغلالها وعقد فى هذا الكتاب فصلا تحدث فيه عن الاستعمار قديما وحديثا وما تتذرع به الدول الاستعمارية من حجج للقضاء على استقلال الشعوب وندد بمطامع ايطاليا فى الحبشة وتنبأ بسقوط موسولينى وانهياره ٠

ولا تخلو صفحات الجرائد والمجلات على مدى أربعين عاما من مقالات وآراء للطفى جمعه فى الأحوال السياسية فى مختلف بلاد الشرق العربى وما يصيب شعوبه ودوله من مظالم الدول الاستعمارية واستبدادها واستغلالها ٠

ولا تفوته فرصة ذكرى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ وهو اليوم الذى حدثت فيه معركة التل الكبير فيقول تحت عنوان « لئلا ننسى » فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٢ : « فى هذا اليوم دخل الانجليز بالمكر والحيلة مخترقين سياج المعاهدات الدولية وحيدة قنال السويس بجيوشهم الأراضى المصرية وحاربوا فلول الجنود العرابية وكانت الهزيمة المصطنعة بداية عهد الاحتلال والهوان والحماية وما تلاها من الويلات والمصائب التى عانينا منها من خمسين عاما » ثم يقول « لقد رأينا فى بور سعيد والسويس تماثيل وأنصابا لعشرات أو مئات من جنود الهند واستراليا ونيوزيلندا الذين استشهدوا فى سبيل الامبراطورية وتلك تماثيل أقيمت لجنود أجنبية فى بلادنا ٠٠٠ أفلا نقيم تمثالا لجنودنا الذين ماتوا فى سبيل الدفاع عن وطننا ووطنهم وقتلوا غيلة ؟ ألا يوجد لمصر جندى مجهول مدفون بتلك البادية المقفرة الموحشة نقيم له ذراعا من الحجر المنقوش ؟ التل الكبير»

لئلا ننسى ! ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ! تذكار عشرين ألفا من المصريين والسودانيين ماتوا فى سبيل الوطن ... لئلا ننسى ! » .

ثم هو يتنبأ بزوال الامبراطورية البريطانية فى مقال نشره بجريدة الدستور فى يونيو سنة ١٩٤٧ تحت عنوان « زوال الامبراطورية البريطانية حقيقة تاريخية طبيعية كانقراض جرم من دورة الفلك » وقد جاء فى هذا المقال « ان هذا الموت الامبراطورى أو الاعدام الاستعمارى قد سبقته علامات وامارات واشارات .. والعبرة بالنتيجة وهى زوال الامبراطورية البريطانية من الوجود والحمد لله » .

وكتب سنة ١٩٣١ يقول « من يدرينا ماذا يحدث فى العالم بعد عشر سنين أو عشرين سنة ؟

.. لعل الدول الاستعمارية التى نخشى اليوم جانبها تندثر وتسقط كما سقط غيرها وتترك الشرق لأهله ... ان زعامة مصر لا تنتهى عند الشرق العربى بل انها بحكم وضعها الجغرافى تطمح فى أن تمتد تلك الزعامة الى القارة الافريقية بأسرها ، وعندما نتكلم عن أفريقيا لا ننظر اليها نظر المستعمرين الجهلاء الذين يعتبرونها قارة مظلمة لأنها لا تزال بكرا ولم يتمكنوا منها فافريقيا قارة من أعظم القارات الخمس وأغناها وأهلها سواء كانوا فى الشمال أو فى الشرق أو فى الغرب أو فى الجنوب من أذكى البشر وأفضلهم ... واذا نظرنا الى افريقيا نرى مستقبل أهلها قاتما لأنه ليس لها فى أوربا أمل ولا رجاء ، وليس امامنا الا وسيلة واحدة لمحاربة هذا الظلام المقبل وهى أن ننهض ونختلط بتلك الشعوب فنستطيع أن نصل الى أعماق قلوبهم ونتمكن بذلك من أن نمنحهم مدنية ان لم تكن فضلى المدنيات فأنها بلا ريب تعدهم الى ما هو أرقى منها من المدنيات ولا نرى قوة قادرة على القيام بذلك العمل الجليل الا مصر،

فانها تعلمت من أوربا ما تستطيع أن تصلح من شأنها وشأن غيرها ، ولكن مصر لا تنهض هذه النهضة الا اذا كانت أمة حرة لأن الحرية تجعلها تقدر هذا العمل حق قدره فلا تكون لأمم أفريقيا غاصبة أو مرهقة بل تكون أختا رشيدة مرشدة على أساس المساواة والاخاء والمحبة وحينئذ تكون أفريقيا للافريقيين والشرق للشرقيين » ·

ويستنكر لطفى جمعه التفرقة العنصرية بسبب الدين أو الجنس فيقول فى احدى خطراته سنة ١٩٠٨ « يضحكنى ويبكينى أن يكون بين الأمم بغضاء سببها اختلاف الجنس أو الدين وأرى فى تلك الكراهية المذمومة ابتعادا عن الغاية السامية التى ينبغى للانسانية أن تسعى اليها · ان احتقار البعض للسود أمر مشهور وقد قامت بالأمس فى الولايات المتحدة المتمدنة حرب مهولة بين الفريقين سودت وجوه البيض الذين صبغوا الأرض بدماء اخوانهم من الزنوج ·· ان قوما يحسبون هذا التباغض داعيا من دواعى التقدم الانسانى وأنه نتيجة منطقية للمسابقة الطبيعية التى تقتضيها حياة الأفراد والجماعات ، أما أنا فلا أرى هذا الرأى لأننى مؤمن أن الوفاق والاخاء بين الأمم هما ألزم ما يكون للارتقاء والتقدم ، وان البغض والتدابر ليس الا اثرا من آثار الوحشية الأولى » ·

وقد اتصل لطفى جمعه بكثير من الزعماء ورجال الفكر والسياسة فى الشرق العربى والاسلامى.كما اتصلوا به سواء بالمقابلة أو المراسلة أمثال المرحومين محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وعبد العزيز الثعالبى ومحمد كرد على وعبد الرحمن شهبندر وعلال الفاسى وأمين سعيد وسليمان البارونى وعلى كاهيه والشيخ طاهر الجزائرى وشكيب ارسلان وأمين الريحانى واسعاف النشاشيبى وخليل السكاكينى ، وعند ما مر غاندى ببور سعيد خف الى استقباله على ظهر الباخرة راجبوتانا فى سبتمبر سنة ١٩٣١

وهو فى طريقه الى مؤتمر المائدة المستديرة وقضى فى صحبته ثمانى ساعات كانت أسعد ساعات الحياة كما يقول ·

ومن عجائب الصدف ما كتبه لطفى جمعه فى جريدة البلاغ فى ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩ تحت عنوان : « شهر يوليو من كل عام » يقـــول :

« ان شهر يوليو من شهور السعد لبعض الممالك ·· ففى ٤ يوليو من هذا الشهر استقلت ولايات أمريكا المتحدة التى كانت قبـل ذلك مستعمرة انجليزية ··· وفى ١٤ يوليو تحتفل فرنسـا بعيد الحرية والاخاء والمساواة وهو تاريخ سقوط سجن بل حصن الباستيل فى أيدى الشعب ، وفى ٣١ يوليو أيضا يحتفل أهـــل بلجيكا بذكرى مرور مائة عام على اعلان استقلال وطنهم الصـغير الجميل ··· » ثم يقول : « هذا هو شهر يوليو الذى يذكر أمما بسعادتها ويذكر أخرى بشقوتها وفقد حقوقها فلعل الأيام تسعدنا بتغيير فى دورة الافلاك ··· ولعل الله يجعل لنا من شهر يوليو عيدا ويبدل أحزاننا بالأفراح ! » ···

ولقد شاءت العناية الالهية أن تستجيب الى رجاء لطفى جمعه وأمله الذى تمناه سنة ١٩٢٩ فانطلقت الثورة المباركة فى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ··· وهكذا أسعدتنا الأيام بتغيير فى دورة الأفلاك وجعل الله لنا من هذا الشهر عيدا ···

لطفي جمعه والاشتراكية

لقد كان لطفي جمعة من الرواد الأوائل الذين آمنوا في مطلع القرن الحالي بالاشتراكية ونادوا بها ودعوا اليها واعتنقوها باعتبارها مبدأ له في المستقبل شأن كبير وباعتبارها عقيدة المستقبل وأمل الانسانية الذى تسعى الى تحقيقه ٠

وكتاباته سواء منها المطبوع أو المخطوط تفيض بالأفكار الاشتراكية والمناداة بالمساواة والآخاء والتطلع الى « عهد سعيد » يزول فيه التفاضل بين الناس بسبب المال والحسب ، يقول في مجموعة « خطوات أفكار » دونها بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١١ (١) :

« أكمل ما تسمو اليه الانسانية أن يزول التفاضل بين الناس باعتبار المال وما يسمونه بشرف المحتد وأن تتولى الحكومة تعليم سائر الأفراد وأن تستوى سائر الأعمال بحيث لا يفاخر الوزير احقر عامل في الحقول أو المصانع لأن كلا يخدم المجموع على قدر

---

(١) هي مجموعة خواطر تبلغ نحوا من تسعمائة خاطر في نبذ صغيرة سجلها لطفي جمعة في مصر وأوربا خلال السنوات من ١٩٠٨ حتى ١٩١١ في السياسة والتاريخ والاجتماع والأدب والفلسفة والاقتصاد والاشتراكية والعلاقات بين الشعوب والحرب والسلام ٠٠ الخ

مواهبه وعلمه لا على قدر ماله وشرفه ، قبل هذا اليوم لا تسمى الانسانية انسانية ولا الأرض أرضا » .

ويقول « أسمى امانينا وأجل آمالنا هى أن نكون على بساط المساواة والاخاء وكلنا يسعى ونبذل النفس والنفيس لبلوغ تلك الغاية ، ولكن لا يحسن بنا أن نرضى بمن يريد السيادة والسلطة باسم المساواة التى ننشدها ونرجوها !! »

وهو لا يكتفى بمجرد الأمانى فى أن تسود الاشتراكية بل يرى أنه يجب العمل على تحقيقها والجهاد فى سبيلها فيقول « قال لى صاحب لم أر طفلا فقيرا ينظر بعين الحسرة الى طفل غنى أو عجوزا أرغمتها الحاجة على ذل السؤال الا دعوت الله أن يقرب عصر المساواة الاجتماعية وأن يدنى العهد الذى تنتشر فيه الاشتراكية . فقلت له : حسنا تقول وسيئا تفعل اذا قنعت بالدعاء لرب السماء ولم تستقدم ذلك العهد السعيد بالجهاد فى سبيله !! » .

وهو يؤمن ايمانا راسخا بأن الاشتراكية هى عقيدة المستقبل وأن الفوز سيكون لها فيقول « الاشتراكية هى عقيدة المستقبل لا محالة ، أن مذهب البروتستانت لم يفز الداعون اليه الا لموافقته للعقل وقربه لحقيقة الأشياء وملاءمته للأشياء المحسوسة وخلاصه من الأسرار والخبايا المحيطة بالعقيدة الكاثوليكية الكريمة . كذلك سيكون الفوز للاشتراكية على ما عداها لأنها أقرب للعقل والحق فى الوقت الحاضر (سنة ١٩٠٨) من غيرها من عقائد المتمدنين : جمالها فى سهولتها وقوتها فى بساطتها ، انها دين الانسانية العام ، دين يبيح للكل التمتع بما خلق للكل ، ويزيل كل دواعى امتياز البعض عن البعض لأن امتياز الانسان عن الانسان فيما عدا المواهب العقلية ليس قانونا طبيعيا » .

ويبشر سنة ١٩٠٩ بثورة اجتماعية كبرى تجتاح أوربا فيقول « ان من يراقب مظـاهر الحيـــاة الاجتماعية فى أوربا فى الوقت الحاضر (١٩٠٩) يجزم بانه لا بد من مجىء يوم تشب فيه نار ثورة اجتماعية كبرى يقوم بها العمال المهضومون وغيرهم من ذوى الحقوق المغتصبة للمطالبة بما لهم ويسقطون القيود والنظم الحاضرة التى أودت بالعالم والانسانية الى الحالة الحاضرة » .

ويروى كيف تفتقت أذهان الاشتراكيين فى ألمانيا سنة ١٩٠٨ عن حيلة لنشر أفكارهم ومبـــادئهم فيقول « اذا زاد الظلم فى بلد وحاول بغاته أن يخمدوا أنفاس العـــدل والحرية فتق الضيق على العقول والنفوس ألف حيلة يرد بها كيد الطاغين فى نحورهم ؛ فقد ضيقوا فى ألمانيا على الصحف الاشتراكية وحرموا دخولها ، فكان أحـد أفراد هذه الرابطة القوية يصدر فى عاصمة الانجليز جريدة ويخترع لها فى كل يوم اسما جديدا فاذا صدر الأمر بتحريم دخولها تحت اسم « الاشتراكية » ظهرت فى الغد باسم « العدل » فاذا تربصـــوا للعدل دخلت فى اليوم التالى باسم « الحق » ؛ فاذا صادروا الحق صدرت باسم « المساواة » وبهذه الوسيلة انتشرت الآراء الاشتراكية وحكومة الظالمين ترى وتعلم ولا تستطيع أن ترد الكيد بالكيد الا اذا حرمت دخول الصحف الأجنبية كافة وهذا مستحيل . . . لقد حرمت الحكومة المصرية دخول جريدة « أبى نظارة » الهزلية فكان صاحبها صنوع يبعث أعدادها من باريس ملفوفة حول قنانى مياه معدنية كانت تأتى باسم صيدلى مشهور بالقاهرة » !!

لقد كان لطفى جمعة كما يقول ــ شديد التمســـك بمبدأ المساواة بين الناس وغير ناظر الى ما تستدعيه اختلاف الأديان

والأوطان والدرجات الاجتماعية من الفروق التى يهتم بها الكثيرون وكان يعتبر « أول طلائع الكمال الانسانى المساواة المطلقة » !!

ويرى لطفى جمعة أن الاسلام قد نادى بالمساواة والاخاء فيقول ، « جاء الاسلام بالمساواة والاخاء وكفى بالآية الكريمة « انما المؤمنون اخوة » بيانا ، ولكن مضى على الاسلام ثلاثة عشر قرنا ذهبت بعهد الخلفاء الراشدين وجاءت بملوك وأمراء مستبدين يستبيحون ما حرم الدين ليشبعوا مطامعهم وانها لكثيرة ، كذلك تغلب حب الدنيا على الدين وأصبح أخوك من كان مثلك فخرا ومالا وقرينك من شابهك عزا وجلالا وفى العالم الغربى الآن (سنة ١٩٠٨) حركة جديدة يسمونها بالاشتراكية وهى قائمة على المساواة والاخاء وسوف يكون لهذا المبدأ فى المستقبل شأن كبير » .

ويرى ان سبب شقاء العالم يكمن فى النظام الرأسمالى فيقول :

« ماذا أقول وقد سبقنى الى القول فطاحل وفحول ؟ ان هذا المجتمع قد فسد فسادا لا يرجى له صلاح الا بالهدم ثم البناء .. ان أقلية جاهلة غشومة ظالمة تخنق الأكثرية وتحكمها بالباطل وتجدد عهود الاسترقاق ، وان الرقيق ، ليسوا فقط عمال البدن والجسم بل عمال العقل ، وان العقبة الوحيدة فى طريق التقدم هم الأغنياء الكسالى الذين يربحون ولا يعملون ، وان سبب شقاء الانسانية الحالى هو المال وحب المال وقوة المال وان هذه المظالم تنمو وتكبر كلما كبر شأن المال وعظم قدر المال وأصحاب المال .

واذن ليس العيب عندك أيها العامل صاحب العائلة ولا عندك أيها المفكر المعتمد فى رزقك على عملك العقلى بل العيب فى النظام الرأسمالى الحالى الذى بواسطته يسيطر أرباب المال على

أصحاب الفكر وأصحاب الحق وأصحاب العمل ، وان هـذا النظام قائم على الكذب وعلى النفاق والاستغلال بل الافتراس » .

وينتقد لطفي جمعة نظام الطبقـات فى مصر فى مخطوط عنوانه « سياسة الطبقات فى مصر » كتبه في مارس سنة ١٩٤٣ فيقول :

« يقصد بالطبقات تقسيم الأمة الى طبقات شتى فيقال راقية ووسطى ونازلة وغنية وفقيرة ومتعلمة وجاهلة ... الخ كالطبقات التى كانت فى فرنسا وروسيا قبل الثورة ولا تزال فى الهند والتى كانت فى مصر الفرعونية والتى قاومها الاسلام بنص القرآن الكريم « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وبأحاديث نبوية عدة كقوله عليه الصلاة والسلام « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » وقوله « الناس متساوون كأسنان المشط » ..

والآن ظهر للملأ فى مصر أن أبناء الذوات سـواء أكانوا من أصـل مصرى أو أصـل أجنبى وما يروى عنهم فى المجـلات والصحف وفى المجالس الخاصة والعـامة يثبت أن هذه الطبقة العاطلة الطفيلية أحط العائشـين فى القطر المصرى على الاطلاق ... الحقيقة أنه ليس فى مصر ارستقراطية وأن الذين كانوا يمثـلون الأسر الكريمة القديمة قد وصلوا الى دور الانحلال والانقراض .. ولكن فى مصر ألقابا وأموالا حصل الناس عليهـا بالطرق المعلومة وانما فى مصر أرستقراطية علمية وخلقية يتحلى بهـا أفراد قلائل أمثال المرحومين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين وسعد زغلول والسيد عمر مكرم وطنطاوى جوهرى وقليل غيرهم ممن حملوا أعبـاء الذكاء والعلم ومكارم الأخلاق ولهؤلاء أشباه فى كل أمة وكل جيل وهؤلاء يمثلون الفضائل ويعرفون لأمتهم حقوقها

ويقومون بواجبها ، أما طائفة المهوشين النهابين وقطـاع الطريق الذين أسسوا الشركات وبنـوا المصارف لينهبوها وسـلبوا أموال الأمة باسمها والذين تلاعبوا وتصيدوا أموال التركات والدوائر باسـم الحذق والمهـارة ، والذين دخـلوا السـياسة والوزارات واحسنوا التخلص بالخزائن العامرة والأباعد الضخمة والقصـور الفخمة ، والذين خـدموا الأجانب واستطاعوا أن يبيعوا أوطانهم بأرخص الاثمان وابخس الاسعار في سوق الخيانة ، والذين تغفلوا الدهر والأمة ونصبوا واحتالوا ونجوا من العقاب بالرشوة والتملق وهم مئات بل ألوف .. فهؤلاء مهما كثر مالهم وكبرت ألقابهم من أصحاب المقامات والدول والفخامة والفضيلة سواء كانوا من ذوى القبعات أو العمائم أو الطرابيش ، وسـواء كانوا ذوى مناصب أو أعمـال حرة كالطب والمحاماة والصحافة ، هؤلاء ليسـوا أرستقراطية ولا شرفاء ولا طبقـة راقية بل هم أوغاد ولصـوص وخـونة وقطاع طرق مستخفون ومتزيون بأزياء الشرفاء وان فروا من عقوبات الدنيا فلن يفروا من عقوبات الآخرة وان الله عز وجل بحوله وقوته صادق وعده » .

وكتب لطفى جمعة عن حالة الفلاح المصرى فى الثلاثينيات الأولى من هذا القرن وما يعانيه من شظف العيش وقسوة الملاك وأصحاب الأطيان معه وتعنتهم فى معاملته يقول فى خواطر المساء تحت عنوان « حالة الفـلاح » : « حيثما اتجهت فى ريف مصر سمعت الأنات ، واخترق أذنيك البكاء والشـكوى ، ذلك الفـلاح الذى بقى على حاله منذ آلاف السنين يسكن فى وحل ويشرب وحلا ويتدثر بثياب رثة ملوثة بالوحل ويموت ويدفن فى وحل .. اننى أشعر بالحزن الشديد لدى رؤية تلك الأكواخ المصنوعة من الطين وهاتيك الأبدان العارية أنصافها والوجوه الشاحبة والاطفال

الصغار يجرون بحبال ضئيلة بقرا وثيرانا تكاد تكون لسوء الغذاء وقلة العناية أشباحا لا أنعاما فأسأل نفسي هل هؤلاء المساكين الذين بلغ منهم الجوع والفقر مبلغه هم أحفاد ذلك الشعب العظيم الذى شاد الكرنك ورفع دعائم هيكل الأقصر وزين جدران الرمسيوم ومدينة هابو ؟! » .

وكتب يقول في مجموعة خاطراته سنة ١٩٠٨ « سمعت شخصا يسب الفلاح المصرى ويعيره بأنه كسول تنبال فلفت نظره الى أن الفلاح المصرى يعمل في الحقول أربعة عشر ساعة في كل يوم . وانه يكاد يكون لصبره واحتماله الشدائد مصنوعا من الفولاذ وأنه خالق ثروة البلاد ومؤسس مجدها وعزها ، وأن التنبال هو الذى يحصد الذهب حصدا ولا يعمل ساعة في كل عام ولو استحق الفلاح هذا الوصف ممن أغناهم فلأنه أفسح المجال لغيره فنهشوا لحمه وشربوا دمه ثم ذموه وأنكروا فضله !! » .

وقد شارك لطفي جمعة بقلمه ولسانه وجهده في الدفاع عن العمال وحقوقهم فبدأ يكتب في الصحف والمجلات في خدمة العمال واتجه نظره أول ما اتجه الى عمال العنابر بالسكة الحديد فكتب وخطب سنة ١٩١٢ في بولاق وفي اجتماعات عامة وفي مقر النقابة بالعتبة الخضراء وكانت الحركة العمالية في مصر حينذاك محاطة بجواسيس الحكومة والوكالة البريطانية ومن العمال أنفسهم ، فنسبوه الى تهييج الخواطر والعمل على الثورة ورشحوا لرئاسة مجلس ادارة نقابتهم سنة ١٩١٣ شخصا لا علاقة له بالعمال لأنه كان مرشح البوليس ومأمون العاقبة كما يقول .

وفي سنة ١٩١٩ تقدمت اليه نقابة عمال الترام بواسطة سكرتيرهم وهو رجل ايطالي وعرض عليه مرتبا شهريا فاعتذر وقال له « أنا مستعد لخدمة العمال بغير مقابل ... » .

ثم لم يلبث أن ظهر الأمير عباس حليم ونصب نفسه نصيرا للعمال ومدافعا عن حقوقهم وكانت تلك احدى مهازل القدر !!

ولم يدع لطفى جمعة فرصة الا كتب فيها عن العمال ومشاكلهم وحقوقهم تارة تصريحا ، وتارة تلميحا بالحديث عن حياة العمال فى البلدان الأخرى كمقالة « صفحة من حياة العمال فى أوروبا » المنشور بجريدة البلاغ الأسبوعى فى ١٩٢٩/١٠/٢٣ ومقاله عن أعياد أول مايو المنشور فى جريدة المساء فى مايو سنة ١٩٣٠ وقد جاء فيه « يتخيل القارىء الشرقى لخلو ذهنه من تاريخ تلك المظاهرات أنها فتنة سنوية يقوم بها جماعة الفوضى أو أنصار المشاغبين والحقيقة بعيدة عن ذلك لأنها حركة مطالبة بأمر يعتقده العمال حقا مقدسا لهم هو جعل العمل لثمانى ساعات فى اليوم حسبما قرر ذلك المؤتمر الدولى الذى عقد فى جنيف سنة ١٨٦٦ ... وقد انتحل الاشتراكيون هذا المبدأ ونادوا به لأن الثمانى ساعات هى أقصى ما يجوز تكليف العامل به ويؤملون أن يصل الاصلاح الاجتماعى بالعامل الى تخفيض ساعات العمل الى سبع ساعات أو ست أو خمس » .

وأنهى لطفى جمعة مقاله هذا بقوله « ان الحكومات المصرية يجب عليها أن تعنى بتحديد ساعات العمل وأن تنظم عمل النساء والأطفال مراعية فى حالتهم ضعف المرأة وحاجتها للراحة فى أوقات معينة ، كذلك يجب عليها حماية الطفولة من مطامع أرباب الأموال لئلا تعجز أجسامهم الصغار عن النمو فلا يعودوا صالحين للحياة فى المستقبل وطفل اليوم والد رجل الغد » .

ولم يكف لطفى جمعة عن الكتابة فى الجرائد والمجلات عن احتكار الأجانب للتجارة فى مصر وعن احتكار الشركات الأجنبية

لوســـائل النقل فى القاهرة (١) وعن ضرورة استثمار الأموال المدخرة فى انشـاء المصانع (٢) وعن التعـاون وحركته فى مصر ومحاربة الاستعمار الاقتصادى (٣) كما كتب مقالا بجريدة البلاغ فى ١١ ابريل سنة ١٩٢٩ تحت عنوان « الاشتراكية الحكومية وهل هى النظام المتبع فى مصر الآن» (٤) تحدث فيه عن نظرية الاشتراكية الحكومية التى نادى بها علماء الاقتصاد ورجال السـياسة فى أوروبا خـلال القرن التاسع عشر أمثـال أوبنهايم ورود برتوس ولاسال الذى نادى بتكوين جمعيات للانتاج تعينها الحكومة بالمال كالشركات التعاونية ، والى تدخل الدولة تدخلا اقتصاديا فى تعضيد الانتاج الزراعى والصناعى واشتراكها فى ذلك اشتراكا فعليا ، وكذلك مسيو ميلوان الذى ألقى خطبة فى سنة ١٨٩٦ فى سانت مانديه ونشرها فى رسالته سنة ١٩٠٣ وجاء بها « ان تدخل الحكومة يرمى الى انتقال أدوات الانتاج والمعاملة والتبادل من دوائر رءوس الأموال أى من أيدى أصحابها الأصليين الى دائرة الملكية الوطنية كلما نضجت تلك الأدوات وصارت صالحة للامتلاك الاجتماعى » ، يقول لطفى جمعة فى هذا المقال « ان خطبة سانت مانديه ليســت خطبة اجتماعية مرسومة على نظام المثل العليا أو المبادىء الفلسفية وانمـا هى بروجرام سياسة اشتراكية تنتهى بوضع يد الحكومة على المصالح الفردية ذات رءوس الأموال الضخمة التى تستغل بواسطة العمال المأجورين مثل السكك الحديدية والمناجم والمصارف وشركات المياه والنور والنقل والكهرباء » وينتهى من ذلك الى القول « هـذا

---

(١) « لعل وعسى » ، جريدة البلاغ فى ١٩٢٩/٧/٣١ .

(٢) « لعل وعسى » ، البلاغ فى يوليو سنة ١٩٣٠ .

(٣) البلاغ فى ١٩٢٩/٢/١ .

(٤) خواطر المساء ، جريدة المساء سنة ١٩٣٠ .

هو نظام الاشتراكية الحكومية وقد شرحناه بايجاز ... فهل هو النظـــام المطبق الآن فى مصر ؟ أو هـــو الذى ينتظر تطبيقـه فى المستقبل » وطبيعى ان لطفى جمعة الذى كتب هذا الكلام فى ظل نظـــام رأسمالى واقطاعى مستغل واستعمار اقتصـادى مستبد ــ ترك الاجابة على هذا السؤال للمستقبل .

لقـد كان لطفى جمعة يرى أن الاسـلام قد بنى على العـدل والمساواة فكتب يقول فى جريدة الدســـتور فى ١٩٤٧/٥/٦ « يمكننى أن أجزم قاطعا بدون خوف من نقد أو تجريح لما أقول بل يعضدنى فى رأيى كبار الفقهاء والمشرعين والمهتمين بالاصـــلاح الاجتماعى فى الشرق قاطبة ، ان دين الاسلام قد بنى على العدل والرحمة والاحسان والزكاة بل قرر حقوقا للفقراء لو قام الأغنياء بسدادها للمحتاجين والمعوزين طوعا أو كرها حسبما يوحيه اليهم القانون الاسلامى العام وتطور الأحوال الاقتصادية فى الشرق بل في العالم كله ، لما بقى فى تلك البلاد ذات الملايين المتعددة الآهلة بالسكان بل المكتظة بهم أثر للفقر أو المرض أو الجهالة .... فقد وصف القرآن اعطـاء المال للفقراء بأنه حق معلوم ... أما النص القاطع المانع الذى لا يقبل جدلا فقد ورد فى ست آيات من سورة النحـــل ، ففى الأولى نص على أن الذين فضـلهم الله فى الرزق ملزمون بالنفقة الكافية على من لم يفضلوا الى درجة المساواة ومن لا يفعل ذلك يعتبر عند الله ورسوله جاحدا للنعمة » .

وكتب مقالا بجريدة الدستور فى سبتمبر سـنة ١٩٤٥ يبين فيه « حقيقة الفوارق بين الاشتراكية العالمية والمشاعية الروسية » كما كتب مقالا عن العدالة الاجتماعية بجريدة الدستور أيضا يقول فيه ان التفكير فى الأسباب الاقتصادية للحرب الراهنة (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) نشر فى العالم نزعة جديدة ترمى الى تحقيق العدالة

الاجتماعية بين الناس وهى تحرير الفرد من العوز والمرض والجهل والظلم أى أنهـا الحـريات الأربع التى ذكرها الرئيس روزفلت ووعد العالم بتحقيقها ، والنزعة الى تحقيق العدالة الاجتماعية ليست جـديدة بل هى قديمة قدم العـالم ومعاصرة للاجتمـاع الانسـانى وأعرق من العدالة القضائية التى هى فنن أو غصن من شجرة العدالة الاجتماعية ولولاها ما تيسر للانسان أن يدعم العدل القضائى ، لأن مدار الرسالات السماوية تحقيق العدالة الاجتماعية وقوانين المصريين القدماء وشرائع حامورابى وحرجون الأول وكسرى وصولون ترمى الى العدالة الاجتماعية ، فالجدة التى ذكرت خاصة بمصر ليس الا لأنها ذكرت بيننا حديثا ولكنها نزعة قديمة متغلغلة فى النفوس جارية بين الصلب والترائب ·· والعـدل الاجتماعى هو ما نادى به القرآن الكريم على لسان محمد بن عبد الله وحققه فى حياته واقتدى به فى تعزيزه أبو بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عـبد العزيز وهو ما فنيت فيه أرواح أبطال فى أثينـا وروما ومكة والمدينة وبغداد وزهقت فى سبيله أرواح فى موسكو وبطرسبرج وسيبريا فكيف تسمى هذه العاطفة الضخمة بل العاصفة الضخمة نزعة جديدة ؟ وكيف نصف هذه الحقيقة الانسانية الكبرى التى ولدت مع الانسان بحداثة العهد ومعاصرة هذه الحرب ؟

ليست الثروة القومية عماد العدل الاجتماعى بل عماده عنصر خلقى وشعور طبيعى وميل فطرى الى العدل والرحمة ، فكلما طغت الأنانيـة وحب الذات وحل محلها الايثـار وحب الجار القريب والبعيد تحقق العدل الاجتمـاعى سواء كثرت الثروة القومية أو قلت .

والعـدل الاجتماعى أليف المجتمع الذى يحترم مبدأ حق السائل والمحروم ويصح فيه القول الكريم « ويطعمون الطعام على

حبه مسكينا ويتيما وآسيرا » . ولو ان بلدا جمعت فيه برزة الأرضين وشابت نفوس أهله المطامع والآثرة فلا يمكنه تحقيق العدل الاجتماعى مهما بذل المصلحون .

ولما كان نظام الرأسمالية على كل المحاسن المنسوبة اليه عند الأمم التى تدين به وتحافظ عليه قائما بطبعه على حب الذات والأعراض عن آلام الغير وتنمية الفردية أو تمجيد المنفعة والاشادة بالمذهب المادى فى التفكير والحياة فأصحاب المذهب يلجأون الى لون من الاصلاح الاجتماعى ويتخذونه درعا واقيا وعلاجا سابقا ومقدمة للنجاة من خطر محقق أو متوهم فهو طلاء ودهان وتغمية وتسكين لألم الداء وليس استئصالا للداء ، وترقيع للثوب البالى وخصف لحذاء ابى قاسم الذى ذهب مذهب الأمثال ...

ولو افترضنا أمة أحسنت استعمال العلوم وأسرار الطبيعة فى تنمية ثروتها الزراعية والصناعية وانتفعت بأرضها ومعادنها فأنتجت انتاجا يضارع سواها وقد تفوق عليه وان هذه الثروة الناتجة من الطبيعة والعلوم والجهود الانسانية قد استولى عليها أفراد وجماعات أخلتهم الطبيعة من حب الخير وعاطفة العدل وحسن الجوار وحب الجميل ، فهل يتحقق العدل الاجتماعى أم أن هناك شيئا آخر يسمو على الماديات ويحلق فى سماء المعانى والروحيات لا بد من توافره بجانب الثروة الواسعة والانتاج الغزير ؟! » .

هكذا كانت أفكار لطفى جمعة وكتاباته عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية فى الخمسينات من هذا القرن العشرين . ولو أن الأجل كان قد امتد به لرأى ان ما كان ينادى به ويبشر به قد أصبح الآن حقيقة واقعة ونظاما اجتماعيا واقتصاديا تأخذ به الدولة وتسير على نهجه .

لطفي جمعه

والصحافة والأدب والتاريخ والاجتماع

ترجع علاقة لطفى جمعة بالصحافة الى مستهل القرن الحالى ذلك انه عقب استقالته من مدرسة حلوان الابتدائية سنة ١٩٠٥ اتجه الى ميدان الصحافة ، وقد استمرت علاقته المبكرة بالصحافة ثلاث سنوات كتب خلالها بعض مقالات فى مجلة الجوائب سنة ١٩٠٤ ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية حتى فصل منها فسافر الى فرنسا لاتمام دراسته بجامعة ليون ، وفى جنيف أنشأ جريدتين هما صوت الشعب وايجيبت ثم عاد الى مصر فى سنة ١٩١٢ ولم ينقطع خلال سنى الدراسة بفرنسا عن الكتابة فى الصحف ، وخاصة جريدة اللواء التى ظهرت فى يناير سنة ١٩٠٠ لسانا لحال الحركة الوطنية التى كان يحمل لواءها مصطفى كامل والتى أخذت بعد ذلك طابع الحزب الوطنى الذى تكون سنة ١٩٠٦ ــ وقد كتب لطفى جمعة فى جريدة اللواء مقالات عدة فى المسألة المصرية خلال السنوات ١٩٠٨ ــ ١٩١٠ وتشير مذكراته التى دونها بفرنسا سنة ١٩٠٩ الى مراسلته المستديمة لجريدة اللواء .

وفى سنة ١٩٢٤ حاول اصدار مجلة أسبوعية باسم « الفكر الحر » ولكن المسئولين حينذاك خشوا من صدور مثل هذه المجلة لمجرد ما يوحى به اسمها ، فأرسل اليه المرحوم محمود فهمى

النقراشي وكان نائبا لمحافظ مصر خطابا في ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٤ جاء فيه « بناء على ما ورد من وزارة الداخلية بكتابها المؤرخ ٣١ يوليو الماضي نفيد حضرتكم بأنه لا مانع من الترخيص لكم باصدار مجلة أسبوعية علمية اجتماعية باللغة العربية باسم « الفكر الحر » بشرط أن تكون قاصرة على نشر الموضوعات الأدبية فقط والا تنشروا بها شيئا من الموضوعات السياسية أو الادارية أو الدينية مطلقا ما لم تحصلوا على الرخصة القانونية بذلك والا يلغى الترخيص باصدارها المعطى لكم ... » ولكن لم يقدر لهذه المجلة أن ترى عالم النور ...

يقول لطفى جمعة « ان الصحافة المصرية بعيدة عن الحرية الحقيقية بمراحل ، فكل جريدة منها تخدم فئة خاصة فتستر عيوبهم وتكتم أسرارهم وتستهين بشرف الحرفة في سبيل ارضائهم ، وبهذه الوسيلة تداس حقوق كثيرة وتهمل واجبات عظيمة ، واذا استمرت الحال على تلك المنوال تفقد قيمة العمل الجليل الذى أخذ الكتاب على أنفسهم القيام بأعبائه وتصبح أعظم قوة في العالم آلة حقيرة يديرها الاضداد والمتنافسون وينتفع بها قوم يشترون أقلامها بثمن بخس ، واذا وصلت الحال بنا الى ذلك الطور المخزى فتقييد حرية الصحافة أفضل من اطلاقها وأنفع ، لأن صمت الجاهل والخائن والمرائى والجبان خير من كلامهم ، وليعلم من بأيديهم زمام الصحف والذين يدعون قيادة الرأى العام أن كل سطر يدونونه ضد مبدأ الحق وضد ما توحيه الضمائر السليمة هو خطوة يخطونها الى مهواة الدمار الأدبى وخدمة جليلة يؤدونها الى كل من يريد غل أيديهم ووضع الكمائم على أفواههم » .

على انه وان كان قد حيل بين لطفى جمعة وبين اصدار مجلة يجول فيها ويصول بقلمه كيفما شاء فقد غذى الصحافة العربية

فى مصر على مدى أربعين عاما بمقالاته العديدة فى مختلف أنواع المعرفة من فنـــون وآداب وتاريخ وسياســـة واجتماع وفلسفة وتصوف لو جمعت لكانت مجلدات ضخمة عديدة ، فقد كتب فى مختلف الصحف والمجلات التى كانت تصدر فى النصف الأول من هذا القرن ، فكتب فى الجوائب سنة ١٩٠٤ ، كما كتب فى جريدة اللواء ما بين سنى ١٩٠٧ ــ ١٩١٠ وفى جريدة الظاهر سنة ١٩٠٨ وهى الجريدة التى كان يصدرها محمد أبو شادى ولعب على صفحات هذه الجريدة دورا كان له أثره فى قضية زواج الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد من كريمة السادات ٠

كما كتب فى جريدة البلاغ اليومى والبلاغ الأسبوعى مقالات عديدة فى المدة من مارس سنة ١٩٢٩ حتى أغسطس سنة ١٩٣٥، وضمن كتاباته فيهما تحت عنوان « لعل وعسى » و « خواطر المساء » كثيرا من آرائه فى السياسة والاجتماع والاقتصاد كما كتب فى مجلة الشئون الاجتماعية مقالات عن بعض مشـــكلاتنا الاجتماعية فيما بين سنتى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ٠

وعندما أصـدر المرحوم محمد خالد جريدته الدستور سـنة ١٩٣٨ كتب فيهـا مقالات علمية وأدبية وسياسية وبالأخص فى صفحتها وندوتها الثقـافية فى المدة من أغسطس سنة ١٩٣٨ حتى ســـنة ١٩٤٧ ، ونشر فيها ذكريات أدبية طريفة عن كتاب وأدباء عصره الذين طواهم الزمن كما كتب بعض المقالات فى مجلة الرسالة وأخرى اجتماعية وسياسية وأدبية فى المقطم سنة ١٩٣٧ ٠

وكتب نحوا من ثمانين مقالا فى مجلة الرابطة العربية التى كان يصدرها أمين سعيد فى الفترة من سنة ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ تناول فيها الوحدة العربية وقضية فلسطين ، كما نشرت جريدة العلم

اليومية سنة ١٩٣٠ بعض مقالات له وعندما أصدر الزيات مجلة الرواية كتب فيها نحوا من ٥٠ قصة صغيرة فيما بين سنتي ١٩٣٧، ١٩١٨ . وشارك أيضـــا بقلمه فى مجلة الكتاب والمقتطف والمعرفة والهلال وجريدة منبر الشرق التى كان يصدرها الشيخ على الغاياتى فيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤١ ، وكذلك مجلة اللطائف المصورة خلال مايو ويوليو سنة ١٩٤١ وجريدة الأهرام والزمان لصاحبها ادجارد جلاد ، ونشرت له مجلة البيان سنة ١٩١٢ ترجمة كتاب « الواجب » لجول سيمون .

وقد تناول لطفى جمعة فى هذه الكتابات الأحوال الاجتماعية والســـــياسية والاقتصادية والأدبية التى كانت سائدة فى نصف القرن الماضى وذلك بأسلوب صحفى منفرد تساعده فى ذلك ثقافته الشاملة والمامه بالآداب الأوربية ومتابعته لحركة الفكر العالمى .

ومما نشره على صفحات الجرائد رده على منصور فهمى على صفحات جريدة المؤيد سنة ١٩١٣ عندما وضع منصـــور فهمى رسالته عن المرأة المسلمة ،
La condition de la femme dans la tradition et l'évolution de l'Islamisme.

ومما جـاء فى هذا الرد « أن منصــور فهمى لو تناول أعظم المسائل السياسية واعضل المشكلات الفلسفية والاجتماعية وجاء فيها بأغلاط لا تغتفر وخلط فيها خلطه الذى ظهر فى رسالته ما كان عاقل ليجر قلما أو يرهف بنانا لأن للشئون العلمية فطاحلها وللأمور السياسية أبطالها فى ذات البلاد التى نشر منصـــور بها جهالته . ولكن الذى حركنى وهاج غضبى انما هو هجوم منصـــور على أعظم مقام فى العالم فى اعتبارنا والحط من كرامة دين يبجله أعداؤه ويحترمونه فى رسالة تدل على جهل صاحبها قراءة الأسطر

الأولى منها والامعان فى التقبيح والتشنيع الى درجـة أن كل سطر كان يستفزنا ويزعجنا مع شدة ميلنا للاعتدال فى الآراء وعـدم التحزب لقول دون قول قبل التأمل الكافى ووزن الأشياء » ثم تناول لطفى جمعة مزاعم منصور فهمى ورد عليها ردا موضوعيا .

وقد أشار الأستاذ أنور الجندى فى كتابه « المعارك الأدبية » صفحة ٣١٣ ـ ٣١٧ الى ان أبرز ما نشر من مقالات ردا على رسالة الدكتور منصور فهمى كان ما نشره لطفى جمعة فى جريدة المؤيد مفندا أخطاءه وأورد بعض ما جاء بهـذا الرد مما نشر فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٤ ومما جاء فيه « غريب جدا من منصور فهمى الشرقى المصرى المسلم أن يترك الوسط الاســلامى ، وسط علماء الأزهر ووطن جلال الدين السيوطى وابن تيمية والشافعى ويذهب الى باريس مقر الحاخام ليفى الاسرائيلى للبحث عن حقــائق الدين الاسلامى والاهتداء بنور هذا الأستاذ للوقوف على تاريخ محمد وحياته الخاصة والعامة .

« وانى اذكر منصورا بعبارة لا بد سمعها من الأستاذ ادوارد لامبير وهى قوله « اننى قبل أن أقصد مصر كان رأيى فى الاسلام مخالفا لرأيى بعد اقامتى بضعة شـــهور حتى اننى مضطر لتغيير ما جاء فى كتبى عن الاسلام عما دونته قبل ذهابى الى مصر .

« اننــا نعرف المصادر التى استقى منها منصـور وبئست تلك المصـــادر ، هى كتب المتعصـــبين من المستشرقين الذين يرمون بكتاباتهم أغراضا ســـياسية أكثر منها علمية . ان العاقل الكبير النفس هو الذى يرحل الى الغرب مملوء القلب بالآمال العالية فيعود الى وطنه وقد ازداد حبه لقومه ودينه وقد يرحل احدنا وهو ضعيف العقيدة ويعود الينا وهو شديد التعصب لملته وقومه .

يقول منصور فهمي في مقدمة كتابه ان هذه الرسالة تعطينا فرصة لاظهار المؤثرات السعيدة التى أثرت على تفكيرنا العلمى فقد ولدت مسلما وقضيت شبابى فى وسط اسلامى ثم رحلت الى باريس وحصلت العلوم بارشاد ورعاية العلامة ليفى بريل .

ومعنى هذا أن نشأته فى وسط اسلامى كانت حائلا بينه وبين النور الاسرائيلى الذى أشرق عليه من مجلس الأستاذ ليفى وهو فيما نعلم رجل خامل الذكر لم نسمع عن مؤلف من مؤلفاته » .

كذلك رد لطفى جمعة على الدكتور طه حسين عندما أصدر كتابه « فى الشعر الجاهلى » على صفحات جريدة المقطم سنة ١٩٢٦ وقد جمع هذا الرد وأضاف اليه فصولا وأبحاثا أخرى كثيرة بين دفتى كتابه « الشهاب الراصد » وما أن ظهر هذا الكتاب حتى تلقفته الأيادى وتحدثت عنه الصحافة فى مصر وغيرها من بلدان العالم العربى والاسلامى كجريدة الأهرام والمقطم وعكاظ والمقتطف والمجلة القضائية البيروتية وجريدة الصراط المستقيم الفلسطينية وكوكب الشرق وغيرها .

وكتب اليه شكيب أرسلان من لوزان سنة ١٩٢٦ يقول « منذ مدة طويلة أحدث نفسى بمكاتبتكم وتصدنى عن ذلك الأشغال وكان مرادى أن أرجوكم جمع تلك المقالات التى نشرتموها فى المقطم وغيره فى نقض كتاب الشعر الجاهلى ، فما أنا الا والجرائد تكتب صدور هذا المجموع وكوكب الشرق ينشر المقدمة الغراء بل الخريدة العذراء التى هى مقدمة الكتاب فراقتنى جدا وسرنى نشر هذا المجموع كثيرا وجئت أهنئكم وأشكركم وأتمنى أن يقيض الله لهذه الأمة ممن يملك ملكتكم فى البلاغة وسداد الحجة ومتانة التركيب وقوة الروح عددا كبيرا وأن يمتعنا طويلا بفضلكم وأدبكم والسلام

عليكم ورحمـــة الله وبركاته » . كما أرسـل اليه المرحوم أمين الريحـاني أديب لبنان الشهير خطابا من الفريكة سنة ١٩٢٧ جاء فيـه : « جاءني كتابك الشهاب الراصـــد يوم كنت ، بعد أسبوع من المرض ، متكاسـلا ففتحته لأقرأ الصفحة الأولى منه ثم قرأت جزافا بعض صفحاته الوسطى فعاد النشاط الى مقرونا بالكثير من الاعجاب وباليسير من الغيظ ، أخذت بعد ذلك جادا فى المطالعة فطالعت الكتاب من الصفحة الأولى الى الصفحة الأخيرة ، من علمك وأنت العالم الرصين ، الى أدبك وأنت الأديب المتهكم ، وقد الفيتك بين الرصـــانة والتهكم هادىء النفس تارة تبحث البحث الذى كله لذة وفائدة وطورا تثب وثبة واحـــدة من البحث الى المرافعة وأنت المتشرع الماهر الذى يحسن الجـدل ويحسن تبشيم الحجة وفى كلا الحالين رثيت لخصـمك أو بالحرى لخصـم الشـــعر الجاهلى ... ولكننى أسـائل النفس وأنا أغضـب غضـبك للعرب والشعر العربى هل احتوى صدر الأستاذ طه حسين يا ترى على كل ما صـــورته لنا من البغض والغل والحقد والضغينة للعرب وللشعر الجاهلى ؟ ... وهل كنت فى حملاتك عليه منصفا بل هـل كنت متساهلا وأنت القائل فى صفحة ٢٤ من كتابك « ولن نسلك فى سبيل النقد سوى سبيل التسامح » ... عجيب أمر الأدب فى هذا الشرق شرقنا وأعجب منه أمر الدين ، فانك لترى أديبا يكتب كتابا ضخما فى الشـعر وغرضه الحقيقى هو أن يجحد ما جاء فى الكتب المنزلة ثم يقوم أديب آخر فيكتب كتابا هو بحر فى الأدب العربى والأوروبى وآية فى البحث العلمى والجدل والنقد وغرضه الأكبر .. »

وكتب اليه المستشرق المجرى الدكتور عبد الكريم جرمانوس فى سنة ١٩٣٥ « قرأت كتابكم النفيس الشهاب الراصـد واستفدت

منه كثيرا .وأعجبنى دراستكم وعمق تفكيركم ··· أرجو أن تتيحوا لى الفرصـــة لزيارتكم فى أى وقت يوافقكم لأتلقى عن بعد علمكم وارشادكم فى البحث عن الأدب العربى ومصادره » .

كما كتب أسعد خليل داغر فى جريدة المقطم فى ١٩٢٦/١٢/٢٨ عن كتاب « الشـــهاب الراصـــد » يقول ان لطفى جمعـــة أودع هذا الكتاب بحثا دقيقا عميقا فى الانتقاد وردا علميا تاريخيا على الكتاب فى الشعر الجاهلى فأتحف القراء بمباحث طريفة مطولة فى فن النقد فى الآداب العربية والفرنسية وأسهب الكلام على الشعر الجاهلى وأورد كثيرا من الادلة على كونه مرآة لنفوس قائليه وعقولهم واستشهد بأقوال علماء المشرقيات على صحته وثبوته وأشبع هذه الموضوعات وغيرها بحثـا وتفصيلا فى صفحات دلت محتوياتها على غزارة علمه وسعة اطلاعه وشـــدة تضلعه من آداب اللغة العربية ورسوخ قدمه فى فن النقد وعلم المناظرة فشـغل فراغا كبيرا فى آداب اللغـة العربية وقضى لطلابها حاجتين كانتا الى الآن من أمس الحاجات · الأولى علمية وهى معرفة فن النقد · والثانية عملية وهى العمل بموجب أصوله وقواعده » ·

وقد أشار الاستاذ أنور الجندى فى كتابه المعارك الأدبية صفحة ٣٢٩ وما بعدها الى كتاب « الشهاب الراصد » وأورد بعض ما جاء بمقدمته ·

وعندما وضع عبد العزيز فهمى كتابه عن « مشروع كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية » سنة ١٩٤٤ انبرى لطفى جمعه لنقد هذا الكتاب على صفحات الجرائد ونشر عدة مقالات فند فيها هـذا المشروع الذى أسماه «المشروع غير المشروع» كما فند ما جاء به من آراء وأفكار مما جاء فى هذا الرد « ان الأخذ بهذا المشروع فيه زوال لكل أثر للنعرة القومية وختام بآب العزة الوطنية وتسـليم آخر

سلاح فى الدنيا والدين واستسلام ليس بعده استسلام » ، ثم يقول: « ان اللغة العربية أغنى وأفسح وأعظم وأوضح وأعرق من سائر لغات الأرض بما فيها اليونانية واللاتينية التى يتغنى عبد العزيز فهمى بأحرفها ويهيم صبابة فى رسومها العقربية الملتوية ونغماتها وأصواتها العاجزة عن النطق بالحاء والخاء والقاف والعين والتمييز بين الدال والضاد والتاء والطاء وبين السين والصاد ، لقد جعل أكابر علماء الأمة للغة شأنا لا يقل عن شأن الشريعة ، وقد استباح المؤلف خرق اجماع أهل السنة على تقديس اللسان العربى الذى نزل به القرآن والذى نطق به رسول الله فى سنته وشريف حديثه وسجلته الكتب الستة الصحيحة واحترمها المستشرقون جميعا » .

وقد كان لهذه المقالات الفضل فى وأد هذا المشروع فى مهده وصرف النظر عنه .

وقد شارك لطفى جمعه فى المعارك الأدبية التى ثارت بين الأدباء والكتاب فى نصف القرن الماضى وكثر الجدل حولها على صفحات الجرائد والمجلات من ذلك ما سجله الاستاذ أنور الجندى فى كتابه « المعارك الأدبية » عن كتاب « النثر الفنى » للدكتور زكى مبارك ورد لطفى جمعة على ما جاء فى هذا الكتاب من أغلاط ومغالطات وجنوح الى الشعوبية (١) وذلك فى جريدة البلاغ فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، كذلك ما ثار بين لطفى جمعه ومصطفى صادق الرافعى على صفحات جريدة المساء فى ١٩ ابرايل سنة ١٩٣١ حول كتاب « أوراق الورد » (٢) .

ولا يفوتنا تلك المناظرة التى جرت بين لطفى جمعه والمرحوم

---

(١) المعارك الأدبية صفحة ٣٦٠ ـ ٣٦٦ .

(٢) المعارك الأدبية صفحة ٣٦٨ وما بعدها .

زكى مبارك حول موضـــوع « يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية » بمدرج كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٤٠ وقد أيد الرأى الدكتور زكى مبارك فى حين عارضه لطفى جمعه (١) ·

وقد كتب الأستاذ منصور جاب الله مقالا فى جريدة المصرى فى ١٩٥٣/١٢/٢٦ عن « النحول فى التأليف والأدب » ذكر فيه أن مشادة أدبية حادة نشبت بين المرحومين الشيخ عبد العزيز انبشرى والأستاذ محمد لطفى جمعة حول كتاب « حديث عيسى بن هشام » المنســـوب للأديب الكبير محمد المويلحى ووقع الخلاف عقب وفاة المؤلف بعام وبعض عام فقد ذهب لطفى جمعة الى أن ذلك الكتاب الخالد لم يكن من وضع محمد المويلحى وانما ألفه والده المرحوم ابراهيم المويلحى ونشره منجما فى مجلة « مصباح الشرق » وبعد موته سوى ابنه محمد المويلحى من المقالات المتفرقة كتابا مطبوعا نشره على الناس ولم ينته الجدل فى هذا الموضوع الى نتيجة بعينها ,وانما طوى فى غمار الاحداث والهزاهز الاجتماعية والسياسية ·

وقد تنـــاول لطفى جمعة فى كتاباته الصـحفية مشـكلاتنا من مختلف زواياها واقترح لها الحلول فكتب عن واجب الشباب ازاء مشكلاتنا الخلقية فى جريدة الدستور سنة ١٩٤١ (٢) وكتب عن الأسرة تحت عنوان « علم الاجتماع يلقى ضـوءا جديدا على تكوين الاسرة ,(٣) كما كتب عن تطبيق علم الاجتماع على الحياة الجنسية(٤) وكتب عن « مشكلة الطفولة المشرة » كما تناول « مشكلة المخدرات »

---

(١) المعارك الأدبية صفحة ١٧٦ ـ ١٧٩ ·

(٢) الدستور فى ١٩٤١/١٢/٢ ·

(٣) البلاغ الأسبوعى فى ١٩٢٩/١٢/١٨ ·

(٤) البلاغ الأسبوعى فى ١٩٢٩/١٠/١١ ·

فى خواطر البـلاغ تحت عنـوان (١) « هـل شفيت مصر من داء المخدرات » واقترح انشاء محكمة خاصة للمخدرات كمـا أنشئت محكمة خاصة للمرور ، كما تحدث عن التربية الاخلاقية (٢) تحت « لعل وعسى » فى جريدة البلاغ وقال « نريد ثورة اصلاح فى الاخلاق ونريد أنظمة جديدة تتفق مع التطور الحديث وواجبات جديدة تترتب على الحقوق الجديدة » وطالب تحت عنوان « لعل وعسى » بجريدة البلاغ (٣) بانشاء متحف اجتماعى لاعطاء صورة صادقة علمية عن حياة الشعوب وليكون آصدق مصدر للتاريخ الاجتماعى الصحيح وبمثابة المراجع اللغوية والعلمية والسياسية نضعها تحت تصرف الباحثين فى الاصلاح الاجتماعى » .

وكتب فى البلاغ الاسبوعى مباحث اجتماعية عن الاسرة والزواج والمرأة المصرية ، كما كان من أوائل من كتب عن النهضـة النسائية وله مجموعة مقالات نشرها سنة ١٩٢٥ بامضاء الخنساء ومن ذلك ما كتبه سنة ١٩٣١ يقول : « ان الأسرة التى هى عماد الحيـاة ودعامتها ووحدة الوجود القومى وأسسه وعنوان الذاتية الشعبية وجوهر الوجود الوطنى ولبه ، الاسرة بمعناها الذى تتخيله وتتوقعه وتتمنى وجوده فى بلدنا هى لا وجود لها بمصر .

الأسرة كما يفهمها الألمان والانجليز والسويسريون لا وجود لها عندنا ... عندنا قصور وبيوت وثروات وعندنا مظاهر جذابة وأموال طائلة ثابتة ومنقولة ولكن ذلك الركن الركين الهادىء الذى يطمئن اليه الرجل والمرأة والولد ... ذلك الركن الذى ينبت فيه الطفل فيعرفه ويألفه ويحبه ويحن اليه طول حياته مهما شط المزار وبعدت

---

(٦) خطواطر البلاغ ، البلاغ فى ١٩٢٩/١٢/٥ .

(٧) البلاغ فى يوليو سنة ١٩٢٩ .

(٨) لعل وعسى جريدة البلاغ فى سنة ١٩٢٩ .

الدار ٠٠٠٠ ذلك الركن الجميـــل رمز الأمن ٠٠٠ الذى أراده الله مصدرا للمودة ومقرا للرحمة وشادته الشرائع السماوية والقوانين الوضعية على الحب والمنفعة المتبادلة ، ذلك الركن لا يتمتع به مصرى على الاطلاق ٠٠٠٠ ان الذين ينكرون قولى انما يريدون الدفاع عن عيوبنا وتأبى كبرياؤهم الخضوع للحقيقة ٠٠٠٠ ان مسألة الأسرة تنصب مباشرة على حياة الأولاد وتربيتهم وهم كما لا يخفى عمـاد المستقبل وأمله وعدته وعتـاده ووسيلته المرجوة وثمرته المرتقبـة ولا يدلنا على حال البيت والأسرة شيء كحال الشبان والفتيان الذين شبوا عن الطوق وخاصة أهل المال والفراغ والعلم القليل والذين ينتمون الى الطبقات المزعوم أنها عالية لان أفرادها مياسير ٠٠٠٠ على الأمة وحدها ولا أذكر الحكومة مطلقا فى هذا المجال لأن الأمة التى تتطلع الى الحكومة فى كل حال تستحق أن تعتبر قاصرة لم تبلغ سن الرشـــد ، على الأمة أن تهيىء للمرأة الفقيرة وسـائل التعليم وتفتح فى وجهها باب الرزق لتجد البنت المصرية من بنات الشعب حيـــاة الاستقلال الاقتصادى وهو يمكنها من العمل لتعيش بكدها كالبنت الأوربية ، فاذا شعرت بالاستقلال الاقتصـادى لا ترتمى على أقدام أول من تلقى من الرجال طمعا فى الزواج أو المال أو الحب المحرم ٠

يقول بعض المصلحين ان الأساس لاصلاح الأسرة تضييق نطاق الطلاق وتحريم تعدد الزوجات ويبنون رأيهم على أن المرأة المسلمة التى تخشى الطلاق وتخشى التعـدد تقضى حياتها مهددة فى بيتهـا وسعادتها غير آمنة فى خدرها ، فتنشأ فى نفسها فكرة الغيرة على زوجها ، وهذا صحيح وأعتقد أن التشريع الخاص بالزواج لا يزال بعيدا عن الغاية المقصودة وأرى عدم التعدد الا لضرورة قصوى لان نص الكتاب « ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » صريح ولا يحتاج الى تأويل فهو جزم بعدم العدل وينصب على الحظر لا على الاباحة ٠

أما تسهيل الطلاق فمنكر ذميم ولا يصح السكوت عليه ولا يجوز الطلاق فى نظرى الا فى أحوال الاستثناء المحددة مثل المرض المعدى والجنون والزنا ، أما العقم فلا يجوز أن يكون سببا للفراق الا اذا ثبت ثبوتا قاطعا أنه من جانب المرأة وضرورة النسل للزوج ، ومع ذلك فليس العقم بمـانع من حسن العشرة ودوام الألفة ، ومن هم هؤلاء الآباء الذين تحتم عليهم الطبيعة أو الأخلاق أو أحوال الحياة أن يكون لهم حتما أولاد ؟

اذا خطونا هذه الخطوة فى التشريع فربما نضمن للمرأة المصرية اطمئنانها فى بيتها فلا تعود تحتج بأنها مهددة وأن حياتها البيتية « على كف عفريت » وأنها لا تعلم متى يعقد زوجها على غيرها فنقضى على مشكلة الضرائر واختلاط الأنساب ومعاداة الاخوة من بطون شتى ، يجب علينا أن نبذل لنسعد المرأة المصرية ونعينها على ايجاد ذلك الركن الركين الذى أسهبنا فى منافعه . فالمرأة المصرية أمنا وأختنا وبنتنا وزوجتنا ومربية أبنائنا ومولدة أولادناو وممرضتنا فى علتنا وجدتنا وعمتنا خالتنا ونحن محوطون بها من جميع جهات حياتنا البيتية وهى أس الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة » .

ويكتب عن التربية الأخلاقية فى جريدة البلاغ تحت « لعل وعسى » سنة ١٩٢٩ يقول : « ليست العبرة بالكتابة والوعظ والنصح البرىء فى الكتب والصحف السيارة وانما العبرة بالقدوة الحسـنة والمثال الطيب وهذان لا يكونان الا فى البيت والمدرسة ، فالبيت ودعامته الأم وأخلاق الوالد وسلوكه فى بيته من استقامة وفضيلة وقناعة وأدب جم وحسن فى المعاملة وشفقة ظاهرة وحسنات دائمة لا تنقطع فلا يقع بصر الطفل وسمعه الا على كل جميل وكامل وطيب على قدر الطـاقة ، والمدرسـة تكون القدوة فيها للناظر والأساتذة والتلاميذ » .

يقول الأستاذ أنور الجندى فى كتابه « أعلام وأصحاب أقلام » ص ٣٣٥ :

« يمثل لطفى جمعة صورة نادرة من صور المصاحفين الذين ارتبطوا بالصحافة سنوات طويلة يكتبون فيها كل أسبوع مقالات متفرقة فى موضوعات مختلفة تنتظم الأدب والسياسة الدولية والاجتماعية والفلسفة والفن ٠٠٠٠ كان لطفى جمعة يكتب فى الصحف منذ مطالع شبابه وقد قرأت له فصولا فى المؤيد واللواء منذ عام ١٩١١ وكان يستكمل دراسة الحقوق فى جامعة ليون ، ومنها معركته مع الدكتور منصور فهمى سنة ١٩١٤ حينما هاجم رسالته للدكتوراه التى كان موضوعها « حالة المرأة فى التقاليد الاسلامية وتطورها » ، ثم يبرز من بعد فى فصول متوالية فى مجلة البلاغ الأسبوعى عام ١٩٢٩ ثم يستأنف فصوله الأسبوعية فى الصحف والمجلات الأدبية من البلاغ الأسبوعى الى البلاغ اليومى عام ١٩٣٢ ويستمر سنوات متوالية الى أن ينقل فصوله الى مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٧ ثم يتابع كتاباته فى الرسالة والثقافة وفى عديد من الصحف والمجلات الى قرب وفاته فى يونيو سنة ١٩٥٣ ٠

وتمثل مجموعة مقالاته التى تربو على الألف عصارة فكر فيلسوف وعالم مفكر عاصر تطور الفكر الانسانى خلال أكثر من أربعين عاما لم يتخلف فيها عن القراءة والمراجعة والبحث لكل الانتاج الفكرى الغربى ، فهو يلاحق الآثار الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية فيعرضها عرضا شائقا ويكشف عن رأيه فيها على نحو بالغ الدلالة على ايمان المفكرين فى هذه الفترة ، ويعرض مختلف نظريات الكتاب العالميين فى الدين والموسيقى والتاريخ والاجتماع والنفس والفن ويولى الاهتمام بما يكتب عن الشرق والغرب ومصر والاسلام ، ثم يتناول ذكرياته عن العصر منذ مطالع القرن ويصف

مجالس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وذكريات المسرح ورحلاته الى أوربا ومشاهداته ومحادثاته ومقابلاته للشاعرين اقبال وشـوقي وللمؤرخ الانجليزي بلنت وللقـانوني لامبير وكثير من الاعلام في الشرق والغرب •

وهو لا يتوقف عند كتابة المقال الطويل بل يكتب المقال اليومي القصير تحت عنوان « لعل وعسى » •

وقد أشار الى ذكريات المحاماة وتحدث عن صداقته لأربعة من كبار محامي عهده عمر لطفي ومحمد فريد واسماعيل زهدي وأحمد لطفي • كما تحدث عن ذكرياته في الحي اللاتيني في القاهرة وما كان يطلق على قهوة أفندية في سيدنا الحسين مقر المتصوفين والمجاذيب وبعض الدجالين وكانت قريبة من الباب الأخضر ـ كما تحدث عن ذكريات حضـوره مجلس الشيخ محمد عبـده ••• وهكذا تطوف كتابات لطفي جمعة المنشورة في الصحف والمجلات بكل الذكريات والطوائف والأبحاث ، فترسم صورة منوعة لعقل باحث قلق لا يمل عن متابعة تطور الفكر بالرغم من أعماله في مجال المحاماة ثم هو بعد ذلك معارك ومناضل ـ له مساجلات هاجم فيها طه حسين وزكي مبارك ورشيد رضا •

ولا شك أن آثاره المنشورة هذه تحتاج الى جهود في تنسيقها ونشرها تحقيقا لغاية كبرى هي اعادة بعث آثار كتابنا وتقويمها من جديد ، ولا شك أن هذه الآثار تمثل دائرة معارف كاملة في كل فن وعلم » (١) •

---

(١) الأستاذ أنور الجندي ، أعلام وأصحاب أقلام ، ص ٣٣٥ ـ ٣٤١ •

القصة والمسرح عند لطفي جمعه

ذكرنا أن لطفي جمعة بدأ في صيف سنة ١٩٠٠ يقرأ بعض كتب الأدب العربي ويحفظ الشعر القديم والحديث ويشتغل بتراجم بعض العظماء ، ويذكر أنه نقل بعد فترة وجيزة قطعة مكبث من الانجليزية الى العربية نقلا رديئا ومثلها لفيف من تلاميذ المدارس وقلد المؤلفات التمثيلية في قصة أسماها « اللصوص الكاسرة في الجبال المقفرة » يقول انه خاطر بمال في طبع هذه القصة ولكنه لا يدرى أين هى ولا ما جرى لها وأنه ظل خجلان عشر سنوات من عنوانها !!

ويهمنا في هذا المقام أن نقول ان ذلك يلقى ضوءا على تعلق لطفي جمعة فيما بعد بالتأليف المسرحي وهو ما سنعرض له بالتفصيل في موضعه ·

وفي سنة ١٩٠٢ أخذ يقرأ مزيجا من مؤلفات تولستوى وكونان دويل وفيكتور هيجو وشكسبير بغير مرشد ولا غاية ولا خطة مرسومة لان مناهج المدارس على ما ذكرنا كانت قاصرة خاطئة تافهة ، فكان يتسقط الكتب والمجلات ويوجه نفسه بنفسه توجيها حرا أساسه الشوق الشديد الى المعرفة ·

وفي صيف سنة ١٩٠٣ عندما كان في السادسة عشرة من عمره

عقب امتحان السـنة الثانية الثانوى وفى بداية العطلة الصيفية استقل قطار المرج وهو من قطارات الضواحى متوجها لزيارة أديب معروف لا يعلم عنه الا أنه يقطن الزيتون ولكن لا يحفظ له عنوانا ولا مقرا ثابتا ، فلما ترك محطة الزيتون رأى شارعا كبيرا محاذيا لخط السكة الحديد وفى الشارع مركبة أنيقة يقودها حوذى نظيف حسن الهيئـة وتبين فى المركبة سيدة حسناء تتلفت نحو القطـار وكذلك الحوذى ثم اختفت المركبة والحوذى والحسناء ٠٠٠٠ علق هذا المنظر بذاكرة لطفى جمعة وكان كما يقول « كافيا لتوليد الفكرة التى أنتجت فى « بيوت الناس » ونزلت من القطار وأنا أحمل بذرة الكتاب الذى ألهمت فكرته فصار فى أحشاء ذهنى جنينا » ٠

وظل لطفى جمعة يطوف شوارع الزيتون وقد تملكته فكرة الكتاب واتخذت كل مركبة وكل حوذى شأنا خاصا لديه ، وأخذت الحوادث ترتسم فى ذهنه وبطولة الحوذى الأنيق وغموض الحيـاة المحيطة بالحسناء والمركبة ٠٠٠٠ أخذت كلها تتكون فى ذهنه كتماثيل من سحاب أو بخار أو ألوان زاهية لا تلبث أن تحلق حتى تزول ٠٠٠

ووصل الى منزله وأخذ يكتب على الورق أسماء ووقائع ويتذكر بعض الحكم لتزيين فواتح القصص وخواتمها قبل أن يعرف ما هى القصص !!

وهكذا بدأت مجموعة « فى بيوت الناس » وهى بحق أول قصة مصرية كتبت فى مطلع القرن العشرين ، وفيها قصص قصيرة فكانت جرأة منه على طريقة لم يعرفها القراء ولا الكتاب فى مصر ، وقد تم الكتاب وطبع بعد ستة أشهر فى يناير ١٩٠٤ ، وقد أراد لطفى جمعة فى هذه الباقة القصصية أن يعبر عن بعض المبادىء التى كانت تزدحم بها نفسه ولم يكن بطبيعة الحال يعرف شيئا عن قواعد فن القصـة ولا طرائق التأليف الخيالى ٠

ونذكر فى هــذه المناسبة أن الدكتور محمد رشــدى حسن الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة وضع فى يونيو سنة ١٩٦٠ رسالة ماجستير عن « أثر المقامة فى نشأة القصة الحديثة » ثم تقدم برسالة لنيل درجة الدكتوراه سنة ١٩٦٦ عن نفس الموضوع وأثبت فيها أن محمــــد لطفى جمعة هو مبدع الأقصــوصة المصرية بالمفهوم الحديث حين كتب مجموعته القصصية « فى بيوت الناس » ســنة ١٩٠٤ قبل أن يكتب محمد تيمور مجموعة « ما تراه العيون » سنة ١٩١٧ وقد قارن الدكتور رشدى بين هاتين المجموعتين ، فرأى أن السابق فى الزمن كان سباقا أيضا فى جعل أقاصيصه أقرب الى الأقاصيص الحديثة ، يقول الدكتور رشدى فى رسالته ص ١٤٠ : « لقد اقتربت أقاصيص « فى بيوت الناس » من مفهوم القصـــة الحديثة اقترابا وان كان غير ملاصق الا أن عناصر القصة من موضوع وشخصيات وعقدة قد اجتمعت فيها ومن ثم فاننا لا ننكر عليها أنها أول أقاصيص مصرية أنشأت فى العقد الأول من القرن العشرين » كما يقول فى ص ١٤٤ : « ان كتابات محمد لطفى جمعة القصصية كانت صدى آخر لدعوات الاصلاح التى قام بها جيــل من الكتاب الكبار منهم جمال الدين الأفغــانى ومحمد عبــده ومحمد المويلحى وانضم اليهم محمد لطفى جمعة بكتابته أيضــــا التى نقلت دعوات الاصلاح الى أذهان الناس فى هذا الثوب القصصى » .

ونذكر أيضا فى هذا الصدد أن مجموعة « فى بيوت الناس » قد أغرت المرحوم سليمان نجيب باقتباس هذا الاسم وتمثيل رواية تحمله على مسرح دار الأوبرا سنة ١٩٤٣ دون أن يستأذن لطفى جمعة فى ذلك أو حتى يدعوه لمشاهدة الرواية التى تحمل اســم مجموعته القصصية ــ فتأثر لطفى جمعة من ذلك تأثرا كبيرا وكتب الى سليمان نجيب يقول : « حضرة ولدى العزيز وابن أخى الأستاذ سليمان نجيب جمع الله له الحكمة والنجابة ، بعد التحية بلغنى أيها الشهم

النبيل أنك قمت وجمعيتك أنصار التمثيل فى مساء ٢٢ ابريل الراهن (١٩٤٣) بتمثيل رواية « فى بيوت الناس » التى اقتبست موضوعها عن ساشا جيترى واسمها عن عمك كاتب هذه الأسطر فلم أصدق الذى أخبرنى لاننى أعلم أنك وأنت مثال معرفة الواجب بين الأحباب ومثال عرفان الجميل والآداب أنك تبادر بدعوتى الى حضور هذه الليلة لأشاركك الغبطة ، ولا يمكننى أن أركن هذا التقصير الى النسيان ولا الى الظن بأنك تعتبرنى ممن تؤخذ أشياؤهم وتهمل أشخاصهم ... وأنت لا تنسى أن أول ما درج قلمك كان فى موضوع « فى بيوت الناس » اذ كتبت فى سنة ١٩٢٢ أو سنة ١٩٢٣ سلسلة قصص بطلها ذلك الحوذى بطل كتابى فى مجلة الكشكول فغزوت يا بطل الغزاة الموضوع منذ عشرين عاما وأكملت غزوك باقتناص الاسم فى سنة ١٩٤٣ وورثتنى ميراثا جميلا وأنا حى وضننت مع هذا بدعوتى الى الاحتفال الذى مثلت فيه الرواية ، فقل لى يا أبا داوود أيها الحبيب الودود وأنت مدير الأوبرا ورئيس الجمعية وزعيم الفن اذا لم يعاتب مثلك على هذا « الاتيكيت » فمن يعاتب واذا كان الكريم ابن الكريم والأديب ابن الأديب لا يرعى حقوق أصدقائه فمن الذى يرعى ؟ لا ريب أن هذا المسلك احـــدى ثمار العصر الحديث الذى يستحق من الصفات ما يستحق وهذا أمر بيننا والسلام عليك » .

وقد رد المرحوم سليمان نجيب على هذا الخطاب فكتب يقول : « يا سيدى وصديقى الحبيب والله ما فاتنى أن أدعوك لليلة أنصـــار التمثيل ولا نسيت ولا قصرت ، ولكنى فى هذه الظلمة القاتمة ومنشية البكرى ضاحية ، آثرت أن أدعوك لها فى حفلة نهارية سنقيمها ان شاء الله فى أوائل نوفمبر وتركتك تسمعها عن طريق الأثير والهواء فقد أذيعت وثق أن وجودك فى الدار وأنا على المسرح يفرحنى ويسرنى ويزيدنى قوة على قوة وان الدقائق التى تعطينى اياها كتـــابة أو

مشافهة لهى أسعد أوقاتى وما زلت دائما المخلص المطيع ، صديقك سليمان نجيب » ·

نعود فنقول انه من الغريب حقا أن أديبـــا كبيرا كالأستاذ يحيى حقى لا يشير الى محمد لطفى جمعة من قريب أو بعيد فى كتيبه عن « فجر القصة المصرية » الذى أصدرته المكتبة الثقافية ·

ونحن نذكر الأستاذ الكبير هنا بما كتبه لطفى جمعة عنه فى صفحة الفنون والآداب بجريدة البلاغ منــذ نيف وأربعين عاما فى ٢٢ يناير ســنة ١٩٣٠ تحت عنوان « القصة القصــيرة فى الأدب المصرى الحديث » اذ كتب يقول : « يحيى حقى ليسانسيه فى القانون ··· وقد نشر معظم قصصه القصــيرة فى السياسة اليومية وأختها الأسبوعية والفجر الأسبوعى وهو شديد الاسهاب فى التفصيلات ولا بأس بعلمه بنفسية أشخاص قصصه ويكاد يكون هو ومحمود تيمور من مدرسة واحدة فى اختيار الأشخاص غير أن تيمور يكتفى فى تقديم أشخاصه بقوله : « فلان طبيب أو باشا أو عبيط » ولكن حقى يعتمد فى الوصول الى الشخصية وتعريفها على التحليل فنجد شخصيته حية متحركة ومعظم شخصياته من الطبقة الوسطى وكذلك تغلغل فى الأوساط النازلة وفى مساكنهم الفقيرة وفى الأحياء البلدية ويصف أخلاقهم وأطوارهم ومشاكلهم ومشقات الحياة التى تعرض لهم ومشاجراتهم العائلية والبيتية وتربية أولادهم ··· واذا أردنا وضع حقى فى مكانته الأدبية فهو كاتب يرى الحياة الحديثة من وراء عقلية تركى متمصر ويصــفها على طريقة الأفكار والآراء والعادات الموروثة والمكتسبة التى تمر فى مخروط من البللور بألوان وزوايا وأوضاع تخالف الحقيقة أحيانا » ·

نعود فنقول ان محمد لطفى جمعة ألف بعد مجموعة « فى بيوت الناس » قصة أخرى باسم « فى وادى الهموم » وقد ألفها فى سنة

١٩٠٥ ويذكر الدكتور محمد رشدى فى رسالته سالفة الذكر أن لطفى جمعة قد تشبث فى هذه الرواية بمذهب الواقعية الذى يصور الناس كما هم فهو في ذكره للحوادث لا يبالغ ولا يتصنع وانما يعبر تعبيرا صادقا عن انفعالاته وأحاسيسه كفنان خالق » ·

ويقول الأستاذ أنور الجندى ان هذه القصة هى فى الواقع القصة الأولى كتبها لطفى جمعة على أسس الفن الحديث فى كتابة القصة وليست « زينب » الدكتور هيكل التى جاءت بعدها بسبع سـنوات (١) ·

وقد وضع محمـد لطفى جمعة على مدى خمسين عاما قصصـا وروايات مختلفة بعضها مطبوع أو منشور ، والبعض الآخر لا يزال مخطوطا ، منها القصـة الطويلة التى يسميها الفرنسيون Roman وهى تقع فى فصول عدة كرواية « عايدة » وقد نشرت فى حلقـات بجريدة البلاغ خلال المدة من ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤ ·

وقد كتبت مجلة المقتطف فى عددها الصادر فى فبراير سنة ١٩٣٣ أن المؤلف فى هذه الرواية قد « آثر أن يضع أفكاره وفلسفته فى أساليب حلوة من الرواية وموضوعات سهلة من القصص حرصا عليها أن تروح مستغلقة الفهم على أذهان الجمهور مذ كان فن الرواية والقصة أسمى فروع الأدب الصحيح المتحضر المنتعش وقد أصبح فى الغرب جماع علومه وآدابه وفلسفاته ومبادئه » ·

كذلك وضع لطفى جمعة رواية « الفتى العادل » وهى قصـة سيريالية نشرت فى حلقات أيضا بجريدة البلاغ اليومى سنة ١٩٣٠ ورواية « مختارة » وهى رواية من عهد المماليك وقد نشرت هى الأخرى مسلسلة فى جريدة الدستور سنتى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ·

---

(١) أنور الجندى ، أضواء على الأدب العربى المعاصر ، سنة ١٩٦٩ ، ص١٧٦ ·

ومنها الرواية الصغيرة التى يسميها الفرنسيون توفيل ولا تزيد عن بضع صفحات وتكون خالية من الحيلة مثل قصة « قرة العين » وهى قصة بهائية نشرت بالبلاغ سنة ١٩٣٤ وقصة « الشيخ مرعى صبيح » وهى قصة مصرية كتبها سنة ١٩٢٦ ونشرت بالمقتطف سنة ١٩٤٣ فى كتاب « موكب الحياة ، مجموعة قصص عالمية » ، ومنها الأقصوصة ويطلق عليها الفرنسيون والانجليز كونت Conte مثل « زهرة الجبل » و « الحب والجاسوسية » و « الشال الهندى » و « يقظة الضمير » و « الشريدان » ــ و « جرسون ! واحد شوب ! » وغيرها وقد نشرت بمجلة الرواية خلال سنة ١٩٣٨ .

ولم تقتصر كتاباته فى القصة على التأليف فحسب ، بل ترجم كثيرا من القصص عن الفرنسية والانجليزية لأشهر كتاب القصة فى انجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا وغيرها ، منها ما نشر تحت عنوان « مسامرات الشعب » كما نشر ما يزيد عن خمسين قصة صغيرة فى مجلة « الرواية » فى غضون سنتى ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ويذكر أن معظم هذه القصص الأخيرة بقلمه وان كان قد زعم فى معظمها أنها مترجمة « لتنجح » كطلب صاحب المجلة الأستاذ أحمد حسن الزيات !!

ولا ننسى فى هذا المقام تلك الباقة القصصية التى وضعها تحت اسم « ليالى الروح الحائر » وهى كما يقول عنها « مجموعة مقالات كتبتها فى ذكرى الماضى وبعض حوادث الحاضر وكانت مشروعا فى قصة كبرى كالبؤساء لفيكتور هيجو وعدلت عن ذلك لأسباب » . وقد ألف هذه الليالى فى القاهرة وجنيف بين سنتى ١٩٠٨ و١٩٠٩ وطبعها سنة ١٩١٢ .

ويروى لطفى جمعة كيف بدأ كتابة هذه الليالى فيقول : « عدت

الى منزلى فى عشية عيد فلم أكد أصل حتى شعرت بدافع قوى الى الكتابة دون أن أعلم ما أكتب وأذكر أننى لم أصبر حتى اضع ثيابى أو أستعد فى مكتبى فجلست على منضـدة فى المطبخ عليها سراج ضعيف النور وكنت شديد الجوع ولكننى رفضت الطعام وأحضرت ورقا وقلما وبدأت أكتب بغير انتظار ولا انتظام ولعله فى حالة تشبه الذهول أو البحران ، كنت أشعر أننى غير واع لما أكتب وأشعر أن فكرة قوية تقودنى وتدفعنى فكنت كالنشـوان تارة وكالصاحى اليقظ تارة أخرى وأخذت أكتب كالمسوق المرغم وكنت أتصبب عرقا وكان البرد شديدا وغرفة المطبخ باردة خالية من التدفئة فتنبهت الى معطفى فخلعته ولكن العرق لم يجف ولكن شيئا واحدا حـدث لى وأدركته ادراكا حسنا وهو أننى كلما كتبت شعرت بأن جزءا من العبء الذى على كاهلى يخف شـيئا فشـيئا وأننى أستعيد وعيى وصحوى . يا لها من ليلة تلتها ليال فى مصر وأوروبا ويا لها من محنة قاسية ولذة لا تقدر ... فلما كان الصباح ... صباح العيد ارتميت على فراشى بين الميت والحى ، فلما كان الظهر جمعوا الأوراق المبعثرة على منضدة المطبخ وعلى أرضه فألقيتها جانبا ولما أفقت وتيقظت واستطعت أن أقرأ وجدت كتاب ليالى الروح الحائر الذى بدأته فى سـنة ١٩٠٨ » .

وقد ذكرت مجلة الرسالة فى عددها السادس من السنة الأولى (ابريل سنة ١٩٣٣) أن الأستاذ جيب Gibb أستاذ الأدب العربى فى مدرسـة اللغات الشرقية بجامعة لندن ينشر مجلة متخصصة بالآداب الشرقية وكتب فى احدى أعداد مجلته سنة ١٩٣٣ مقالات عن « القصة المصرية » أوسع فيها الكتاب المصريين نقدا وذما ولم يعجبه أن يظهر فيهم أدب القصة الذى يراه بعيدا عن متناولهم وأنهم لم يصلوا بعد الى اتقانه لأنه موقوف بالطبع على كتاب أوروبا وقد جاء فى هذا المقال ص ١٥ العدد ٦ السنة الأولى ما نصه « أما ثانى

هذين الكتابين (الكتاب الأول ليالى سطيح ، للمرحوم حافظ ابراهيم) فهو « ليالى الروح الحائر » للكاتب السياسى والمؤلف المسرحي محمد لطفي جمعة ولقد سار المؤلف فى هذا الكتاب على طريقة المقامة بالدقة دون أن يلجأ الى السجع ويلاحظ فى كتابه « أثر المدرسة السورية الأمريكية واضحا » خصوصا فى هذا النوع من الانشاء المعروف باسم الشعر المنثور أو الشعر الحر ، أما المتحدث فى هذا الكتاب فهو روح غير مجسمة كما يفهم من اسمه وأغلب هذا الحديث فى انتقاد الأحوال الاجتماعية فى مصر ، ولقد أشار جورجي زيدان صاحب الهلال بحق الى جمال هذا الكتاب وفصاحة أسلوبه وفى نظرى أنه من هذه الناحية أهم منه فى الناحية الأخرى ناحية التعمق فى الأفكار التى تعرض لشرحها » ٠

والواقع من الأمر أن الأستاذ جيب ـ كما يقول لطفى جمعة تعليقا على ذلك ـ قد تعمق فى قراءة الكتاب فلم تعجبه النزعة الوطنية التى فيه فأراد مهاجمته على هذه الصورة فزعم أنه من نوع المقامات ليغمزه ٠٠٠ والحقيقة أن ليالى الروح الحائر أبعد ما يكون عن المقامات كما يعرف كل من له صلة بالأدب العربى ، والأستاذ جيب مقلد لا مبتكر فى نقده والدليل الثانى على تحامله أنه نسب استلهام الكتاب الى ما يسميه بالمدرسة السورية الأمريكية والذى يقول هذا القول عليه أن يثبت أولا أن كاتب ليالى الروح الحائر كانت له صلة قريبة أو بعيدة بهذه المدرسة ، فقد كتب لطفى جمعة هذه الليالى فى مصر وأوربا سنة ١٩٠٨ ولم تكن المدرسة السورية الأمريكية قد ظهرت فى عالم الوجود ، ولم يقرأ سطرا واحدا مما ألفوه بعد ذلك ، وكل ما قرأه من كتابها ـ كما يقول ـ كان فى سنة ١٩٢٢ بمناسبة قدوم صديقه أمين الريحانى الى مصر واحتفاله به فى الجامعة الأمريكية ، وقد طبع كتاب ليالى الروح الحائر فى سنة ١٩١٢ فى

مصر ولم يكن قد رأى الكتب الأعجمية المسماة بالمدرسة الأمريكية يقول لطفى جمعة فى أدب المهجر :

« اننى لم أفهم من كل ما كتبـوه فى المهجر سـوى كتاب ميخائيل نعيمه فى ترجمة صديقه جبران ولا أتعرض لنقد شعرائهم، ولكن الذى جعل لهم شهرة ذائعة استنادهم الى معـونة أقاربهم وأصحابهم الذين ما فتئوا يشـيدون بأعمالهم فى الصحف المصرية ولكن رجالا كالبستانى واليازجى لم يعيروا طريقتهم التفاتا » .

هذا هو رأى لطفى جمعة فى أدب المهجر وأدبائه فكيف يزعم الأستاذ جبيب أنه استلهم طريقتهم وأسلوبهم فى كتابه « ليـالى الروح الحائر » .

ولقـد تركت تلك الليـالى أثرا عميقا فى أدباء العصر وكتابه وشـعرائه فقد كتبت اليه الآنسـة مى فى ١٩١٣/١٢/٨ تقول : « يعجبنى نشاطك وتسرنى حميتك وتغرينى رغبتك فى ايقاظ شعلة الحياة العالية فى نفوس أبناء العصر ... يا سيدى ارفع صـوتك وتكلم ، اصرف شيئا من بيانك وارشد ، اعمل فى ملاشاة الجهل... ثم أرجو أن يكون لك الوقت لقولة كلمة طيبة كلمة اشفاق فى شأن المرأة المظلومة وأؤكد لك أن المظلومات كثيرات ، ان لفضلك أثرا فى النفوس فعالا .... انتهى دور الثناء وجاء دور العتاب . قالوا وعد الكريم دين عليه وقالوا على هذا القياس شيئا كثيرا فأين ليالى الروح الحائر أيها الروح المهتدى ... ان بى شوقا الى مراجعة بعض فصول ذلك الكتاب الجميل . ما زال شعر الأرواح يسـتفزنى طربا وان غابت عن ذاكرتى أكثر معانيه ، أما صفحة « ليس لى فى الدنيـا صـديق » فهى عنـدى أعظم من أن تنعت ، لأن لها فى نفسى صـدى عميقا » .

وكتب اليه الأستاذ أحمد الصاوى محمد سنة ١٩٢٣ يقول :
« لقد أحببتك لما قرأت الليالى ورأيتك تذرف دموعك الغالية حبا فى الانسانية الشقية المعذبة وكنت فتى لم يذق الحقيقة بعد رشفة من رضابها الشافى فسقتنى الليالى كئوس الحقيقة ولا تزال تسقينى وكل قطرة تطفىء ظمأ شديدا وتوقد ظمأ جديدا فلما أنعمت السماء على نعمتها الأولى والوحيدة والعظمى بمعرفتك عرفت أن حبى لك فى الماضى ذرة من حبى لك فى الحاضر وسيكون هذا وذاك ذرة من حب المستقبل ومن هنا أتى الخلود بل هـــذا هو خلود الحب أو الحب الخالد » ٠

وقد أشاد الأستاذ « جرمانوس » بليالى الروح الحائر فى كتابه عن تاريخ الأدب المصرى الحديث وتناولها بالنقد والتحليل ٠

أما القصص والروايات المخطوطة التى ألفها لطفى جمعة فهى كثيرة منها « الثعلب والحيوان » وهى قصة على لسان الحيوان وقد ألفها سنة ١٩٤٠ وقصة الروح والقلب وهى قصة مصرية ألفها سنة ١٩٣٩ ، وقصة عيد الأضحى وهى قصة خيالية فيها وصف حيـــاة أديب مصرى فى يوم عيد الأضحى وينقصها التكميل النهائى وقد ألفها فى يونيو سنة ١٩٠٩ « وقصة نهر الحياة أو كأس الحياة » وهى قصة مصرية طويلة كتبها فى الفترة من سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٤١ وقصة ثمرة الجوافا ، كما يوجد الجزء الثانى من كتاب « فى بيوت الناس » وكان مودعا عند أحمد شوقى الشاعر فكتب اليه ســـنة ١٩١٩ يطلب اليه رده ان لم يكن فى طوعه طبعه ٠

وينبغى ألا يفوتنا أن نشير الى أن لطفى جمعة لم يضن بخبرته الطويلة فى كتابة القصة والرواية على كتاب القصة المحدثين فبذل لهم النصح والتوجيه وأرشدهم الى الطريق القويم فى معالجة القصة المصرية وكتابتها وأشاد بالمجيدين منهم وتناول أعمالهم الفنية بالنقد

والتحليل فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٠ وتحدث عن كتاب القصة القصيرة من المصريين ومن بينهم حسين فوزى ويحيى حقى وحسن محمود وسعيد عبده ومحمد السباعى وعبد القادر المازنى ومحمود طاهر لاشين ومحمود تيمور ومحمد شوكت التونى وأحمد خيرى سعيد وغيرهم ، كما تحدث عن بعض كتاب القصة القصيرة من السوريين أمثال الآنسة مى ونقولا حداد وغيرهما . ولقد عرف الأدباء وكتاب القصة للطفى جمعة منزلته فى الأدب والنقد وكتابة القصة المصرية بمفهومها الحديث وقدروا آراءه حق تقديرها وطلبوا اليه ارشادهم وتوجيههم ، فقد كان الشاعر أحمد شوقى يقرأ عليه مسرحياته الشعرية قبل نشرها فى مجلس خاص يحضره هو وعبد الرحمن الجديلى والدكتور سعيد عبده ونجله حسين شوقى ، كما كتب اليه الأستاذ أحمد الصاوى فى سنة ١٩٢٢ يطلب معاونته فى اعادة النظر الى أوجه النقص فى قصة « تاييس » .

وكتب اليه الأستاذ يوسف جوهر فى سنة ١٩٣١ يقول : « اننى أعرفك ولو أنك لا تعرفنى طبعا أعرفك كفرد فى غمار الجماهير المعجبة بك وأعرف فيك نصيرا نصوحا وهذا هو الذى جرأنى على الكتابة اليك بعد طول تهيب وكلى أمل فى أنك ستكترث لكتابى وتحقق لى ما أطمع فيه منك ... خيل الى أننى أستطيع أن أكتب القصة ثم خطر لى أن أعمل ماكتبت وهاهو بين يدى وأمنيتى أن تقرأه وترى رأيك فيه وقد حرصت على أن أعرضه على عطفك قبل تمام طبعه لأقوم ما أعوج بنصيحتك وأستدرك ما فاتنى باشارتك ... يشجعنى على طلبى ما أعرفه عنك من حبك للقصة ومجاهدتك لاحياء فنها فى مصر وعطفك على من يكتبونها .... اننى أعرفك قصصيا مجيدا معرفتى بك الكاتب والخطيب » .

وكتب اليه جورجى زيدان فى ١٩١٢/٦/٧ : « اننى عملت برأيك فى المواظبة على الخطة التى رسمتها لنفسى فى خدمة هذه

اللغة ... ويكفينى أن يكون العقلاء أمثالك راضين عن عملى » .

كما كتب اليه عبد الحليم المصرى سنة ١٩٢٢ يقول : « بودى أن أستعين بعلمكم ونبلكم على عمل أدبى ذلك هو تدوين مجد الشرق شعرا ولأخذ رأى أخوتكم فى هـذا الرأى ، وأرجو أن تسمحوا بمقابلتكم » ـ وكتب اليه الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى سنة ١٩٣١ على غير معرفة كما يقول : « وان كانت معرفته الروحية به وثيقة يطلب منه ارشاده وتوجيهه فى بحث موضوع الشخصية البارزة لادخال العنصر الأدبى فى بحثـه غير مقتصر على الأساس العلمى » .

وكتب اليه شكيب أرسلان من فيشى ١٩٣٦/٨/١٢ للتعرف به يقول : « حضرة الأخ الأديب الراسخ المحقق السيد محمد لطفى جمعة أكثر الله من أمثاله قرأت تحت هذا الاسم الكريم مقالات أخذت بمجامع قلبى وتشوقت الى معرفة صاحبها فاذا به قد لبى بلاسلكى الأرواح نداء وجدانى وبادأنى بكتابة حققت لى مرة أخرى ما صادفنى كثيرا من نجوى النفوس بدون سابق تعارف فها نحن أولاء اخوان أنا أشدهما اغتباطا بصاحبه ورجائى أن لا أحرم كتاباتك وسحر بيانك » .

وكتب اليه المرحوم اسماعيل مظهر فى ١٩١٩/٢/١٧ يقول : « ان تشجيعك اياى ليزيد من همتى ويضاعف من نشاطى واقدامى على العمل » .

وكتب اليه محمد أسد من ذلهى فى ١٣ صفر سنة ١٣٥٣ وهو فى الأصل كان نمساويا واسمه ليوبولد ويس ثم أسلم وأقام فى بلاد الحجاز ونجد أكثر من خمس سنوات درس فيها شيئا من اللغة العربية والعلوم الدينية ثم استقر بالهند ، كتب يقول انه أصـدر مجلة دينية شهرية علمية باللغة الانجليزية بقصـد احياء مبادىء الأستاذين الجليلين السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ الامام محمد

عبده رحمة الله عليهما وقد أسماها « عرفات » وان كثيرا من زعماء المسلمين يكتبون فيها أمثال الأمير شكيب أرسلان والعلامة أبو المكارم والدكتور محمد اقبال وغيرهم ويدعوه الى التفضــل عليه بارسال مقالات حتى لا تحرم مجلته منها » ، كما كتب اليه فؤاد فخر الدين الاندنوسى فى ســنة ١٩٤٢ يطلب منه الاطلاع على كتاب ألفه عن تاريخ دخول الاسلام الى أندونيسيا ويطلب منه توجيهه وارشاده وابداء ملاحظاته على مؤلفه •

* * *

لم يقتصر نشاط لطفى جمعة على كتابة القصـــة وانما اقتحم منذ نصف قرن ميدان التأليف المسرحى ، وقد أشرنا الى أولى محاولاته فى هـذا المجال ، غير أنه بعـد أن سافر الى أوروبا وغشى المسارح وشاهد كبار الممثلين والممثلات وهم يمثلون مسرحيات أكابر الكتاب والشعراء على خشبة المسرح أدرك بحاسته الفنية خطورة المسرح فى حياتنا الاجتماعية والســـياسية والأخلاقية فبدأ يضع مسرحيات بعضها من صميم واقعنا وحياتنا المصرية والبعض الآخر مستوحى من كبرى المسرحيات العالمية •

وقد مثلت له روايتان احداهما مسرحية « قلب المرأة » وقد قامت بتمثيلها فرقة جورج أبيض والشيخ سلامه حجازى على مسرح دار الأوبرا سنة ١٩١٦ وتدور أحداث هذه المسرحية عن أوجستا الأديبة الروسية التى عرفها فى لوزان سنة ١٩١٠ •

أما الرواية الثـانية فهى رواية « نيرون » وقد مثلت بدار الاوبرا سنة ١٩١٩ وقد مثلتها فرقة رشــدى ـ وحازت هاتان المسرحيتان جائزة التأليف التمثيلى سنة ١٩٢٦ •

أما المسرحيات المخطوطة فهى أعمال أدبية كاملة كنا قـد

تقدمنا بها سنة ١٩٦٣ للجنة احياء التراث بوزارة الثقافة والارشاد لطبعها واخراجها الى عالم النـور فظلت باللجنة أمدا طويلا ثم استرددناها !!

وهذه المسرحيات هى «حبيب القلب وحبيب الجيب» وهى رواية هزلية مقتبسة وضعها لطفى جمعة سنة ١٩١٨ ، ومسرحية «مصرع الحلاج» وقد وضعها سنة ١٩٤٢ عن حياة هذا الصوفى الكبير ورواية «خضر أرضك» وهى رواية مصرية هزلية باللغـة العامية وقد قرر معهد التمثيل الحكومى تدريسها للطلاب سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٨ ولم تمثل ولم تطبع ، و « يقظة الضـــمير » وهى درامة مصرية فى خمسة فصول وقد كانت هذه الرواية أمانة عند خليل مطران سنة ١٩٣٥ ؛ فاقتبسها شاعر القطرين مع أدمون تويما ومثلتها السيدة أم كلثوم سنة ١٩٣٨ فى فيلم سينمائى باسم « نشيد الأمل » وعنـــدما شاهد لطفى جمعة روايته تمثـل بدار سينما رويال منسوبة الى ادمون كتب الى خليل مطران خطابا جاء فيه « .. وعندما أسدل الستار على القصة ووقفت على الخاتمة الغريبة تأكدت ان الحوادث التى أفرغت فى قالب سينمائى ليست مجهولة لدى ولا بعيدة عنى بل وليست مجهولة لديك فمـا هى ياسيدى الاستاذ الجليل الا رواية «يقظة الضمير» الدرامة التى تشرفت بتقديمهـا الى شخصك الكريم فى نوفمبر سـنة ١٩٣٥ وبقيت فى حراسة عزتكم الى ديســمبر ١٩٣٦ .. ان فـولك فى خريف سنة ١٩٣٦ فى النقابة الزراعية اننى سأرى عمـا قريب ثمرات جهودى لا يزال يرن فى أذنى .. وهأنذا رأيتها على الشاشة البيضاء ولكنها مشوهة وممسوخة ومنسوبة الى غيرى .. فمـا أفظع تهكم القدر .. وانت تعلم ياأسـتاذى وياأخى أن حـرمان الأديب من ثمرة أدبه والمفكر من فائدة تفكيره ذهاب كل نعمة من الجماعة وتفرق كل كرامة واجلاب كل ضرر وادبار كل منفعـة

والعمل بكل جور وفناء كل حق .. فحاشاك أيها الخليل ياسليل أمراء بعلبك وخلاصة أصلاب كهنة هياكل الشمس أن ترضى ذلك الوهن لى وأنا أفتخر بصحبتك ؟ كيف وصلت حوادث هذه القصة الى غيرنا وكلانا شديد الحرص على هذه الأمانة ، أنت لانك تمثل الشرف والامانة والادب العربي وأنا لأنى صاحب الرواية ومؤلفها وخالق أشخاصها وراسم خططها وحابك أطراف فصولها ونافخ الروح فى أشباحها ومقسم أوقات توقيعها ؟ .. ان خمسة وثلاثين سنة تربطنا بمودة أعتقد من جانبي أنها وثيقة فهل لى أمل بأن أستعين على جلاء هذا الغموض بك ؟. هل تعينني بما هو معهود فيك من الشرف والامانة والذمة والصدق وحسن النية على اكتشاف سر انتقال قصتي من كراستي التي كانت فى العهدة الى الشاشة البيضاء ، هل لك ياأخى أن تنصفني وتدلني على من فعل هذا فى سنة منك ومنى وغفلة من الدهر الخؤون الغادر ؟ .. » .

كما كتب الى ادمون تويما - الذين نسب تأليف الرواية الى نفسه - خطابا جاء فيه «لاتظن أن حقوق رجل مثلى تضيع على هذه الطريقة فى هذا العصر الحديث الذى تضمن انظمته أصغر الحقوق وأبسطها وأحب ان الفت نظرك انني وجهت اليك هذا الخطاب الودى .. لعلمي ان الحق لايعدم له صدى فى نفسك التى قيل انها طبعت على حب الفنون» . وانتهى الامر سنة ١٩٤٠ بأن أقرت الفرقة القومية بحق لطفى جمعه فى هذه الرواية واشترتها منه .

ولنعد الى باقى مسرحيات لطفى جمعه المخطوطة فنقول ان بينها ايضا مسرحية هرماكيس أوساتينى وهى قصة تمثيلية مصرية فى فصل واحد كتبها فى ليون فى نوفمبر سنة ١٩٠٩ ، ولم تطبع ولم تمثل .

وكذلك سيناريو « عروس الذهب » وقد تقدم بها لطفى جمعة فى مسابقة أعلن عنها طلعت حرب سنة ١٩٣٥ .

ومسرحية «كانت لقية مقندلة» وهى كوميديا مقتبسة من مهزلة فرنسية عن اوكتاف ميربو وقد وضعها سنة ١٩١٦ . ورواية « الوالد والولد » وهى تمتيلية فى خمسة فصول وأخيرا رواية «فى سبيل الهوى» وهى كوميديا اجتماعية . وهذه المسرحيات جميعها لاتزال مخطوطة لم تطبع ولم تمثل ....

وفى سنة ١٩٥٨ كتب لطفى عثمان أحد طلبة معهد التمثيل العالى دراسة عن المسرح عند لطفى جمعه عرض فيها بالدراسة والتحليل لهذه المسرحيات وانتهى فيها الى أنه اغنى المسرح المصرى بأدخال الاتجاه الذى يبحث فى الحياة الواقعية المصرية وخصوصا تصوير مشاكل المراة ، كما كتب الاستاذ محمود تيمور فى مجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٦٥ ذكريات عن المسرح المصرى جاء فيها أنه من الوفاء لمن شاركوا فى التأليف المسرحى من أعلام الفكر والأدب فى تلك الحقبة أن نذكر الاستاذ محمد لطفى جمعه «المحامى» ذلك الذى ألف وترجم فى الفلسفة والأدب والتاريخ والاجتماع وكان له فى الخطابة القدح المعلى ، أما مجهوده فى التأليف المسرحى فلم يتعد مسرحيتين أولاهما شهدت النور على مسرح الاوبرا بفرقة أبيض وفازت فوزا عظيما وكان أسمها«قلب المرأة» وهى تتضمن تاريخ حياة المؤلف ابان دراسته للحقوق فى جنيف ، أما الأخرى فقد سمعت بها ولم يتح لها ان تبرز للعيان وهى مسرحية مصرية عصرية تدعى «خضر أرضك» .

كما كتب المرحوم محمد تيمور فى كتابه «تاريخ التأليف المسرحى بمصر» جـ١ حوارا طريفا عبارة عن محاكمة عقدها المؤلف للطفى جمعة عن مسرحيته «نيرون» و «قلب المرأة» انتهت

الى تبرئته من الانتقادات التى وجهت الى هاتين المسرحيتين بعـــد أن دافع عن وجهة نظره دفاعا مجيدا !! (١) .

والامل معقود على القـائمين على النشر واحباء النهضـة المسرحية أن تخرج هذه المسرحيات والتمثيليات الى النور ، فقد كانت احدى امنيات لطفى جمعه أن تطبع هذه المسرحيات وأن تمثل ، كتب له الأديب المشـهور امين الريحانى فى سنة ١٩٢٣ يقول : «وما أحزننى فى كتابك أنه فى سـؤالك بخصـوص طبع رواياتك التمثيلية . لا تيأس يا أخى ان السياسة اليوم مستولية على العقليـة المصرية الاسـتيلاء المطلق التام ، وبعـد قليل ان شاء الله تعودون الى الأدب فتطبع اذ ذاك رواياتك ويكون عليهـا الاقبال الذى تستحقه ان شاء الله » .

كما كتب اليه ــ فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ يقول : «قد تكون اطلعت على شيء من أخبارى وخطبى فى لندن وقد اجتمعت هناك بعـدد من أدباء الانكليز ومنهم أديبـة تؤلف الروايات التمثيلية وتتشـــوق الى الاطلاع على شيء من هذا الفن باللغــة العربية ، فذكرت أنك كتبت مرة الى بخصوص الروايات التمثيلية التى الفتها وودت لو أن بعضها مترجم الى اللغة الانجليزية وذكرت ذلك فى حديثى مع السيـدة فبدت منها رغبة فى الاطلاع على رواية او روايتين لترى ما اذا كانت تصـلح للتمثيل على مسرح من مسارح لندن فوعدتها أنى سأكتب اليك لترسل اليها خلاصـة روايتين وبعـد ذلك اذا رأت فيهما ما يصـلح للتمثيل فى لندن تفاوضـك فى أمر الترجمة والسـيدة معروفة ومحترمة فى عالم الأدب والتمثيل وهى السيدة « Stuart Erskine »

(١) أشار الأستاذ علاء الدين وحيد فى كتيبه عن « مسرح محمود تيمور » من مجموعة المكتبة الثقافية سنة ١٩٧٥ الى هذه المحاكمة ص ٦٥ وما بعدها .

لقد كانت صلة لطفى جمعه بالمسرح والتأليف المسرحى صلة وثيقة ، فكتب مقالات عن التأليف التمثيلى فى مصر ونادى سنة ١٩٢٦ فى جريدة المقطم ببعض ما حققته الثورة من وسائل اصلاح التأليف والتمثيل المسرحى ، ومنها ما اقترحه من السعى لدى الحكومة اذ ذاك من انشاء وكالة وزارة للفنون الجميلة تمثل المتاحف ومدارس الفنون الجميلة والزخارف ودور التمثيل ومعاهد الموسيقى والغناء وما تأسس منها وما سوف ينشأ فى المستقبل وهو ما تحقق بعد نيف وأربعين عاما بانشاء وزارة الثقافة ، كما نادى فى جريدة الاخبار سنة ١٩١٨ بانشاء نقابة للمؤلفين المسرحيين ، وفى سنة ١٩٢٦ نادى بجريدة المقطم بوضع تشريع خاص لحفظ حقوق المؤلفين بصفة عامة ومؤلفى التمثيل على وجه خاص وتكوين جماعة أو نقابة باسم نقابة المؤلفين التمثيليين فى القطر المصرى . كما نشر فى البلاغ الاسبوعى سنة ١٩٢٩ اقتراحه بتكوين فرقة دائمة من الممثلين الاكفاء تنفق عليها الحكومة وتكون من اختصاص وكيل وزارة الفنون الجميلة وأن تؤلف لجنة دائمة لفحص الروايات التى تقدم لتلك الفرقة وذلك من أجل النهوض بالمسرح المصرى وايجاد الفن التمثيلى .

كتب اليه محمد توفيق المردنلى سكرتير اللجنة التمهيدية للمؤتمر المسرحى العام فى ١٩٣٣/١١/١١ يقول : «ان الحالة السيئة التى وصل اليها المسرح المصرى فى العهد الأخير قد استنهضت همم بعض المشتغلين بالفن فى بلادنا فاجتمعت الكلمة على أن يعقد مؤتمر مسرحى ينظر فى علاج ناجع لتلك الحالة — ومن اجل ذلك تألفت لجنة تمهيدية .. ولما كنتم من أنصار المسرح من عهد بعيد ومن الذين يلتمس معونتكم للأخذ بيده من عثرته فقد كلفتنى اللجنة التمهيدية أن أبلغ حضراتكم بوقوع الاختيار عليكم للاشتراك فى أعمالها ..» .

وكتب اليه محمود تيمور فى ١٩٤٣/٦/١٣ :

« أما رأيكم عن العامية فى المسرح المصرى فانى أقدره التقدير الكامل وأعترف اليك بأن الظروف الحاضرة فى الأدب الحديث تضطر الأديب الى أن ينبذ اللغة العامية ويعبر عن آرائه بالفصحى وان هذا الموضوع متشعب الاطراف كنت أود أن أطيل الحديث معك بشأنه فلعلى ألقاك قريبا فيكون من ضمن برامج حديثنا » .

وكتب اليه الاستاذ توفيق الحكيم من دمنهور سنة ١٩٣٣ يقول «أما عن اهتمامك وعنايتك بعملى فأمر أثر فى نفسى كثيرا وأقدره كثيرا وان فضلك على الأدب والمسرح قديم ومعروف وآراءك فى الادب الجديد معترف بها بغير نزاع وان رأيك فى «أهل الكهف» لهو عندى القول الفصل الذى لايقبل نقضا فقل انى مدعن ...»

وقد كتب الأستاذ دواره مقالا فى « المجلة » عدد مارس سنة ١٩٦٦ (١) عن بعض آثار توفيق الحكيم فى مسرحنا جاء فيه « أن المراجع القليلة التى بين أيدينا عن تاريخ المسرح العربى تؤكد أنه ظل سنوات طويلة يعتمد على التقليد والاقتباس والتعريب أو التمصير ، وأن اللونين الهزلى والغنائى قد غلبا عليه فى معظم فترات حياته وأن المحاولات الجادة القليلة التى عرفها فى تلك السنوات كانت كلها فى ميدان المسرحيات التاريخية والاجتماعية الواقعية على أيدى أمثال فرح أنطون وابراهيم رمزى ومحمد تيمور وعباس علام ومحمد لطفى جمعه» .

---

(١) المجلة ، العدد ١١١ ، الخاص عن المسرح ، مارس سنة ١٩٦٦ ، ص ١٩٥ وما بعدها .

الفلسفة والتصوف

هناك جانب هام من جوانب لطفي جمعة المتعددة ، ذلك هو شغفه العظيم بالفلسفة وتعلقه بالتصوف ، فقد جعل لكل فرع من فروع المعرفة الانسانية جانبا من ذهنه ٠

وترجع ميوله الى ذلك ــ كما يقول ــ « الى علة قوية هي فساد التعليم في المدارس والمعاهد التى نشأ فيها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فقد كانت هناك خطط مرسومة لنشر الجهل فى المدارس ومحاربة العلم بكل الوسائل لغايات سياسية ، لقد كنا نسمع باسم الفلسفة ولا نراها وباسم الفلك ونشتاق اليه ولا نجده وباسم المنطق ونحب أن نطلع عليه فلا نعثر عليه وهكذا ٠٠٠ ولكن يجدر بى أن أذكر الأستاذ أو الثلاثة الذين ساعدونى وشجعونى فى تلك الفترة من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٥ ، وفى مقدمتهم المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى الذى كان وجوده فى المدرسة الثانوية فلتة ندم عليها رجال وزارة المعارف أى ندم ، لأن هذا الرجل كان لا يعبأ بالنحو والصرف وعلوم الرسوم والأشكال ، بل كان يلخص لنا كتاب الغزالى ويدربنا على فصاحة القول وبلاغة الكتابة وشرح القصائد الكبار وتفسير القرآن ٠٠٠٠ أما الآخران فهما الأستاذ أدوار فانديك والمرحوم على فوزى ورابع اسمه فوستر سميث ، أما فانديك فهو ابن المستشرق كورنوليوس فانديك

مؤلف كتاب « النقش على الحجر » وقد درس لطفى جمعة فى هذا الكتاب مبادىء الفلك والمنطق والنبات والفلسفة بارشاد ابنه ادوار ٠

أما المرحوم على فوزى فقد كان حجة فى اللغتين العربية والانجليزية وقد أفاد لطفى جمعة بتعليمه كثيرا فى دقة التعبير وتفهم النصوص ، أما فوستر سميث فقد كان متحررا مفتوح الذهن ، وقد لفت نظره الى المطالعة فى كتب الأدب الانجليزى وأرشده الى خيره وتحدث اليه فيما لا علاقة له بالأجرومية والاعراب وكان أول من ذكر له الياذة هوميروس وفلسفة أرسطو وأفلاطون والثورة الفرنسية وتاريخ محمد لواشنطون ارفنج ٠

كذلك كان الأستاذ جونز يراسله ويبعث اليه باسماء الكتب والمؤلفين من انجلترا تارة ومن الهند التى نقل اليها تارة أخرى ٠

ومن هذا السبيل بدأت صلة لطفى جمعة بالفلسفة وبدأ فى هذه الفترة يسمع عن مذهب داروين ووجد نسخة من كتابه « أصل الأنواع » وقرأ فى المقتطف ما كان يكتبه الدكتور شبلى شميل ويعقوب صروف ، وكانت مطالعاته سببا فى حصوله على كتاب تسلسل الانسان لداروين وعثر فى هذه الاثناء على نبذة فى مقدمة ابن خلدون تؤيد وجهة نظر داروين فأدهشته هذه النبذة دهشة عظيمة لأن فيها تصريحا لا تلميحا باستعداد المخلوقات بارادة الله للتطور والارتقاء ، وحدث أن وجد فى كتب الغزالى قوله « لو لم يكن فى ذلك الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لكفى به نفعا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة » وهذه كانت قبل ديكارت بمئات السنين ، يقول لطفى جمعة فى مخطوط عنوانه « سبب دراستى الفلسفة » :

« ليس معنى هذا أننى أؤيد مذهب داروين أو أنفيه ، بل

أقول ان نسبة هذا المذهب الى داروين وحده ظلم لسابقيه من العلماء أمثال لامارك وجوردون وهوكسلي وأرنست هيكل ۰۰۰۰ غير أنني أصرح بأنه مهما كانت عقيدتي في آراء داروين وأشياعه فلم يزعزع هذا عقيدتي الدينية ۰۰۰۰ كنت أقرأ هذا وأسأل نفسي اذا كانت القردة العليا قد أنتجت الانسان فلم لا تنتجه الآن وقد ارتقت بحكم الطبيعة عما كانت عليه من نصف مليون سـنة ؟ ولم يظهر بينها مخلوق واحد ولو على سبيل الاستثناء يشبه الانسان ! ۰۰۰ لم أحب أن أتنازل عن الأصل الآدمي لأن آدم مخلوق على صورة الله وفيه عنصر روحاني لا شك فيه ۰۰۰۰ نعم ان الانسان أشرف الكائنات ولكن جميع العلماء يسمونه الحيوان الناطق أو الحيوان الضاحك أو الحيوان الماشي على اثنتين ولم يخطر ببال عالم أن يسميه الحيوان ذي الروح العاقل أو النفس الناطقة ۰۰۰۰ ولا أنكر أن الله جعـل في الأرض خليفته وهو آدم ولكن هذه الخلافة لم تفهم ولم تدرك وربما يأتي الزمن بعد مليون أو مليونين حتى يأتي الخليفة القادر على حكمها ۰۰۰ فلم يشرف الجنس نفسه ولم يحترم أصله الآلهي ولم يدرك حقيقته الا عند أفراد قلائل فقد أوسـع الأنبياء والأولياء والحكماء ظلما وتقتيلا وقد نسي كل شيء الا الظلم والاضطهاد والانتقام والحسد وكل الرذائل التي كان خليقا أن يتخلص منها ويتخلى عنها اكراما لأصله الرباني » ۰

ولم يتأثر لطفي جمعة بالمعري الذي بدأ قراءته منذ صغره ، فقد كان متشائما وعلى غراره من بعـده شوبنهور ونيتشه وهنري هينيه وان كان قد ارتاح اليهم جميعا الا أنه لم يتأثر بعقائدهم الدينية ۰

وعندما بدأت هذه الأفكار تخالجه ولم يكن قد وصل الى يقين في أصل الانسان فقد أراد أن يتتبع نمو الانسان العقلي فلم يجـد

وسيلة لاستقراء هذا النمو الا عن طريق الفلسفة وأول الفلاسفة أهل اليونان ٠

يقول لطفى جمعة « لقد كان لدى سؤالان لا ثالث لهما فى تلك الفترة الأولى ، من أين جاء الانسان والثانى الى أين يذهب الانسان بعد موته الأرضى ؟ ٠

الأول تعبت فى تحصيل الجواب عليه ثم طويت كاغده ووضعته على أحد رفوف عقلى لشدة التناقض بين ما قاله العلماء وبين ما قاله الله وكلام الله عندى أصدق ٠٠٠٠٠٠٠٠ ومهما يكن أصل الانسان فقد تجلى الله عليه بروحه وأوحى اليه وعلمه واختاره وجعله خليفته فان كان طينا فقد رفعه الله الى أسمى مكان ، وان كان حيوانا فقد منحه الروح ونفخ فيه وميزه بالجمال والعقل ، فالانسان الجميل أجمل المخلوقات وبعقله أشرف الكائنات وان ظهر فيه الانحطاط فمن فعله ومن سوء الوراثة فى بعض السلالات ٠٠٠ »

أما عن السؤال الثانى ، فيقول « نعم اطمأننت الى عاقبة الانسان وهو الموت والى بقاء الروح بعد الموت على الصورة التى نقلها لنا النبى محمد ـ ولم يخطر ببالى قط أننا خلقنا للفناء الأبدى ، وتخيلت فى أول أمرى نظرية بقاء المادة ٠٠٠ كان اعتقادى بالخلود مزيجا من الخبرة والمشاهدة ومن الاعتزاز بكرامة الانسان والثقة بالله والشعور بأن الله لا يخلق الانسان عبثا ، بعد أن أعده هذا الاعداد وجهزه وأهله بالنطق والعلم والبصيرة والضمير وجمال الصورة ٠٠٠ لقد كانت هذه أفكارى فى سن المراهقة وهى فى نظرى الآن تستدرجنى للابتسام !! »

واتجه لطفى جمعة بعد ذلك ـ الى دار الكتب الخديوية وطلب قوائم كتب الفلسفة وقرأ أسماء تراجمة العرب وأقبل على ما فيه

منها ذكر أرسطو وأفلاطون وسقراط ودله فانديك على كتاب عيون الأنباء وفيه تراجم الفلاسفة اليونان والعـــرب ، كما قـــرأ كتاب المقاصد والتهافت للغزالى وكتب ابن رشد ولكن هذه كلها لم تشف له غليلا ٠

وقد دله مورتز مدير دار الكتب على كتاب للفارابى اســـمه (الجمع بين الحكيمين ــ ارسطو وأفلاطون) ٠ وذكر له الرجل أن مؤلفات أرسطو كلها موجودة بالانجليزية والفرنسية والألمانيـــة ولا سبيل اليها الا باتقان هذه اللغات الثلاث ٠

وفي هذه الفترة اتصل لطفي جمعة بالمرحوم الشيخ محمد عبده بعد أن راسله وتقدم اليه بالمسائل التى أثبتهـــا المرحوم الشيخ رشيد رضا فى الجزء الأول من ترجمة الأستاذ الأمام ، وكان الشيخ حديث عهد بالرد على كتاب ابن رشد الذى نقله فرح أنطون ملخصه عن ارنست رينان ٠

وعندما سافر لطفى جمعة سنة ١٩٠٣ الى بلاد الشام وقصد الى بيروت حيث الكلية الأمريكية وجد فى مراجعها كثيرا من الفلسفه فاقتنى ما وسعه اقتناؤه من الكتب وقرأ للمرة الأولى ــ كما يقول ــ كتب الفلسفة في اللغة الانجليزية وحصل على مراجع مهمة وأدرك أن المعرى لم يكن فيلسوفا ولا حكيما وانما شـــاعرا متبرما بالحياة وزاهدا فى نعيمها كما تعرف الى عمر الخيام الشاعر الصـــــوفى الفارسى ، وقد ساهم هذان الشاعران فى تكوين تفكيره الخيـــالى للزهادة ٠

يقول لطفى جمعة : ولكن أين هذا من الفلسفة ؟ ٠٠٠٠

« لقد نجح شوبنهور فى سبك مذهب فلسفى متين ، أساسه حكمة المعرى والخيام ولكن الفرق بينهم كالفرق بين القصائد الغنائية القصيرة التي يجود بها الخيال العـــربى وبين الملاحم الكبرى التى

نظمها هوميروس والفردوسي وملتون وهيجو ··· ان في شعر الشرق وحكمة الشرق خميرة للنظم الفلسفية ، ولكنهم عاجزون عن سبكها وجعلها ترتقي الى درجة الفلسفة وعجزوا عن وضع نظام فلسفي محكم كما صنع أرسطو وباكون وديكارت وسبنيوزا وسبنسر ··· نعم كان ابن خلدون عالما اجتماعيا وباحثا لا يجاري سبق أهل أوربا في علم الاجتماع والتشريع وتاريخ الحضارات وتحليل نفسيات الشعوب ولكن ابن خلدون كان فذا وقد نجح في مقدمته وفشل في تاريخه » ·

وفي تلك الاثناء نقل لطفي جمعة الى العربية « روضة الورد » لسعدي شيرازي(١) وهو كتاب في التصوف وقد دله حبه لهذا الكتاب واختياره اياه – كما يقول – على ميله الفطري للتصوف والأعجاب بفكرة التأمل في الحياة والبحث في الالاهيات ·

وعندما سافر الى فرنسا قصد كلية الآداب بليون ولقي فيها الأستاذ جوبلو أستاذ الفلسفة فتلقاه الرجل بصدر رحب وتعهده وصرفه عن أرسطو وأفلاطون وقال له تقرأهما في أوقات الفراغ أما الآن فعليك بكتاب الطريقة لديكارت فهذه بداية الفلسفة الحديثة · فأخذ برأيه وحضر عليه دروسا وقرأ عليه « الطريقة » كلها ، كما حضر عليه دروسا في المنطق ، وكان جوبلو في تلك الأثناء يؤلف كتابه في المنطق وقد نشره بعد الحرب العالمية الأولى ·

كذلك اتصل لطفي جمعة بالأستاذ سانتيلانا الذي أرشده الى الفلسفة اليونانية فأودع معظم ما تلقاه من دروسه في « مائدة أفلاطون » التي نقلها الى العربية قبل سفره الى أوربا سنة ١٩٠٧ وجعلها بمثابة مقدمة مطولة للمائدة ·

وكان يحز في نفسه أن العرب يخرجون بلا نتاج من هذه

---

(١) انظر الكلام عن كتاب « الحكمة المشرقية » ص ٥٠ من هذا الكتاب ·

المعركة الفكرية ، فدأب على وضع كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » •
وكان بين نشر مائدة أفلاطون سنة ١٩١٢ وبين ظهور تاريخ الفلاسفة
سنة ١٩٢٧ خمس عشرة سنة قرأ خلالها كما يقول فلسفة ديكارت
وسبنسر وأوجست كومت وسبينوزا ولوك وهيوم وبنتام وهيجل
وشيلنج وشليجل وشوبنهور ونيتشه ودرس كتب روسو وفولتير ،
والجانب الفلسفى من هيجو وجمع خلال هذه السنوات الخمس عشرة
مكتبة حسنة فى الفلسفة •

يقول لطفى جمعة : « ان حب الحكمة نعمة يمنحها الله وهو حيرة
طويلة أليمة ولكنها ممزوجة باللذة وفيها تفتح الذهن ونمو المواهب
ورغبة فى الوصول الى الحقيقة • واتباع الحكمة يخفف أعباء الحياة
ويحبب الحكيم فى الانسانية ويصحح موقفه • ويجذبنى الى هؤلاء
الفلاسفة حبهم للخير والحق والعدل والانسانية لأن حب الحكمة وهو
خطتهم الأولى تدعوهم الى ذلك ويعزينى أننى وان لم أكن فيلسوفا
فقد أشاركهم فى حب الحق والعدل والانسانية والخير وأبغض
أضدادها وأمقت كل من يحب الباطل والظلم ويدافع عنهما وينتصر
لهما ••• وخلة أخرى وهى حب الجمال فقد كان ديدنى حتى أصبحت
أتتبع أشهر التصاوير والتماثيل فى متاحف أوربا وأرى الجمال
جزءا مكملا للعقل وأدركت أن حب الجمال والخير وانطباع النفس
عليهما جزء من الفلسفة •••• وجملة قولى فى هذا الفصل الذى
أنشأته ليكون تاريخا لنمو عقلى اننى حاولت أن أصل الى المعرفة
الكاملة للفلسفة لا عن طريق الكتب والمذاهب وحدها بل عن طريق
الرجال أنفسهم ، كما تبعت هذه الخطة فى معرفة رجال الصوفية
عندما تعلقت بها واتخذت منها أصدقاء كالحلاج وأبى سفيان الثورى
والسهروردى والطوسى والقشيرى والدباغ وآل عبد السلام ••••
لقد ظهر لى بعد حين أن مجرد السؤال عن مورد الانسان ومصدره
وتاريخ حياة الروح منذ ولادتها الى عودتها الى عالم السر ليس الا

خطوة فطرية فى سبيل الفكر الانسانى ، وقد تفرع عنها فى ذهنى مالا يقل عنها فى الشأن وهو أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان فى الحياة ومحنة الروح بالحياة والعيش على قشرة هذه الكرة الأرضية ودرجة الرقى المطلوب منها أن تصل اليها في وسط الأشواك والعقبات والأخطار التى لا تعد ولا تحصى ومحاربة الشهوات والتغلب على المصاعب والمصائب وخوض بحر خضم من التبعات وشرب كئوس العذاب فى الوحدة والانفراد وفي الجماعة والألفة والتنازع بين الآمال والخيبة ۰۰۰۰ فالفلسفة فى عالم العقل والروح ، وتفسير الدنيا وعالم القيم وعالم المعانى والالهيات وما وراء الطبيعة ، وقد تحاول الفلسفة أحيانا أن تحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع » ۰

❋ ❋ ❋

يقول لطفى جمعة « لقد أمكننى أن أدرك أن الاسلام قد أنتج حركتين فى غاية الأهمية والخطورة وكبر الشأن ويزيدهما أهمية انهما نشأتا فى مقتبل شبابه ، وهما الاعتزال والتصوف ؛ فالمعتزلة أو علماء الكلام هم فلاسفة الاسلام ، وما الحركة الثانية وهى حركة التصوف فقد قامت على نظرية المعرفة المباشرة والتلقى بالالهام والوحى ، ان كل فيلسوف مثل كل صوفى ، الصوفى يريد الاتصال بالله بغير واسطة والفيلسوف يريد الاتصال بالحقيقة بمجهوده الذاتى » ۰

وقد تعلق لطفى جمعه بالتصوف لانه كان يقول هو الجانب المشرق فى حياة العقل والروح ، هو الفلسفة الدينية الكاملة وهو مفتاح السر وباب الوصول الى عالم الروح وملكوت السماوات ومناط العقول والقلوب ورباط الأرواح والافئدة وطريق بلوغ الغايات ووسيلة الوصول الى أعلى الكمالات ، وليس صوفيا كل من شاء ويرغب ولا كل من يجتهد ويبذل ويسهر ، وليس صوفيا كل من يقرأ ويبحث وليس صوفيا كل من يلبس الصوف ويرقد على الفراش الخشن ويصوم عن أطيب الأطعمة والأشربة ويعف عن شهوات البدن

ويسلك سلوكا حسنا ، لأن التصوف حالة نفسية تقود صاحبها وتدفع به فى الطريق بقوة تكاد تستقل به عن شعوره وارادته ، وقد يكون الصوفى ملكا أو أميراً ، كما يكون درويشا أو فقيرا فهو خلة قائمة بالروح والعقل تجعل صاحبها منفردا • وهى فوارق عالم المادة الى عالم الروح وخروج يقتضى التجرد والانخلاع من ملابسات البشرية العادية وليست باستعمال ألفاظ تلاك واصطلاح يتخذ وخطة تتبع ، ولكن المتصوف فرد قائم بذاته علاقته بربه مباشرة ، له أحوال وله مقامات وهذه الأحوال والمقامات ليست تقليدية ولا مرسومة ، ولكن الناس شهدوها تتكرر فوصفوها وصوروها وقرروها ، ولكن الصوفى لا شأن له بها من حيث مظهرها أو تعريفها فى الكتب أو على ألسنة العارفين •••

فالتصوف موهبة لا شأن لصاحبها فيها وأهم ما فى التصوف أنه لا يعرف على حقيقته الا للذى أنعم عليهم بنعمة التذوق والعلم المباشر ••• والتقليد فى التصوف غير مجد ••••• ان التصوف معروف للمصريين فى العصر الحاضر بالطرق والمشايخ وحلقات الذكر وموالد الاولياء وأخذ العهود وأعطائها وغير هذا وذلك من المظاهر ، ومعظم هذه المظاهر ان لم يكن كلها لا يمت للتصوف الصحيح بقليل أو كثير ، لأن التصوف الصحيح أمر باطن وسر عميق وشعور دفين وليس بضاعة تباع فى الأسواق ولا تحتاج فى ترويجها الى دق الطبول والنفخ فى المزامير ولا اخراج الأصوات ولا لبس المرقعات ولا تعليق المسابح ولا التظاهر بالاستغراق فى ملكوت السماوات ولا القاء الكلمات الخالية من المعنى بصورة تشعر السامع بأنها ألغاز وأحاج ومعميات وأشارات للغيب ودلالة على كشف الحجاب ، فهذه المناظر والوساوس والطرق كالمهازل بالنسبة للحقيقة ، وكالتصاوير المشوهة للشيء الجميل تحمل أسمه ولا تدل عليه وتسيء اليه ولاتحسن اليه ••• فالتصوف كما يشعر به بعض المريدين حاجة فى النفس

الى الاتصـــال بالعالم الأعلى ، وشوق الروح الى العودة للامتزاج بمصدرها الأول وشغف واستعداد لتلقي الحقائق العلوية ، وأصلها حيرة تأخذ بخناق المشوق المستهام ، تقلقه وتقض مضجعه وتؤرقه وتشغله ليل نهار وهو كلما أمعن فى هـــذه الحيرة ازداد تعلقا وكلما أنعم النظر اتسعت أمامه آفاق مع تلك الحيرة وقد يغرق فى نعمة الحقيقة وهو لا يعلم أنه غارق فيها فهو أبدا محترق بنار مقدسة تخالف النار المادية ، يتمنى اشتعالها ولا يسعى في اطفائها بل يفرح كلما ازدادت التهاباً واشتعالا » •

وقد وضع لطفى جمعة سفرا جليلا فى التصوف هو « الناحية الروحية والجانب العقلى فى الاسلام » (١) ، كما ألف كتابا هو « خيار الأخيار » في ترجمة خلاصة الصوفية على نسق جديد ، كما كتب أيضا أبحاثاً جليلة فى جريدة البلاغ عن التصوف المصرى الحديث وأخرى عن الحلاج فى مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٧ •

ولم يشغل لطفى جمعه بحياة أحد من المتصوفين وتتبع أنبائه وأخباره كما شغل بالامام الحسين بن منصور الحلاج رضى الله عنه ، فقرأ جميع ما كتب عنه فى العربية وغيرها ولا سيما كتابات ومؤلفات المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون وكانت بينهما مراسلات ومكاتبات ولقاءات عديدة منذ سنة ١٩٤٠ تحدثا فيها عن الحلاج وعصره ومأساة هذا الصوفى العظيم •

وكانت نتيجة هذه الدراســـات والقراءات أن وضـــع لطفى جمعه مسرحية « مصرع الحلاج » وقد أشار اليها الاستاذ لوى ماسينيون فى كتاباته الأخيرة عن الحلاج •

وقد تناول في هذه المسرحية مذهب الشيخ الكبير فى الفقه والسنة وأظهر عصره وهو القرن الثالث الهجرى والعقد الأول من

---

(١) يقوم المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بطبعه •

القرن الرابع ووصف هذا القرن وهو آخر عهود العظمة العباسية فى الزوراء ، وما كان يلابسه ويحيط به من مظـاهر الحضارة الناضجة بثمرات العقول والقلوب فى ذلك المجتمع الدولى الشرقى مذ كانت بغداد فى ذلك العصر تموج بالتيارات السياسية والحرب والمطامع واضطراب المذاهب الدينية والمبادىء الفلسفية وتضطرم فيها فتن وثورات جنسية وطائفية خلع أثناءها خلفاء وأمراء وفقد كثير منهم عروشهم ونشأت ثروات طائلة تقدر بألوف ملايين الذهب ، وجرت بين أيدى الحكام والوزراء والأعيان والشعراء والقيان ووصف فيهـا مظاهر الفساد الذى دب متمهلا ولكن متأصلا تتغلغل فيه شهوات الحكم والمال والأغراض وتزدهر فى ظلاله الفنون الرفيعة بمحاسنها واضدادها ·

ثورة الإسلام

لم يشغل لطفى جمعه على مدى ثلاثين عاما بحياة شخص كما شغل بحياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقصر فى درس كل ما كتب عنه فى اللسان العربى وفى معظم اللغــات الأوربيه وواصل هذه البحوث العزيزة على نفســه المغذية لروحه فى دور الكتب الغربية واستعان بجميع المصادر والمراجع التى وضعها كبار المؤرخين ونظموها ، وخرج من الدرس الطويل بعــد استقصاء المواد وتحرى الدقائق بثمرة المقــارنة والمعارضة حتى تمكن من الاحاطة بكل ناحية من نواحى التاريخ المحمدى مما أقنعه اجمــالا وتفصيلا بعظمة شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت غايته فى بداية العمل وأمنيته المحببة وأمله الغالى وهدفه الســامى أن يعثر على ترجمة لرسول الاســلام تملأ فراغا وتسد ثغرة وتغنى الشباب المثقف وجمهرة أبناء البلاد العربية وتشــبع رغبات جمهور القراء فى مصر وفى العالم الاسلامى ، ذلك المحيط الذى شــعر بالحاجة الى الالمام بحياة النبى صلى الله عليه وسلم بأسلوب جديد يتفق والعقلية الحديثة ونسق يلتئم وحاجة العصر .

وهكذا وضع لطفى جمعه مؤلفا ضخما فى حياة النبى الكريم هو كتاب « ثورة الاسلام وبطل الأنبيــاء أبو القاسم محمد بن عبد الله » ــ وقد طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٣٩ وأعيد طبــع

الكتاب جميعه سنة ١٩٥٩ بما فى ذلك الجزء المطبوع والأجزاء المخطوطة وقد بلغت صفحاته نيفا وألف صفحة ٠

وهذا الكتاب ـ كما يقول الأستاذ أحمد حسن الباقورى ـ « ليس الا واحدا من تلك الكتب القليلة النادرة التى تستأهل أن تضاف الى سيرة الرسول الكريم وأن تحسب عليها وأن تتحدث بلسان الحق الواضح عن هذه السيرة الكريمة وما دار فى فلكها من أحداث غيرت معالم الحياة الانسانية وعدلت بركبه الى طريق الأمن والخير والكرامة ٠ ليس هذا الكتاب أحداثا جامدة وشخوصا ماثلة يسجلها صاحبها كما تسجل المصورة ما يقع فى محيطها وما تتسع له عينها من مرئيات ٠٠ وحسبنا أن نقول ان هذا الكتاب فى سيرة الرسول يكاد يكون نسجا فريدا فى كتب السيرة فى عمق الدراسة وفى أسلوب البحث وفى عرض هذه السيرة عرضا أخاذا وتصفيتها من الشوائب التى علقت بها والمفتريات التى ألقيت عليها ودحض الشبهات وفضح الأباطيل التى ألقاها على الاسلام وعلى نبى الاسلام علماء أضلتهم العصبية الدينية وأعماهم الجشع الاستعمارى فجحدوا فضل الاسلام ورموه بكل سوء ونقيصة ٠٠٠ لقد عاش المؤلف فى السيرة لحظة لحظة ويوما يوما يستعرض كل حركة ويستنبىء كل خبر ، فجاء هذا الكتاب ذوب مشاعر سليمة وروح وجدان يقظ وفيض عقل ركين آخى بينها الايمان وألف بينها الحق فجاءت نشيدا علوى الجرس متجاوب النغم » ٠

وكتب اليه الأمام مصطفى المراغى فى سنة ١٩٣٩ ٠ « وبعد فقد وصلنى كتابك « ثورة الاسلام » وأنا أشكر لك هديتك وأحمد جهادك ومن حق الاسلام على علمائه وكتابه الدفاع عنه والجهاد فى سبيله وقد قمت بحقه عليك فجزاك الله عن بنى الاسلام والاسلام خير ما يجزى به العاملون » ٠

وفى سنة ١٩٤١ سافر لطفى الى الحجاز لأداء فريضة الحج فكان موضع حفاوة وتكريم من الجميع وقد استقبله الملك عبد العزيز آل سعود استقبالا حافلا ٠

كتب يصف مقابلة الملك بالقصر القديم « جلسنا أولا فى بهو فيه مقعد معد له وفي الغرفة بعض ضيوف ٠٠ ثم صعدنا الى مجلس الملك وكان جالسا ومحاطا بالأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وأظهر ما فيهم سيوفهم المختلفة الأشكال والألوان ، ثم نهض الملك وسمعته يتكلم بصوت رقيق قال « نحن لا يهمنا شيء غير طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقد ضحينا بكل شيء في سبيل اعلاء كلمة الحق ورفعة شأن المسلمين ونحن نحب مصر والمصريين والعلاقة بين مصر والحجاز قوية ومتينة وان أى اعتداء على مصر كالاعتداء على الكعبة أو على عينى » ٠

ثم نهض لطفى جمعه وألقى فى الحاضرين خطابا ووجه كلامه الى الملك عبد العزيز آل سعود قائلا :

« ان الله فجر ينابيع الزيت ومناجم الذهب الزاخرة حتى يفيض خيرها على أهل البلاد ويكون لهم حق فى كنوز أوطانهم التى جعلك الله خازنا عليها للانفاق منها فى اصلاح وتهذيب الرعية ورفع مستواها وانهاض الحجاز وافتتاح المدارس والملاجيء وبعث البعوث فى طلب العلم وجلب الخبراء فى الزراعة والصناعة لاستصلاح الأراضى والمساقى وتعبيد الطرق وجر المياه النقية واضاءة المدن بالكهرباء وتأسيس المستشفيات والمصحات ودور العلاج حتى تصح الأجسام بالدواء ، وتأسيس المعامل والمصانع ليستغنى أهل الحجاز بعلمهم وانتاجهم بعد زرعهم وضرعهم دون أن يجعلوا موارد الحج وحدها مصدرا لأرزاقهم » ٠

كما تكلم فى هذا الخطاب عن الوحدة العربية فأشار الى أن مئات الملايين يتطلعون الى الوحدة العربية وعودة الأمم العربية الى سالف عزها وسابق مجدها بالحرية الصحيحة والاستقلال السياسى والاقتصادى وأن العروبة للأمم بمثابة الأساتذة المرشدين وانه قد آن الآوان للأمم العربية أن تنهض لتستعيد تلك المفاخر وما يكون ذلك الا بالتعاون دون التهاون وبالمساواة فى السلم والحرب » ٠

وقال فى خطبة أخرى أمام الملك عن الوحدة العربية :

« كانت البلاد العربية فيما غبر من الزمان أمما متفرقة وشعوبا متباعدة وأتى عليها حين من الدهر كانت متخاذلة وكانت تلك الأعراض داعية الى قنوط الدعاة الى الوحدة فأراد الله أن يتم الاتصال والتماسك بين أعضاء الجسم الواحد ، فدبت الحياة فى العالم العربى ولم تحل الأبعاد دون نهضته وانتعاشه بعد أن توافرت عوامل البعث ٠٠ ومن مؤيدات اليقظة العربية بعد وحدة المقاصد ، وحدة الثقافة وهى المجلى الأول للحياة وبها تتوحد المقاييس وتزول الفوارق ، ومنها الايمان الكونى وهو الاستمساك بنواميس الخليقة وسنة الله فى الأمم وسيادة العقل على المادة ، لأن هذا الايمان هو سر حياة الأمم فاذا آمنت به كان ضمان بقائها وثرائها ونمائها وهنائها ٠٠ ان الشرق العربى صهرته الأحداث بعد أن أحاطت به محنة الحرب والسياسة من كل جانب ، وأصبح فى أشد الحاجة للتعاون والتعاضد والتساند فى عالم مضطرب لا ينفع فيه التمسك بالوعود والعهود ان لم تكن بجانبه قوة تدعمه وبأس يشد آزره ويؤيده ٠٠ ان القرن الرابع عشر فى كل الحضارات القديمة والحديثة قرن البعث والاحياء والنهضة فانظر الى هذا القانون التاريخى الثابت الذى يبدو لمن يقنع بظاهر الأمور أنه محض مصادفة ، ولكنه فى الحقيقة قاعدة قعدها الله وقانون قننه وسنة سنها ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فتجدد شباب العروبة

ونفضت عن كاهلها غبـــار الماضي وتيقظت من رقدة طويلة كالنسر ينهض من غفوته ليحلق بجناحيه فى عنان السماء » ٠

ثم يتحدث لطفى جمعه فى هذا الخطاب عن عروبة مصر فيقول « لقد تمايزت مصر منذ عرفت العروبة والعرب والاسلام بصفتهـا العربية وحماستها القومية وثقافتها الاسلامية وحرصها على الحضارة الشرقية ، وذلـــك الحرص وتلك الغيرة بقيا من أخص صـــفات « الاجتمـاعية المصرية » فكان لهمـــا أكبر الأثر فى صـــيانة لغة القرآن الكريم والمحافظة على مجد العروبة منذ صدر الاســلام حتى هذه الأيام » ٠

وقد أهدى اليه الملك عبد العزيز آل سعود مجموعة قيمة من الكتب الاسلامية فى التفسير والحديث والشريعة والتاريخ والتوحيد والفلسفة الاسلامية ٠ وقد وضع لطفى جمعه كتابا لا يزال مخطوطا عن رحلته الى الحجاز ٠

وفى صيف سنة ١٩٤٦ سافر لطفى جمعه الى بلاد الشـــام بقصد الاستجمام وقام بجولة فى فلسطين وسوريا ولبنان ، ونشرت الجرائد العربية حينذاك نبأ قدومه الى القطر الســـورى الشقيق واستقبال الأدباء والمعجبين له ، وزار خلال تلك الرحلة المســجد الأموى كما زار المجمع العلمى العربى الذى كان عضوا فيه منـــذ سنة ١٩٣١ غير أنه لم تطل اقامته فى بلاد الشـــام لسوء حالته الصحية فعاد الى أرض الوطن ٠

لم ينقطع لطفى جمعه على مدى أربعين عاما عن القراءة والتأليف والجلوس الى مكتبته الزاخرة بألوف الكتب والمؤلفـــات بمختلف اللغات وفى مختلف ألوان المعرفة من فنون وآداب وتاريخ وقانون وفلسفة وأديان وتصوف وسياسة واقتصاد واجتماع ، وقد خلف

ذخيرة ثمينة من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، فقد نشر منذ سنة ١٩٠٣ حتى سنة ١٩٤٠ ما يزيد على عشرين مؤلفا ثم توقف عن النشر بعد أن تيقن ـ كما يقول ـ من كيفية اغتيال الناشرين لحقوق المؤلفين وكيفية اغتنائهم ، ومع ذلك فلم ينقطع يوما عن التأليف ، فقد كانت احدى ملذاته الحقيقية كما يقول أن يجلس في منزله في غرفة مكتبه في صميم الليل ليكتب في كتاب جديد من تأليفه أو مقال يعجبه موضوعه أو مذكرة مهمة في قضية مهمة أو قصة أو القراءة على شاطىء البحر أو في حديقة كبيرة ، وأن يطوف بمكاتب كل بلد ينزل به أو القاهرة التي يقيم فيها ويشتري كل ما تحدثه نفسه باقتنائه من الكتب الجديدة ، وقد وقعت له تحف في هذا السبيل ، من ذلك كتاب الأمير لميكيافيلي الذي ترجمه ، فقد وجده مصادفة في احدى مكاتب الاسكندرية الافرنجية سنة ١٩٠٥ وكتاب « يوليسيز » لجيمس جويس فقد التقطه في بور سعيد من صاحب مكتبة بها ٠

ومن الكتب التي سجل أنها من الكتب النادرة التي قرأها في حياته كتاب « Degeneresence » تأليف ماكس نورداو في تاريخ انحلال الأخلاق والعقول في أوربا وكتاب « The Decline of the West » تأليف أوز والد وقد أوصاه بقراءته سنة ١٩٢١ المرحوم محمد اقبال شاعر الاسلام ، وكتاب العلم والعلماء للجوزي وهو تلبيس ابليس ، ومحنة الحلاج للمستشرق الفرنسي لوي ماسينيون واعترافات جان جاك روسو وكتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والرسائل للجاحظ وكتاب الأغاني وحوليات تاسيت Tacite وعولس لهومير وفلسفة نيتشه وكانت وشوبنهور وكتاب الجمهورية لأفلاطون ورباعيات الخيام وكارليل ومذكرات تروتسكي ومؤلفات فلوبير ، ولاسيما مدام بوفاري وموبسان ولاسيما قصصه القصيرة والسيرة النبوية وخاصة لابن

هشام والثورة الفرنسية وتاريخ لينين والقضايا العالمية بأقـــلام كبار الكتاب الفرنسيين والانجليز والنقد المسرحي لسارس وبرليون وبور دو ٠

ونذكر في هذه المناسبة أن لطفي جمعه وضع في سنة ١٩١١ مشروعا باختيار ألف كتاب من الكتب النافعة في جميع اللغـــات بحيث يكون كل كتاب مصحوبا ببيان قصير عن ماهية ما يحتويه ، ومن محاسن الصدف أن وزارة التربية والتعليم بعد نيف وأربعين عاما من هذا الاقتراح ـ اضطلعت بتنفيذ هذا المشروع الذى أطلق عليه « مشروع الألف كتاب » الذى هدف الى اخراج سلسلة كتب عربية سهلة تضم كل فروع المعرفة ما بين مؤلف ومترجم تشجيعا لحركة الترجمة والتأليف والنشر فى مصر ٠

ليس هذا فحسب بل لقد كان لطفي جمعه أول من راودتهم فكرة وضع دائرة معارف مصرية ، اذ ترجع هذه الفكرة الى سـنة ١٩١٠ عندما كان يتلقى العلم فى أوربا اذ وضع فى تلك الســنة بجنيف مشروعا لدائرة معارف مصرية حسب الحروف الأبجدية ٠ وقد ظلت هذه الفكرة تلح عليه الحاحا شديدا حتى انتهز فرصـة عيد جلوس الملك فؤاد سـنة ١٩٣١ وأرســل اليه خطابا فى ١٩٣١/٨/٥ جاء فيه « هدانى الله الى مشروع دائرة معارف مصرية عصرية باللغة العربية تتناول مصر من سائر نواحيها فتكون معلمة مبتكرة خاصة بهذه البلاد وأهلها أشبه براية مرفوعة لمصر على قمة الحضارة الحديثة بين أعلام الأمم الأخرى ٠٠ وقد وضعت لهـــذا المشروع خطة وجيزة حيث يضمن بها تنفيذه من حيث فروع العمل وسهولة الانجاز فان حازت فكرتى الضعيفة الصـغيرة قبولا لدى جلالتكم بادرت بتقديم بيان واف عن كيفية الابتداء فى هـــذا الأمر ٠٠ لقد تعود الذين يتفاخرون باظهار عواطفهم نحو ملوكهم

أن يبذلوا أعز ما لديهم أو يهدوا اليهم بعض ما يليق بأقدارهم وقد أردت أن أقدم هدية تليق بقدركم .. فلم أجد بين ما أملك شيئا أعز على نفسى وأعظم قدرا فى عينى من اظهار مصر ومكانتهـــا بين الأمم وعلومها وعظمتها وحياتها الماضية والحاضرة ووصف أخلاقها وتسجيل محامدها ومفاخرها » .

ولم يكن رد الملك فؤاد الا ما جاء فى كتاب ديوان كبير الأمناء من أنه رفع « الى السدة العلية الملكية الخطـــاب الذى أرسله الى حضرة صاحب الجلالة الملك فنال حسن القبول وانه يتشرف بابلاغه ذلك مع الشكر السامى » !!

مؤلفات لطفى جمعه

أما الكتب التى وضعها لطفى جمعه ولم يقدر لها أن ترى النور حتى الآن فهى ذخائر ثمينة فى الدين والأدب والتاريخ والاجتماع والفلسفة والتصوف والقصة والسياسة والمسرح والترجمة الذاتية وبيانها كما يلى :

فى الدين والتصوف :

١ ـ تفسير القرآن الكريم ·

٢ ـ الحركة العقلية والروحية فى الاسلام (علم الكلام والتصوف) ·

٣ ـ الرحلة الحجازية ·

٤ ـ خيار الأخيار فى ترجمة خلاصة الصوفية ·

فى التاريخ :

١ ـ تراجم مصرية لمصريين محدثين وغيرهم من رجال الفكر والأدب والسياسة ممن عرفهم وعاصرهم ولقيهم ·

٢ ـ بحث فى فلسفة التاريخ ·

فى الأدب :

١ ـ فلسفة البلاغة وعلاقه الفلسفة بالأدب (الكتابة والخطابة).

٢ ـ الخطابة فى الشرق والغرب .

٣ ـ الفلاكه فى الأدب القديم والحديث .

٤ ـ بحوث فى الأدب الأفرنجي والعربى والفلسفة الوجودية وأدب جيمس جويس .

٥ ـ فارس الشدياق .

فى القصة :

١ ـ فى بيوت الناس . الجزء الثانى .

٢ ـ الثعلب والثعبان .

٣ ـ الشيخ والشيطان .

٤ ـ سوسن هانم .

٥ ـ كرولينكو وافاجينا .

٦ ـ ثمرة الجوافا .

٧ ـ الخال المزيف وابن أخته الحلاق .

٨ ـ مختارة .

٩ ـ عائده .

١٠ـ الفتى العادل .

١١ـ قرة العين .

١٢ـ نهر الحياة أو كاس الحياة .

١٣ـ ترجمة قصة يوليسيز ليجمس جويس .

فى المسرح :

فى الفلسفة :

١٠ـ الاله فى نظر أرسطو .

١١ـ العدل الالهى والرد على الحكيمين تاليس وفولتير .

فى القانون والاجتماع والاقتصاد :

١ ـ التحقيق الجنائى .

٢ ـ مقدمة العلوم الجنائية .

٣ ـ مبادىء اقتصادية .

٤ ـ المسئولية المخففة .

٥ ـ الواجب لجول سيمون .

٦ ـ كتاب فى الحالة الاقتصادية .

٧ ـ دستور المدينة المنورة فى عهد النبى .

٨ ـ فاجعة قضائية .

٩ ـ وثيقة انسانية .

١٠ـ سياسة الطبقات فى مصر .

١١ـ الأخلاق عند المسلمين .

فى الترجمة الذاتية :

١ ـ ١٩ مارس بعد ثلاثين عاما .

٢ ـ ترجمة حال فلسفية .

٣ ـ خطرات أفكار . وهى مجموعة أفكار وآراء فى نبذ صغيرة بدأها فى أواسط شهر مايو سنة ١٩٠٨ بليون وختمها فى سويسرا سنة ١٩١١ .

٤ ـ تكوين عقل فى عهد الشباب أو تاريخ عقل .

٥ ـ سبب دراستي الفلسفة •

٦ ـ مذكرات سياسية •

٧ ـ تذكار الصبى •

٨ ـ مذكرات يومية •

فى السياسة :

حياة الشرق الجزء الثانى •

والأمل معقود على القائمين على النشر فى أن تنشر هـذه المؤلفات لينتفع بها جمهور القراء فى العالم العربى •

أما الكتب المطبوعة فهى وان كنا قد أتينا على ذكرها خلال هذه الترجمة ـ الا أننا نرى ايراد بيانها لتكون تحت بصر القارىء وهى :

١ ـ فى بيوت الناس	قصص	١٩٠٤
٢ ـ فى وادى الهموم	قصص	١٩٠٥
٣ ـ تحرير مصر	سياسية	١٩٠٦
٤ ـ الحكمة المشرقية		١٩١٢
٥ ـ حكم نابليون		١٩١٢
٦ ـ مائدة أفلاطون	فلسفة	١٩٢٠
٧ ـ تاريخ فلاسفة الاسلام	فلسفة اسلامية	١٩٢١
٨ ـ الشهاب الراصد	أدب	١٩٢٦
٩ ـ حياة الشرق	سياسة	١٩٣٢
١٠ـ بين الأسد الافريقى والنمر الايطالى	سياسة	١٩٣٥

١١ـ ليالى الروح الحائر ـ أدب ـ اجتماع ـ سياسة ١٩١٢

١٢ـ تاريخ علم الاجتماع اجتماع ١٩١٩

١٣ـ مقدمة قانون العقوبات ومبادىء العلوم الجنائية

قانون ١٩١٧

١٤ـ كتاب الأمير لميكافللى سياسة ١٩١٢

١٥ـ محاضرات فى التاريخ والاقتصاد تاريخ واقتصاد ١٩١١

١٦ـ ثورة الاسلام تاريخ ١٩٤٠/١٩٥٨

١٧ـ مسامرات الشعب قصص مترجمة

خلاصة حياة

عندما بلغ لطفى جمعه الستين من عمرة فى ١٨ يناير سـنة ١٩٤٦ كتب يقول « يجب على أن أسجل فى مثل هذا اليوم وبعد هـــذه السن أهم أفكارى ومشاعرى فأقول قد قضيت نحوا من خمسين عاما فى التعــليم والتعلم والقراءة والدرس والبحث عن الحقيقة الالهية وحقيقة الانسان والحياة وخـــدمة أهلى وأولادى والناس والتماس النجاة من مفاتن الدنيـــا والابتعاد عن شرورها والاهتداء الى النور والى الغاية العليا أو المقصد النهائى للوجـــود الانسانى على هذا الكوكب الأرضى والحــكمة الربانية ، ولم ألتفت طوال حياتى الى شىء من أعراض الدنيـــا التفاتا جديا أى أننى لم أسع لنيل مال أو أرض أو اكتناز وادخار مندفعا نحو العلم والحق والحرية والبحث والتمحيص لا احتقارا للمال والمادة ، ولكن اعتقادا منى انها ليست الغاية المقصودة من الوجود فكافأنى الله على ذلـك بالستر والبركة فكنت رابحا ، والآن بعد أن بلغت غروب الحيـــاة أرى بتمام الوضوح والجلاء البصرى أن الله لم يخدعنى وأننى كنت على حق فى اتباع هـــذه الخطة ، فان الثروة الروحية والعقلية التى أخرج بها من مسرح الحيـــاة أعظم وأوفر ، وقد خرجت من هـــذه الحياة الطويلة بأن الدنيا دار عقوبة ودار شقوة ولا سعادة فيهـــا الا بالايمـــان والتسليم لله والصبر الصبر الصبر الطويل المقترن

بالاجتهاد والتفكير والعمل والهمة والعمل الدائب على ترقية النفس وتقويتها فى محاربة الشر .. .. » .

« وخلاصة اختبارى أن مهمة الانسان هى تحمل الحياة لا التمتع بها والصبر على همها لا التماس السعادة فيها وترويض النفس على المكابدة والمكايد لا الاطمئنان الى نعمة الوجود ، ولا أنكر ولا ينكر عاقل أنه تمر بنا لمحات سعادة ولكن هـذه اللمحات نادرة وهى خواطر ولمعات عقلية قصيرة الأجـل .. وقد أمكننى بالتدريب أن أخلص من الأمانى كما خلصت من الطمع فى المال والمناصب فى وطنى .. متمتعـا بالحرية على أن أكون وزيرا فى مصر متألما من مرارة العبودية . ثم تخلصت من حب النسـاء وأنا فى عنفوان شبابى اذ قنعت بالزواج وتربية أولادى .. وأعتقدت أن الحيـاة لا تساوى شيئا ان لم أفعل وان لم أحاول بكل جهدى أن أوفـق بين أفكارى وحياتى ، ولا أملك المنافقة فى سبيل المصلحة ولا أصل الى الحق عن طريق الباطل أبدا .. وقد نفذت المبادىء التى اعتنقتها واستمسكت بها نظرية وعمـلا بقدر طاقتى وفوق طاقتى فى كثير من الأحوال لأنال احترام نفسى فى نظر نفسى أولا ولأكون صادقا مع ذاتى ، وبغير هذا لا أستطيع أن أعيش أو أرفع رأسى أمام ربى، وكل تقصير وكل خيبة وكل فتور سببها تلك الأحوال التى شعرت بضرورة تغييرها فى مصر منذ نعومة أظافرى .. لقد أحببت الحق والعدل والرحمة وكرهت النفـاق والكذب والمظالم ، فلم أجـد ما أحببت الا ألفاظا وصورا ذهنية ووجـدت ما كرهت حقائق ملموسة ، ولذا كانت أفراحى قليلة ونادرة وأحزانى كثيرة وطويلة .. عنـدما بدأت أكتب هذا الفصل فى ختـام السنة الستين من عمرى شعرت بلذة عظيمة لأننى اعتقدت أنه آخر ما أكتب فى هذه الدنيا فهو وداع ووصية وخلاصـة حياة وتفكير طويل وتمـام واجب .. وأتكلم عن الموت كما أتكلم عن أمر واقع حتى أن أصدقائى

وأهـــلى يدهشون ويتوجعون وترانى أرحب بالموت واستبشر به لاعتقادى أنه شيء عجيب اشتاق اليه لأرى ما بعده ٠٠ كنت أسمع قول الناس بلغ فلان ستين عاما فأدهش وأرهب أن أبلغ سنه وأخشى وأظنه أرذل العمر ، فلما جاء العام الستون وهو شيخوخة لا شك فيهـــا لم أشعر بأننى تغيرت ولا تبدلت بل شعرت بأننى نضجت واستويت وأصبحت أقدر على الفهم والادراك والاحساس والتذوق والتقدير ، ولذا بدأت أظن السنة الستين معناها النضج العقلى ٠٠ ليست العبرة بالزمان وعده والســاعات والدقائق والثوانى التى تصير أياما وشهورا ودهورا ، ولكن العبرة بما تتذوقه في سرور ولذة ومعنى العمر هو المعانى ٠ أنت تعيش المعانى لا الأيام وليس ما يمر سريعا يكون سعيدا ولا ما يمر بطيئا يكون ثقيلا وشقيا » ٠

غـــروب

بدأت أول أعراض المرض على لطفى جمعه فى أغسطس سنة ١٩٤٤ وقد شخصه الأطباء المعالجون بأنه ضغط دم وسكر نتيجة للحر الشديد وكثرة العمل العقلى وعدم الراحة والقلق ومشغولية البال والسهر الطويل ٠

ونصحوه بالتزام نظام معين فى الأكل والنوم مبكرا والاقلال من الاجهاد الذهنى ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد أكب على المطالعة والتأليف والكتابة، وترجم الى اللغة العربية جزءا غير قليل من كتـــاب « يوليسيز » لجيمس جويس على الرغم من صعوبة هذا الكتاب وجزالة أسلوبه وطريقة تأليفه ، كما كتب جزءا كبيرا من مذكراته وذكرياته وخاصة فى فترة وجوده فى فرنسا لطلب العلم وخدمة القضية الوطنية ، كما أتم بعض الأعمال الكبيرة مثـــل تفسير القرآن الكريم تفسيرا علميا حديثا وبدأ فى وضع معجم للقرآن ٠

وفى سنة ١٩٤٨ بينما كان يخطب فى حفـــــل أقيم لتأبين الزعيم الهندى الراحل مهاتما غاندى بمناسبة مصرعه على يد أحد الهندوس شعر أثنـــــاء القاء الخطاب بتعب لم يستطع معه متابعة الكلام ٠

ومنذ ذلك الحين اشتد المرض عليه وألحت عليه العلة وعاده الدكتور الفرنسي روجر جوديل في يناير سنة ١٩٤٩ ونصح باستمرار الحمية والنوم مبكرا والتقليل من المجهود العقلي ٠

ثم أصيب بتصلب في الشرايين وارتفاع في ضغط الدم وقد أشرف على علاجه خلال تلك الفترة المرحوم الدكتور رضوان قناوي والدكتور محمد ابراهيم ٠

وقد استمرت هذه الحال والمرض تشتد وطأته حتى كان يوم الاثنين ١٥ يونيو سنة ١٩٥٣ وقد زادت أعراض المرض وأصبح يتنفس بصعوبة ، وفي حوالى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم فتح عينيه وتألقت عيناه ببريق خاطف وبدا فيهما التنبه التام واليقظة الكاملة ، وما أن قاربت الساعة الرابعة والربع مساء حتى أخذ يئن أنينا خافتا وازداد التنفس صعوبة ، وما أن وافت الساعة على الرابعة والربع حتى أسلم الروح في سلام ولم يقل شيئا ٠٠

يقول لطفي جمعه « ٠٠ هل لى أن ألقي هذا السؤال بضعفي أمام قوته سبحانه وتعالى واذا جاز لى أو أذن لى فماذا يكون الجواب » ؟

لعلني لست لهذا الزمان وحده بل لعلني خلقت فيما مضى وسأخلق فيما هو آت حتى يصادفني الزمان والمكان اللذين تتوق روحي اليهما ، والا فما معنى الخلود والأبد والأزل اذا لم تكن فرصة غير هذه الفرصة واذا كان هذا هو القدر المعين فلا انطباق على الاستعداد والأهلية ويكون هذا الخلق عبثا حاشا الله أن يكون كذلك بل هي دورة من دورات الفلك ولفة من لفات الكون وصفحة من صفحات الوجود ٠

فان كان كذلك فما أنا الا صورة واحدة فى اطارات لا عدد لها ، فان لم يكن هذا الاطار منطبقا فلابد من وجود الاطار الذى ينطبق ويلائم ، لأن الصورة هى الأصل والاطار تبع وحلية وسياج»٠

وهكذا ـ طويت صفحة رجل جاهد فى سبيل الله والوطن والعلم والانسانية بل مات جيل من العلم والوطنية بموته ولم يرج عند الناس شكرا ، ودفن فى اليوم التالى بمدافن المرحوم « أمين عبد الله » بباب النصر بينما كان المؤذن يقول « محمد رسول الله »٠

وهكذا ـ وتلك من غرائب الصدف ـ ولد لطفى جمعة يوم اثنين بعد العشاء أو أثناء أذانها ، وتوفى يوم اثنين وورى التراب بينما كان المؤذن يؤذن لصلاة الظهر ٠ رحمه الله وغفر له وأجزل مثوبته وجمعنا واياه على خير ما نرجو ٠٠

رابح لطفى جمعة
مصر الجديدة
سنة ١٩٧٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٣١١٥



الهيئة المصرية العامة للكتاب



● هذا الكتاب :

يتناول حياة احد رواد نهضتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية فى مطلع هذا القرن ـ حياة : «محمد لطفى جمعة» الأديب الناقد والمفكر السياسى والمصلح الاجتماعى والمحاضر العالم والمؤلف القصصى والكاتب المسرحى الذى اتحف المكتبة العربية على مدى اربعين عاما بعشرات الكتب فى الأدب والتاريخ والسياسة والفلسفة والاجتماع والقصة والمسرح ، وكان له أعمق الاثر فى حياتنا الأدبية والثقافية والاجتماعية ، وامتع القراء فى النصف الأول من هذا القرن بمئات من المقالات والدراسات التى كان ينشرها فى مختلف الوان المعرفة على صفحات الجرائد والمجلات .

وهذا الكتاب الذى وضعه ابنه يتناول فى حيدة وموضـــوعية
الرجل ، الحافلة بالأعمال والآمال والآلام فى سبيل الله والعلم
ومكافحة المظالم والدعوة الى الحق والحرية والعدالة الاجتماعية



الثمن ٥٠ قرشا